دكتور
محمود محمد رسلان
أستاذ ورئيس قسم الدعوة المساعد
بكلية أصول الدين - المنصورة

فجر الدعوة الإسلامية
في مرحلتها المكية
منهجاً ودراسة

الطبعة الثانية
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعه الثانيه

الحمد لله نحمده ونستعينه ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله بلغ الرساله، وأدى الأمانه وجاهد فى الله حق جهاده.

وبعد :

فهذه **الطبعه الثانيه** من كتاب **(فجر الدعوه الاسلاميه)** راعيت فيه تصحيح الأخطاء قدر المستطاع مع التنقيح والإضافات، ليسهل على القارئ والدارس، مع بيان المنهج الذى سلكه سيدنا محمد ﷺ فى دعوته، ليكون نبراسا للمسلمين فى حياتهم على اختلاف تخصصاتهم سائلا المولى جل وعز أن ينفع به كاتبه، وقارئه، وأن يجعله فى موازين أعمالنا، إنه بنا رءوف رحيم .

استاذ دكتور

محمود محمد رسلان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين

خلق فسوى ، وقدر فهدى ،

والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الرسالة العصماء إلى البشرية جمعاء الذى أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، فجزاه الله عنا خير الجزاء .

وبعد :

فإن الدعوة الإسلامية جاءت الى الدنيا ، والناس فى أشد الحاجة اليها ، والأرض فى ظمأ الى نورها ، بعد أن غطى سطحها فساد الروم والفرس ، وتخضب وجهها بحروبهم ، وانحرافاتهم العقدية ، والاخلاقية ، ومن رحمة الله بالانسانية أنه لم يتركها تتخبط فى دياجير الظلام ، بل أنقذها ، ببعثة محمد ﷺ ، وأنزل عليه كتابا لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

فأصلح بنوره وجه المعمورة ، وظل ﷺ فى جهاد متواصل حتى استقر دين الله فى الأرض فأصلحها على يديه ، وكان من تعاليم الله للبشرية عدم الافساد مرة أخرى فقال سبحانه :

« ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين » الأعراف : ٥٦ .

وهذا الإصلاح استغرق من عمر الرسول ﷺ ثلاثة وعشرين عاما قضى منها ثلاثة عشر عاما فى مكة ركز جهوده منذ فجر الدعوة على تربية أصحابه ، وتقرير أمر عقيدة التوحيد بين ربوع مكة وما جاورها تلبية لأمر ربه :

«ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك » .

« لتنذر أم القرى ومن حولها » .

فهل كان تبليغ الدعوة أمرا سهلا ، وعملا ميسورا ؟ كلا لقد واجه محمد ﷺ صدا من أهله ومن القبائل عنتا وشدة ونفورا .

لقد مكث بينهم ثلاث عشرة سنة يدعو اهلها ، وهم يقفون عقبة كأداء فى سبيله ، فلم يدخل فى الإسلام فى هذه الفترة إلا عدد قليل لايتناسب مع مابذله ﷺ من جهد ومشقة ، حتى إذا أذن الله للنور أن ينتشر يمم ﷺ وجهه شطر قبائل العرب ووفودهم فى موسم الحج ، فوجد قلوبا متعطشة الى الهدى ، وعقولا متفهمة لدعوة الخير والتوحيد .

فكان أهل المدينة الذين احتضنوا دعوة الاسلام احتضان الأم الرؤم لأولادها .

لقد كان المحور الذى دارت عليه الدعوة فى مكة هو انتزاع العقائد الفاسدة كالشرك والوثنية، وانكار البعث ، والنبوات من العقول ، وتثبيت العقائد الصحيحة فى النفوس من توحيد الله عز وجل ، والإيمان به وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الأخر ، وإقامة الأدلة على وحدانية الله سبحانه ، ليؤمن من أمن عن بينة فيحيا حياة طيبة ، ويهلك من يهلك عن بينة ، فيحيا حياة الشقاء والحرمان .

كان منهج النبى ﷺ فى تلك الفترة :

تعليم ، وتربية وتعهد حتى صنع فى المرحلة المكية طرازا فريدا من الرجال كانوا اللبنات الأولى التى منها أسس الإسلام ، وعليها قام صرحه العالى المنيف .

لقد كان التركيز على هذا اللون من التربية ، أن قومه ﷺ كانت تسيطر عليهم : الوثنية ، وعبادة الأصنام ، فكان المنهج التربوى القويم فى الدعوة أن يزيح هذه العقائد الفاسدة ليزرع مكانها عقيدة التوحيد الصافى حتى إذا اطمأن أن الإيمان ملأ قلوبهم ، وانشرحت له صدورهم ، سهل عليه بعد ذلك أن يكلفهم بالحلال والحرام .

اتجاه الدعوة فى مكة :

ركزت الدعوة فى مكة على أصول التشريعات العامة ، والآداب والفضائل التى لاتتغير بتغير الزمان والمكان ، وذلك كالحث على الثبات على العقيدة ، والصبر على تحمل تبعاتها ، والأمر بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، والعدل والإحسان ، والتواصى بالحق والخير ، والنهى عن الرذائل :

كالقتل ، ووأد البنات ، والظلم ، والزنا ، وأكل أموال الناس بالباطل إلى غير ذلك[1] .

ولم تكن دعوة النبى ﷺ قاصرة على أهل مكة وحدهم ، كلا ، بل كان يدخل على

١- انظر د/ محمد محمد أبو شهبة : السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة جـ٢ ص ٩ ط الثانية .

القبائل القادمة الى مكة يعرض عليهم نفسه ، كما كان يغشى مجتمعات أهل الجزيرة فى أسواق : عكاظ ، ومجنة ، وذى المجاز ، كدلال يدلهم على خير الدنيا والآخرة ، ويدعوهم إلى بضاعة الدين ، وكنز التوحيد .

روى الإمام أحمد وأصحاب السنن ، والحاكم وصححه أن رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول :

« هل من رجل يحملنى إلى قومه ، فإن قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى[1] ؟»

إحدى عشرة سنة ، والرسول ﷺ يعانى من حياة لاراحة فيها ولا استقرار ، ومع ذلك لم يقلل شيئا من عزيمته ، ولم يضعف شيئا من قوته وسعيه ، إحدى عشرة سنة من الجهاد المتواصل والصبر الجميل فى سبيل الله وحده .. هى جزء من الجهاد والصبر ، والتعب ، وخوض الشدائد لقد كان من الجائز على الله سبحانه أن يقيم دعائم المجتمع الإسلامى بدونه ، ولكن هكذا سنة الله فى عباده ..

ولايتحقق التعبد بدون بذل الجهد ، ولايمحص الصادق من الكاذب ، أو المؤمن من المنافق بدون اختبار من عذاب أو استشهاد ، وليس من العدل أن يكسب الإنسان الغنم دون أن يبذل على ذلك شيئا من الغرم[2] .

وهذا البحث الذى بين يديك – أخى القارئ – جمع طائفة من دعوة الرسول ﷺ منذ فجر بعثته ، وعاش معه ﷺ الفترة المكية فكانت كلها مملوءة بالصبر والمثابرة ، والشفقة والمرحمة على المخاطبين ثم بيان منهجه

ولقد اقتضى العمل فى هذا البحث الى تقسيمه إلى مقدمة وخاتمة و اثنى عشر فصلا جاء ترتيبها كمايلى :-

الفصل الاول :

تكلمت فيه عن : تعريف الدعوة ، وقسمتها الى قسمين ، ثم عرجت إلى أنساب العرب ، وما أمتازوا به من صفات أهلتهم ليتحملوا أعظم رسالة نزلت الى الانسانية ، ثم مكانة قريش وحكومتها التى تكونت عصر المبعث .

١- فتح البارى : ١٥٦/٧ ، وزاد المعاد ك ٥/٢ ، والفتح الربانى فى ترتيب مسند الامام احمد ٢٦٩/٢٠ .

٢- فقه السيرة د/ البوطى ص ١٢٥ .

الفصل الثانى :

قصرت الحديث فيه عن البشارات ، والنبوءات المتصلة بظهور محمد ﷺ ، من التوراة والانجيل ، مع تحقيق لفظ (الفارقليط) ومدلولها .

الفصل الثالث :

وهو بداية ربط العرب بميلاد محمد ﷺ ، وضمنته : قصة أصحاب الفيل ، وفوز العرب بالنبوة ، ولماذا نجت الكعبة من أبرهة ولم تنج من الحجاج ، ثم أضفت اليه مكانة محمد ﷺ فى سجل التاريخ .

الفصل الرابع :

وتحدثت فيه عن مبعث محمد ﷺ ، وبدء الوحى ، وإعداد الله لرسوله ﷺ ، وواصطفائه ، وطريقة التبليغ ومراحله ، ثم أعطيت صورة موجزة عن التوحيد لدى العرب ، وغيرهم .

الفصل الخامس :

أوضحت فيه ، وفصلت منهج اقرأ الذى تربى عليه محمد ﷺ ومقومات شخصيته ﷺ ، وفهمه للقرآن وتطبيقه .

الفصل السادس :

بينت فيه دور مدرسة دار الأرقم بن أبى الأرقم فى فجر الدعوة ... وسبب اتخاذها ، ومسلك صاحب الدعوة ﷺ مع قومه ، ثم مطالب الدعوة .

الفصل السابع :

ضمنته الحديث عن هجرة المسلمين الى الحبشة ، ثم وصفا تفصيليا لوضع المهاجرين على أرضها . ثم إسلام النجاشى .

الفصل الثامن :

تحدثت فيه عن العقبات التى واجهت الدعوة ، ومطالب أهل مكة من الخوارق المادية لرسول الله ﷺ ، وعدم اليأس من هذه المطالب والرد عليهم .

الفصل التاسع :

تكلمت فيه عن علاج الرسول ﷺ لأدواء الجاهلية .. والرد على شبهة الدهرية وتفنيدها .

الفصل العاشر :

شرحت فيه : سبب خروج الرسول ﷺ الى الطائف ، ثم دخوله مكه فى جوار المطعم بن عدى ، وأثر ذلك .

الفصل الحادى عشر :

تكلمت فيه عن الجوار وأثره فى الدعوة ، وموافقة الاسلام لهذا الجوار وعدم تحريمه ، ثم بشأن انفراج الأزمة للمسلمين ببيعتى العقبة الاولى والثانية . ثم لماذا لم يكتب رسول الله ﷺ فيهما وفى بيعة الرضوان كتابا ولا عهدا مسجلا ؟

ثم تكلمت عن الإسراء والمعراج باختصار ، ثم حفظ الله للدين وعصمته ، وأخيرا ثمرات الوحى .

الفصل الثانى عشر :

خصصته عن الجوار وأثره فى نجاح الهجرة ، ثم سبب الهجرة ، وأشرت الى هجرة بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم أشارة مختصرة الى تحطيم الاسلام للأصنام .

ثم تكلمت عن الهجرة فى القرآن ، والسنة ، وأثر هجرة رسول الله ﷺ فى الدعوة ، ثم تكلمت عن الهجرة لغة واصطلاحا ، وأخيرا الهجرة فى فكر المستشرقين ، ومقارنة مختصرة لهجرتى : الحبشة والمدينة .

وأخيرا أسأل الله عز شأنه أن يجعل عملى هذا خالصالوجهه وأن ينفع به .

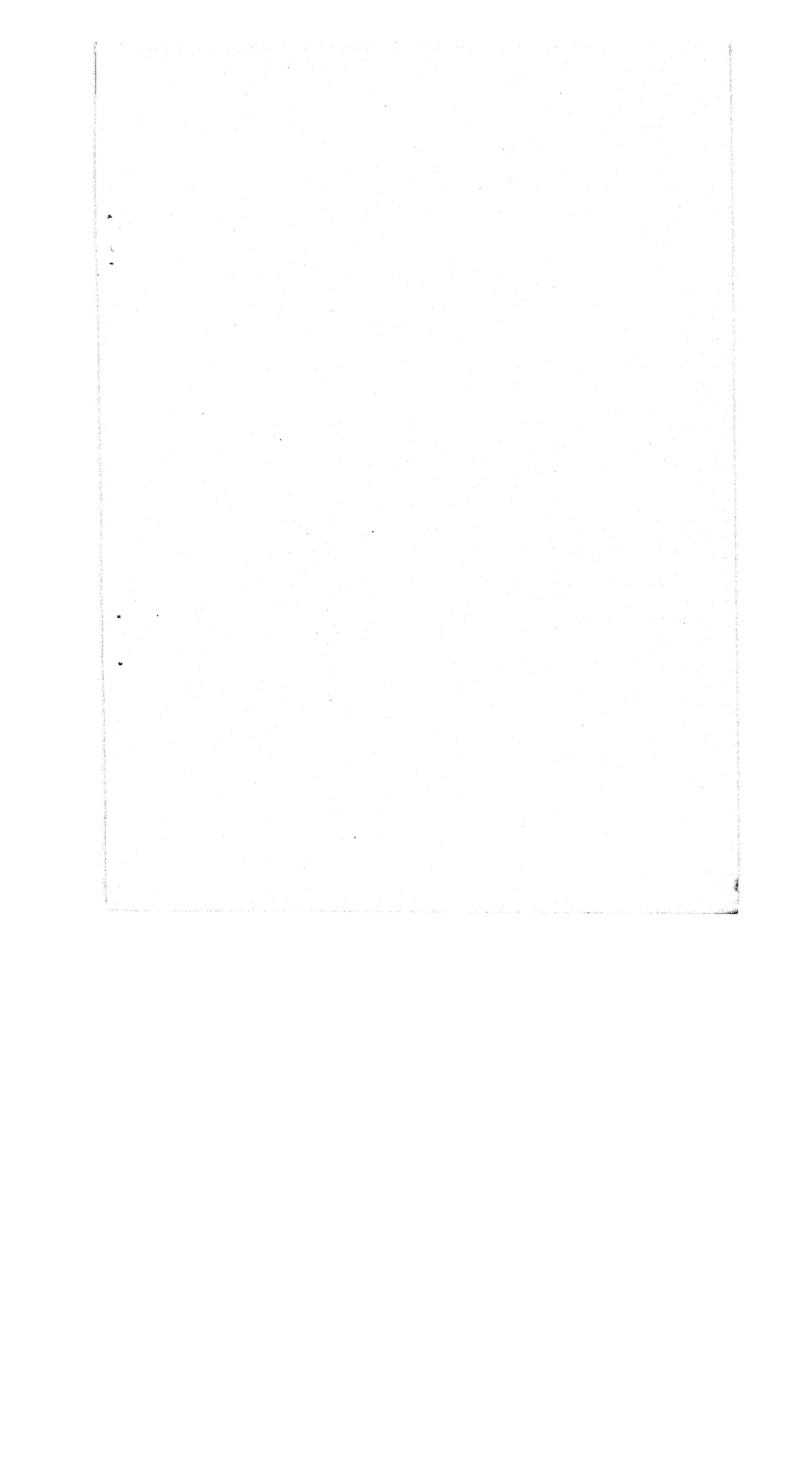
وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

دكتور

محمود محمد رسلان

الفصل الأول

تعريف الدعوة – معناها – الدعوة المقبولة
الدعوة لها شقان – حكم الدعوة
شبه جزيرة العرب – لفظ العرب – أنساب العرب –
مدلول لفظ العرب – كمال العرب فى الفهم .
قوة بيان العرب – الحكمة فى نزول الدعوة الاسلامية فيهم ،
مكانة قريش فى الجاهلية .



تعريف الدعوة .. ، ومعناها :

الدعوة لغة : الطلب : والنداء .

والدعوة إلى الله معناها : نداء الناس إلى الله وطلبهم ليؤمنوا به ويتبعوا شريعته ، والرسل جميعا دعاة بهذا المعنى . وقد قال الله لنبيه محمد ﷺ :

« يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا »(١)

وهى : إهداء واهتداء : اهداء نور السماء لأهل الأرض ليهتدى أهل الأرض بنور السماء يغسلهم من أدران الجهل والعبودية البشرية ، فيرتفعوا بالهداية ، ويرتقوا بنور العلم وعبودية الله وحده سبحانه .

وهى : أمر بمعرورف ونهى عن منكر وتعاون على البر والتقوى ، وتواص بالحق وبالصبر وبالمرحمة.

والدعوة إلى الله : قبس من نور الله المبين ، وضياء من هدى خير المرسلين .

وهى : جهاد السلم ، وبديل الحرب ، وإعداد المسلمين للانتصار على نفوسهم أولا ثم على أعدائهم ثانيا .

وهى : نشر الدين وتعاليمه وفضائله ، وإظهار كلمة الله ، وجلاء محاسن الاسلام ، تحبيب الإيمان إلى النفوس ، وتزيينه فى القلوب ، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان .

والدعوة أيضا : بلاغ الرسل ، وأمانة العلماء ورثة الأنبياء .(٢)

والدعوة إلى الله مطلوبة ؛ لأنها تعليم وتربية . وعليها عماد السعادة فى الدنيا والآخرة أمر الله بها نبيه فقال :

« أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .(٣)

١- الأحزاب : ٤٦ .

٢- الشيخ محمد أبو طالب شاهين : الدعوة والدعاة فى منهج القرآن الكريم ص ٣ بحوث المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة المدينة المنورة ١٣٩٧ هـ .

٣- النحل : ١٢٥ .

وأمر بها المؤمنين فقال :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .[1]

ويقول سبحانه :

« ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين » [2]

وقوله عز شأنه :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .[3]

وقوله تبارك وتعالى :

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين »[4]

كما أن النبي ﷺ أمر المسلمين بقوله : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب »[5]

وقوله : « بلغوا عني ولو آية »[6]

وقولة : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .[7]

ومع أمر الرسول ﷺ للدعوة فقد رغب فيها كثيرا وشجع عليها ، وجعلها عنوان شرف لهم ، قال عز شأنه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .[8]

١- آل عمران : ١٠٤ .

٢- القصص : ٨٧ .

٣- العنكبوت : ٦٩ .

٤- فصلت : ٣٣ .

٥- رواه الشيخان .

٦- رواه البخاري

٧- رواه مسلم .

٨- آل عمران : ١١٠ .

وقال ﷺ : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » .(١)

ويقول الرسول ﷺ عن نفسه : « بعثت داعيا ومبلغا » .(٢) .

ويخاطب الله سبحانه رسوله بقوله :

« قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحانه الله وما أنا من المشركين »(٣) .

فالدعوة : ميدان جهاد مقدس ، ومعركة من أشرف المعارك خاضها ، ويخوضها الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، ومابدلوا تبديلا »(٤)

الدعوة المقبولة :

هى الدعوة المجابة التى صدرت عن علم ، وعمل ، وصدق ، وإخلاص فإذا بدأ الداعى بنفسه وصار قدوة فى عمله ، وصدقه ، وإخلاصه ، فإن الصدق أنفذ إلى القلوب ، والإخلاص أعمل فى النفوس .

فالدعوة إذن : علم وعمل ، وكلمة وسلوك .

والدعوة كل كلمة طيبة فى قول رشيد ، ورأى سديد ، وقلم نظيف ، ومقالة هادفة ومحاضرة بناءة ، وموعظة حسنة ، وتوجيه صالح ، وعلم نافع ، وكتاب مفيد ، وإذاعة طيبة .(٥)

وينبهنا الرسول ﷺ على أن امكاناتنا جميعا يجب أن .. تجعل فى سبيل الله ، وفى طاعته ولا شك أن الدعوة إلى الإسلام تأتى فى طليعة ذلك ، ويبين لنا أننا مسؤلون

١- رواه البخارى : باب غزوة خيبر .

٢- السيوطى : الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير حـ ٢ ص ٨ .

٣- يوسف : ١٠٨ .

٤- الأحزاب : ٢٣ .

٥- الدعوة والدعاة فى منهج القرآن الكريم ص ٤ .

عن تصرفنا بهذه الإمكانات ، وهذا قوله : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن جسده فيم أبلاه ؟ ، وعن ماله من أين أكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ما عمل فيه ؟ » .

وتحدثنا كتب السيرة النبوية أن الرسول ﷺ كان يبعث أصحابه - على حبه لهم وحرصه عليهم - ليدعوا إلى الله ، ويبلغوا عنه ، ويبذلوا قصارى جهدهم فى إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وتحريرهم من ربقة عبادة الأصنام والأوثان ، ومعتقدات الآباء ولقد كان طريق « الدعـوة » محفوفا بالشدائد ، مفروشا بالأخطار ، وما خبر أصحاب الرجيع فى السنة الثالثة من الهجرة ،
ولا أصحاب بئر معونة فى السنة الرابعة عنا ببعيد ، فلقد استشهد على طريق الدعوة فى هاتين المناسبتين وحدهما : زهاء ثمانين رجلا من خيار المسلمين وحفاظهم للقرآن الكريم

وفى ضوء ما تقدم ، ندرك بيقين أن أمة الإسلام - فى حقيقتها - هى أمة دعوة تلتزمها ، وتسأل عنها ، بين يدى الله سبحانه وتعالى ، وتتخطى بموجبها فى إيمان وحسم كل الحدود والحواجز التى تنتهى عندها ... سواء أكانت هذه الحدود ناشئة من الاعتبارات الجغرافية ، أو السياسية ، أو العرقية ، أو اللونية ، أو نحوها ،
ومن ثم تكون أمتنا من حيث هى : أمة داعية ، مفتاحا لخيرات السماء ورحماتها ، كما تعم أهل الأرض طرا .

فالدعوة إذن واجبة على المكلفين أجمعين ، ولكن كل بقدر طاقته ، ومن خلال اختصاصه فالعالم ، والمتعلم ، والتـاجر ، والزارع ، والحاكم ، والمحكوم ، والغنى والفقير ، والذكر والأنثى كل أولئك يجب عليهم أن يستشعروا هذا الواجب ، وأن يجعلوا من الدعوة محورا وهدفا لحياتهم ماوسعهم ذلك[1] .

١- راجع للدكتور أحمد محمود الأحمد : الدعوة كما تتبينها فى السنة والسيرة ص ١ ، ٢ م بحوث المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة والدعاة . المدينة المنورة . (١٣٩٧ هـ)

والدعوة إلى الله ذات شقين :

الشق الأول : دعوة الجاهل ، **والشق الآخر** : دعوة العالم . فدعوة الجاهل تكون بدعوة الكافر إلى الإسلام ، وتعليمه أحكـام الدين ، وبتعليم المؤمن الجاهل ما يجهـله منها ، ودعوة العالم بالأحكام الدينية تكون بترغيبه فى فعل الخير أو فى الاستمرار عليه ، وترهيبه من فعل الشر أو الاصرار عليه وهو المعبر عنه عرفا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإن كان ذلك يشمل الدعوة لغة بكلا شقيها ، فالإسلام معروف والكفر منكر .

معنى هذا أن لدينا عالم دين ، وعالم دنيا ، أو كما قسم الاستعمار حينما جعل التعليم فى مصر : مثلا (دينى وهو مقصور على الأزهر ، ودنيوى وهو مقصور على بقية مدارس ومعاهد مصر وكلياتها) وهذا يستتبع دعوة علماء الدنيا إلى معرفة الإسلام ، وأنه يشمل القسمين معا : فهو للدين والدنيا معا ، مصداق ذلك قول الله تعالى : « ولا تنسى نصيبك من الدنيا » .

وفى مقابلها : « وابتغ فى ما آتاك الله الدار الآخرة »[1] .

فهذا يجعل من كل مسلم خاصة العالم أن يكون حريصا على بيان حقيقة الإسلام فيمن حوله ومن يتصل بهم .

حكم الدعوة : الوجوب ، غير أنه يكون كفائيا إذا تعدد الصالحون للدعوة ، وعينيا إذا لم يوجد غير واحد يصلح لها ، وقال بعض العلماء :

أنها تكون واجبة فى الأمر بالشئ الواجب ، والنهى عن الشئ المحرم .

وتكون مندوبة فى الأمر بالمندوب ، والنهى عن المكروه ، وإن كان ذلك يتم ببعض الدعاة ، أو بواحد منهم إذا تعين .

من الذى يقوم بالدعوة ؟ كل إنسان عنده قدرة على الدعوة يستطيع أن يقوم بها فى الموضوع الذى يعلمه ، فمن يعلم وجوب الصلاة يأمر بها من لا يؤديها ، ومن يعلم حرمة

١- القصص : ٧٧ .

الخمر ينهى عنها من يشربها ، ومن يعلم حرمة الربا ينهى عنه من لا يعلمه وهكذا حتى يستقيم أمر المجتمع ويسير فى طريق الهدى والرشاد . ويعتبر الداعى فى هذه الحالة عالما بما يدعو إليه ، ولا يجوز له التملص من القيام بها ، ويلقى تبعتها على ذوى الشهادات ،والتخصصات العلمية .

أما دقائق الأمور التى لا يعلمها كل أحد ، وأما الدعوة العامة لكل ما جاء به الدين فلا بد من وجود الكفاءة عند من يتصدى لها ؛ لأن الداعى الجاهل قد يفترى على الله الكذب ، فيضل ويضل ، والنهى عن ذلك موجود فى نصوص كثيرة ، ويكفى منها حديث :

« إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فأفتوهم بغير علم فضلوا وأضلوا » .(١)

ولأن الداعى العام – المتخصص – سيتعرض لمواقف متعددة فلابد أن يكون مسلحا بكل الأسلحة التى ينجح بها فى دعوته ، كالدعاة الذين يوفدون لنشر الثقافة الإسلامية بين الأقليات أو لنشر الدين بين من لا يؤمنون به .

ومن هنا كان وجوب الدقة فى اختيار من تسند إليهم هذه المهمة على أساس التمكن العلمى والدراسة الفنية بأسلوب الدعوة المتمثل فى الحكمة والموعظة الحسنة ، كما سنرى من مواقف الرسول العظيم ﷺ ومنهجه .

ووسائل الدعوة كثيرة منها : ما يكون باللسان : خطابة ، ومحاضره ، وفتوى ، ومناظرة ، ووعظا ودرساً ، .. إلى آخره .

ومنها ما يكون باليد : تغييرا للمنكر ، وكتابة فى الصحف والمجلات وتأليفا ونشرا ، وإقامة للمؤسسات ، وإعدادا للاجتماعات ، وتهيئة للانتقال بها إلى مجالاتها الداخلية والخارجية .

ومنها الجهاد لا لإكراه الناس على الدخول فى الإسلام ، ولكن حماية لتقريرسير الدعوة، وعدم التعرض لها كما ستقرأ فى ثنايا هذا البحث إن شاء الله .

١- رواه الشيخان .

ومن الممكن ممارسة الدعوة إلى الإسلام فى المعاهد والمدارس ، والمساجد ، والجمعيات ، والسجون بل فى الطرق والميادين العامة ، وفى أى لقاء مع من يحتاجون إليها مع استعمال الأساليب والمبتكرات الحديثة المناسبة لتطور العصر[١] .

بعد هذا التمهيد للدعوة نتعرف على :

بيئة البحث ، وأعنى بها جزيرة العرب :-

جزيرة العرب : تمتد من بحر القلزم إلى بحر البصرة ، ومن أقصى حجر باليمن إلى أوائل الشام بحيث كانت تدخل اليمن فى دارهم ، وفى هذه الأرض كانت العرب حين المبعث ، وقبله فلما جاء الإسلام وفتحت الأمصار سكنوا سائر البلاد ، ومن أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، وإلى سواحل الشام وأرمينية وهذه كانت مساكن فارس والروم والبربر وغيرهم .[٢]

وبما أن البحر الأحمر يحدها من الغرب والجنوب ، وخليج فارس من الشرق فهى شبه جزيرة .

حدودها الطبيعية :

أ) الحد الشرقى الشمالى يبدأ فى الجنوب بخليج فارس من شواطئ عمان ، فالبحرين إلى مصب الفرات ودجلة ، ثم على طول الفرات إلى أعالى سوريا .

ب) والحد الغربى الشمالى يمتد من الفرات شرقى سوريا ، وفلسطين إلى خليج العقبة .

جـ) أما الحد الشرقى الجنوبى فيقع على طول البحر الأحمر إلى باب المندب .

د) أما الجنوبى الغربى : فيبدأ من بحر العرب على شواطئ اليمن وحضرموت إلى شواطئ عمان[٣] .

١- بيان للناس : عن الأزهر الشريف : ٢٦١/١ ط المصحف الشريف .

٢- الألوسى : بلوغ الأرب : ١١/١ ، وكارل بروكلمان : تاريخ الأمم والشعوب .

٣- راجع جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام : ٢٩/١ ، ل . أسيديو : تاريخ العرب العام ص ١٩ تعريب عادل زعتر .

لفظ العرب :

هذه اللفظة في الأصل اسم لقوم جمعوا عدة أوصاف :

أ- أن لسانهم كان اللغة العربية .

ب- أنهم كانوا من أولاد العرب .

جـ- أن مساكنهم كانت أرض العرب وهى شبه جزيرة العرب ..

أنسابهم :

ترجع إلى أقسام ثلاثة :

١- قوم من نسل العرب وهم باقون على العربية لسانا ودارا ، أو لسانا لا دارا ، أو دارا لا لسانا .

٢- وقوم من نسل العرب بل من نسل بنى هاشم ثم صارت العربية لسانهم ودارهم أو أحدهما .

٣- وقوم مجهولو الأصل لا يدرون أمن نسل العرب هم أم من نسل العجم وهم أكثر الناس اليوم سواء كانوا عرب الدار واللسان ، أو فى أحدهما ، وكذلك انقسموا فى اللسان الى ثلاثة أقسام :

أ- قوم يتكلمون بالعربية لفظا ونغمة .

ب- قوم يتكلمون لفظا لا نغمة ، وهم المتعربون الذين لم يتعلموا اللغة ابتداء من العرب ، وإنما اعتادوا غيرها كغالب أهل العلم ممن تعلم العربية .

جـ- وقوم لا يتكلمون بها إلا قليلا وهذان القسمان منهم من تغلب عليه العربية . ومنهم من تغلب عليه العجمية ، ومنهم من يتكافأ فى حقه الأمران إما قدرة وإما عادة[1] .

١- بلوغ الأرب :١١/١ .

مدلول لفظ عرب :

إذا أطلق هذا اللفظ قبل الإسلام فيراد به : سكان شبه جزيرةالعرب فقط وهذه اللفظة في التاريخ القديم يرادف لفظ : (بدو) ولما تحضر بعض قبائل العرب قديما ، وأقاموا في مدن اليمن ، والحجاز ، وحوران وغيرها لم يعد لفظ « العرب » محصوراً في « البدو » فتنوع معناه كما تنوع مسماه ، فاضطروا إلى كلمات تميز بين الحالين ، فاستعملوا لفظ « الحضر » لأهل المدن ، و« البدو » لأهل البادية .[1]

من الصفات التى امتاز بها العرب :

كل نوع من المخلوقات يمتاز بصفة من الصفات التى أودعها الله فيه ، والإنسان مشارك لسائر الأجسام في الحصول على الحيز والفضاء ، وللنبات في الاغتذاء والنشوء والنماء ، وللحيوانات العُجم في حيويته بأنفاسه وحركته بإرادته وإحساسه ... ويمتاز الأنسان على سائر الحيوانات كلها في نفسه وجسمه .

أما فضله في نفسه : فبالقوة المفكرة التى بها العقل والعلم والحكمة ، والتدبير والرأى فإن البهائم ، وإن كان كلها يحس ، وبعضها يتخيل فليس لها فكرة ، ولا روية ، ولا استنباط المجهول بالمعلوم ، ولا تعرف علل الأشياء ، ولا أسبابها ، وليس في قوتها تعلم الصناعات الفكرية ، وإنما يتعلم بعضها بعض الصناعات المتخيلة ، وأقواهم في ذلك الفيل والقرد .

أما فضله في جسمه : فباليد العاملة واللسان الناطق ، وانتصاب القامة الدال على استيلائه على كل ما أوجد في هذا العالم ، وقد امتن الله على الإنسان فقال :

« لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم »[2] ، وقوله سبحانه :

« وصوركم فأحسن صوركم .. »[3] .

ولم يَعْن الصورة التخطيطية فقط بل عناها ، والصورة المعقولة ، ولتشريفه

١- العرب قبل الاسلام : ٣١/١ .
٢- التين : ٤ .
٣- غافر : ٦٤ .

تعالى إياه بذلك قال :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً »[1] .

فمن زعم ، أو يزعم أن الإنسان خُلِقَ خِلقة ناقصة عن الوحشيات من حيث أنه لمُ يُكْفَ الملبس كما كفيته ولم يُعْط سلاحا فى ذاته كما أعطىَ كثير منها[2].

أو يظن أن الإنسان أصله قرد كما يظن (دروين) وقد ألف كتابا[3] فى بيان : أن الانسان كان قردا ثم عرض له التنقيح والتهذيب فى صورته بالتدريج على تتالى القرون المتطاولة ، وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ (أوران أوتان) ، ثم ارتقى من تلك الصورة الى أول مراتب الإنسان ، فكان اليميم ، وسائر الزنوج ، ومن هناك عرج بعض أفراده إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الإنسان . القوقاسى وعلى زعم (دروين) هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك ، فإن سئل (دروين) عن الأشجار القائمة فى غابات الهند .

والنبات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحددها إلا ظنا .

وأصولها ؛تضرب فى بقعة واحدة ، وفروعها تذهب فى هواء واحد . وعروقها تسقى بماء واحد فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته ؟

وأشكال أوراقه ، وطوله وقصره وضخامته ، ورقته ، وزهره ، وثمره وطعمه ، ورائحته ، وعمره فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟! لاسبيل إلى الجواب سوى العجز عنه[4] . ثم لماذا لم تتحول بقية الأناسى إلى

١- الإسراء : ٧٠

٢- بلوغ الأرب : ١٩/١ .

٣- أصل الأنواع .

٤- جمال الدين الأفغانى : الرد على الدهريين رسالة نقلها من الفارسية إلى العربية الإمام الشيخ محمد عبده ص ٢١ .

قرود ؟ ولماذا ظل القرود قرودا ، والأناسى أناسى . فمن ظن هذا فى الانسان فنظره ناقص ؛ فالإنسان قد أعطى بدل قوة الوحوش ، التمييز الذى يمكنه أن يتخذ به كل ملبس ، وكل سلاح حَسْب ما يريده فيتناوله متى أراد ويضَعَه متى أحب ثم لو أعطى الإنسان بعض الأسلحة التى أعطيته لم يمكنه أن يستعمل غيره كالوحشيات ، وأيضا فلو أعطـى ذلك لكان من الحق أن لا يعطى التمييز لأنه حينئذ كان يستغنى عنه فتبطل فائدته ، وفعل الله منزه عن ذلك ، فإن قيل : كيف قال الله تعالى :

« وخلق الإنسان ضعيفا »[1] فاستضعفه قيل ضعفه بالإضافة الى الملأ الأعلى لما فيه من الحاجات البدنية التى كفيها ، فإذا كان مناط الفضيلة ماذكرناه ، ففضل العرب على غيرهم بسبب ما اختصوا به فى عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم .

أما كمال العرب فى الفهم :

فكانوا لا يبارون في قوة ذكائهم بالإضافة إلى إصابة حدس ، وحدة ألمعية ، وصدق فراسة يخبرون عن الغائب بقوة ذكائهم كأن قد شاهدوه ، ويصف لهم الحدس الصائب حال الورد قبل أن يردوه ، ويثبتون أبعد شئ بحدة ألمعيتهم كأن ليس ببعيد ، وينظم لهم المجهول صدق فراستهم فى سلك المعروف منذ زمان مديد ، وقد كان منهم فى الأزمنة المتأخرة من هو دون السابقين بمراتب كثيرة ، ومع ذلك يتفطنون للرمزة والدقيقة ويتنبهون من اللحظة الخفية والإشارة اللطيفة ، يحكى أن سليمان بن عبد الملك أتى بأسارى وكان الفرزدقُ حاضرا فأمره سليمان بضرب واحد منهم فاستعفى فما عفى ، وقد أشير إلى سيف غير صالح للضرب ليستعمله فقال الفرزدق :

بل أضرب بسيف أبى رَغْوَان سيف مجاشع يعنى نفسه ، وكأنه قال : لا يستعمل ذلك السيف إلا ظالم أو ابن ظالم ، ثم ضرب بسيفه الأسيرَ واتفق أن نبا السيفُ فضحك سليمان ومن حوله[2] .

١- النساء : ٢٨ .

٢- بلوغ الأرب :١٩/١ .

قوة بيان العرب :

العرب جيل من الناس لم يزالوا موسومين بين الأمم بالبيان فى الكلام والفصاحة فى المنطق والذلاقة[1] فى اللسان ، ولذلك سموا بهذا الاسم ، فإنه مشتق من الإبانة لقولهم : أعرب الرجل عما فى ضميره إذا أبان عنه ، ومنه قوله ﷺ : « الثيب تعرب عن نفسها » .

وهم أمة قديمة ، فقد كانوا بعد الطوفان ، وعصر نوح عليه السلام فى عاد الأولى وثمود والعمالقة ، وطسم ، وجديس ، وأميم ، وجرهم ، وحضرموت ، ومن ينتمى إليهم من العرب العارية[2] من أبناء سام بن نوح عليه السلام ، ثم لما انقرضت تلك العصور وذهب أولئك الأمم ، وأبادهم الله بما شاء من قدرته ، وصار هذا الجيل فى آخرين ممن قرب نسبهم من حمير وكهلان ، وأعقابهم من التبابعة ومن إليهم من العرب المستعربة من أبناء عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ، ثم لما تطاولت تلك العصور وتعاقبت ، وكان بنو شالخ بن عابر أعالِمَ من بين ولده ، واختص الله تعالى بالنبوة منهم إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناحور ، بن ساروح بن أرغو بن فالغ ، وكان من شأنه مع نمروذ ماقصه القرآن الكريم ، ثم كان من هجرته إلى الحجاز ما هو مذكور - كما سيأتى - وتخلف ابنه اسماعيل مع أمه هاجر بالحجر قربانا لله تعالى ، ومرت بهم رُفقة من جرهم فى تلك المفازة ، فخالطوها ، ونشأ اسماعيل عليه السلام بينهم ، وربى فى أحيائهم ، وتعلم لغتهم العربية بعد أن كان أبوه أعجميا ، ثم كان ما كان من أمر بناء البيت ، كما ذكر

١- البلاغة فى المنطق .

٢- طبقات العرب : عرب عارية وهم الراسخون فى العروبة ، وتسمى أيضا بائدة ، وعرب مستعربة ، وسموا بذلك لأنهم صاروا إلى حال لم يكن عليها أهل نسبهم وهى اللغة العبرية بمعنى الصيرورة كقولهم : استنوق الجمل ، وطبقة ثالثة وهم العرب التابعة للعرب من قضاعة وقحطان ، وعدنان .. وهؤلاء شرفهم الله بالنبوة والهجرة ، على يد محمد ﷺ ، والطبقة الرابعة : العرب المستعجمة . ومن له ملك بدوى بالمغرب والمشرق ، وسموا بذلك لاستعجام لغتهم على اللسان المصرى الذى نزل به القرآن وهو لسان سلفهم ... راجع لابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .. الذى حصر فيه أجيال العرب من مبدأ الخليقة إلى عهده .

القرآن الكريم ، ثم بعثه الله تعالى إلى جرهم والعمالقة الذين كانوا بالحجاز رسولاً[1] ، فآمن كثير منهم واتبعوه ، ثم عظم نسله ، وكثر وصار أبا لجيل آخر من ربيعة ومضر ، ومن إليهم من : إياد ، وعك ، وشعوب نزار ، وعدنان ، وسائر ولد اسماعيل عليه السلام وهم العرب التابعة للعرب ، ثم انقرضت تلك الشعوب فى أحقاب طويلة ، وانقرض ماكان لهم الدولة فى الاسلام وخالطوا العجم بما كان لهم من التغلب عليهم ففسدت لغة أعقابهم فى آماد[2] متطاولة .

الحكمة فى نزول الدعوة الإسلامية على العرب :

أنهم أحفظ من غيرهم :

لماذا ؟ لغلبة الأمية عليهم فهم لا يقرءون ولا يكتبون ، ومع هذا حفظوا على سبيل التفصيل أيامهم وحروبهم ، ووقائعهم ، وما قيل فيها من شعر وخطب ، وماجرى من المفاخرات والمنافرات[3] : بين قبائلهم ، وضبطوا أنسابهم ، وأسماء فرسانهم الذين نزلوا فى ميادين حروبهم ، وأنهم من أى قبيلة ، وإلى أى أب ينتهون من الآباء الأولين .. وكان أحدهم يقول الشعر بلغت أبياته مابلغت فماهم الا أن سمعوه ، فانتقش فى صحائف خواطرهم ، وتمثل فى خيالهم ، يتساوى فى هذا العامة والخاصة ، الصغير منهم والكبير ، والذكر والأنثى من أحيائهم ...

وقد دون المتأخرون ماتلقوه من الثقات ، وماسمعوه من أفواه الرواة من أيامهم ، وأخبارهم وأمثالهم ، وأشعارهم . فبلغ ذلك مابلغ من الأسفارحتى تجاوزت دوائر العدد والانحصار . هذا مع أن ذلك بالنسبة إلى مالم يصل إليهم كقطرة من بحار ، وذرة من جبال وقفار .

وأما الغالب من شعرهم ولغتهم وأيامهم الأول فقد ذهب بذهابهم ، وبقى فى الصدور ولم

١ - إنه إذاً أول رسول إلى العرب

٢- آماد : جمع أمد محركة . قال الراغب فى المفردات : يقال باعتبار الغاية . والزمان عام فى الغاية والمبدأ ، ويعبر به مجازا عن سائر المدة ، والأمد : المنتهى من الأعمار .

٣- راجع المفاخرات والمنافرات فى كتاب الخطابة : نشأتها وميادينها للمؤلف .

ينقل ، وأخذوا معهم فى أكفانهم كثيرا من العلوم والفنون ...

وهذه أبيات لبعض الأجلة العراقيين فى هذا الشأن يقول فيها :

أسفى على فضلى ولم أكن

أبصرت عارف حقه فيبين

ومن العلوم الغامضات ورمزها

أملى قضيت وللفنون ديون

وأخذت فى كفنى علوما لم أجد

من يحفظن حقوقها ويصون

ورفيق أسرار جعلت لها الحشى

مستودعا هى فى الدفين دفين

حيث لم يجد من يحفظ حقوقها ويصون ... وهذا الأصمعى - عالم العربية ... من متأخريهم قال : مابلغت الحلم حتى رويت اثنى عشر ألف أرجوزة[1] للأعراب ، وكان خَلَفُ الأحمر أروى الناس للشعر ، وأعلمهم بجيده ، وبالجملة فقد كان العرب أحفظ الناس من غيرهم[2] .

ولهذه الحكمة الجليلة ولغيرها نزل القرآن فيهم .

وفى مقدمة أقوم المسالك ، نقلا عن تاريخ « دردى » وزير المعارف العمومية بفرنسا قوله : إن الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤداة بلغتين : الحميرية فى اليمن ، والقرشيه فى الحجاز .

وبالآخرة جاء القرآن الكريم على خصوص القرشية ، وأما السبب فى دخول العجمة فى اللسان فذلك راجع إلى دخول الأمم الأجنبية فى الإسلام ، وتطاول السنين ، واللغة المذكورة من الاتساع وسعة المجال مالا يخفى من الاشتقاق والتصريف ، والقلب والإبدال

١- الأرجوزة : القصيدة من بحر الرجز .

٢- بلوغ الأرب : ٣٨/١ .

والمترادفات .. الخ

ويكفى أن تعرف أن الشئ الواحد يكون له عدة أسماء باعتبار تعدد صفاته وأحواله ، وبكثرة الترادف عندهم اتسعت لهم دوائر الآداب الشعرية ، إذ يقال إن للعسل عندهم ثمانين اسما ، وللثعبان مائتين ، وللأسد خمسمائه ، وللجمل ألفا ، وكذا السيف ، وللداهية نحو أربعة آلاف اسم ، ولا يغيب عن اللب أن استيعاب مثل هذه الأسماء تستدعى حافظة قوية ، وللعرب من قوة الحافظة ، وحدة الفكر مالا يسع أحدا إنكاره ، فمن مشاهيرهم حماد الراوية الذى ذكر يوما للخليفة الوليد .. أنه ينشد له فى الحال مائة قصيدة ، والقصيدة من عشرين إلى مائة بيت فتعب المستمع قبل المنشد(١)!

هذا بالإضافة إلى صفات امتازت بها العرب تدل على أن اصطفاهم كان لحكمة ، وهى أنهم سيحملون أعظم رسالة جاءت إلى البشرية على أعظم نبى شرف الوجود ببعثه ، للناس جميعا ، هو خاتم الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم جميعا الصلاة والسلام من هذه الصفات : النجدة ، والكرم ، والإباء ، والشجاعة ، والقوة ، والسخاء ، والوفاء ... الخ

مكانة قريش فى الجاهلية :

تبوءت قريش مكانة مرموقة فى الجاهلية حتى انتهى إليها الشرف والرياسة إلى أن بزغ فجر الدعوة الإسلامية ، وعلا شأنها ، وكانوا عشرة رهط من عشرة أبطن وهم : هاشم ، وأمية ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدى ، وجمح ، وسهم ، قصى ومن هذه القبائل كانت الحكومة المكية عصر مبعث النبى ﷺ .

الحكومة المكية التى تكونت عصر النبوة

تلك الحكومة لم تكن « ملكية » بالمعنى المعروف ، ولم تكن- كذلك - « جمهورية » بالمعنى المعروف ، فلم يشكّل واقعها على شئ من هذا أو تلك ، كانت « حكومة » مكونة من « مجلس سيادة » بدأ ينمو مع إصلاحات « قصىّ » الجد الرابع لرسول الله -

---

١- بلوغ الأرب : ٣٨/١ وما بعدها .

ﷺ - لتكون لرؤساء البطون الكلمة النافذة فى توجيه الأمور .

استوت هذه الإصلاحات على تسع نُمتْ من واقع طبيعة مكة ، ومكانتها بين العرب ، ومسئوليتها تجاه الحجيج والمعتمرين على مدار العام :

فمكة مسئولة عن توفير الأمن لهم ، وإعداد الكعبة والحرم لاستقبالهم ، وتوفير الماء والغذاء من أجلهم ، هذا إلى جانب مسئولية قريش فى إدارة شئونها والدفاع عنها .

لذا انتهت إصلاحات قصى على يد أبنائه إلى :

١- دار الندوة : وهى مجلس السيادة الذى تحسم فيه المشاكل وتحل المعضلات ، يدخلها من بلغ الأربعين .

٢- اللواء : راية الحرب ، وتعنى شئون الدفاع وانتهى أمرها إلى بنى أمية .

٣- الحجابة : وهى سدانة البيت الحرام ، وتولّى خدمة الكعبة وما تقتضيه من شئون ، واستقرت فى بنى شيبة .

٤- السقاية : وهى حياض الأدم ، توضع فى فناء الكعبة ،

وينقل إليها الماء العذب لسقيا الحجيج ، تولاها فى عصر النبوة العباس بن عبد المطلب ، وأضاف التمر والزبيب .

٥- الرفادة : طعام تشترك فيه قريش ، تعده للحجيج على سبيل الضيافة .

٦- القيادة : وهى رياسة الركب لتجارة أو حرب ، وصلتها بـ « اللواء » شديدة ، وليها قبل الإسلام أبو سفيان .

٧- المشورة : وتعنى الرأى من صاحب الأمر الأخير - فيما يعرض من المسائل العامة وانتهى أمرها إلى بنى أسد .

٨- السفارة : وهى منصب تولاه بعد قصىّ بنو عدىّ ، فكانت السفارة قرب الإسلام لعمر بن الخطاب يكون سفير قريش إذا دخلوا فى صلح ، وينوب عنهم فى المنافرة .

٩- الحكومة : والمقصود بها « القضاء » بين الناس فى خصوماتهم عند الإحتكام

وكانت قبل الإسلام فى بنى سهم[1] .

والواقع أن هذه المناصب - برغم توزيعها فى بطون قريش ، إبان فترة الدعوة الإسلامية - كان يُمضى أمرها فى الكثير منها صاحب الغلبة فى الزعامة البارزة فى هذا المحيط ممن ليست له أصلا ، فى حين يغض الطرف عنها أصحابها الشرعيون . كذلك - من الواقع أيضاً - أن بعضها كان يمارسها أصحابها الشرعيون دون أدنى تنازل عنها .

قال يونس بن عبيد - رحمه الله :

« كان عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة بن ربيعه وابو جهل بن هشام ، وأبو سفيان لا يسقط لهم رأى فى الجاهلية »[2] .

كانت حكومة مكة تكوينا يجمعه « مجلس سيادة » ، وهى - بهذا الأصل - متقبلة لكل زعيم ذى شأن من بطونها الخمسة والعشرين ليكون عضواً عاملاً فيها ، له حقه فى شئونها : إدارة وتوجيهاً وقبولاً ومعارضة .

قال أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصرى صاحب « الطبقات الكبرى » بصدد غضب قريش من نجاح رسول الله - ﷺ - إذ أسلم أبو بكر وعمر وحمزة وعثمان ، وأبو عبيدة بن الجراح - رضوان الله عليهم - ، فبدت العزة على المسلمين ؟ قال :

« فغضبت قريش من ذلك ، وظهر منهم لرسول الله - ﷺ - الحسد والبغى . وأشخص[3] به منهم رجال فبَادوْه ، وتستر آخرون وهم على ذلك الرأى إلا أنهم ينزهون أنفسهم عن القيام والإشخاص برسول الله - ﷺ - »[4] .

١- راجع بلوغ الأدب : ٢٤٩/١ ، والسيرة لابن هشام : ١٠٣/١ ، ١٣٥ ، ومجلة الأزهر : د/ على الخطيب (الجوار بعد أبى طالب) حـ ٧ رجب ١٤٠٨ هـ .

٢- راجع للأستاذ الدكتور محمد محمد مصطفى النجار - تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٤٦ ، ٤٧ م الأزهر ١٣٧٢هـ .

وانظر لابن الأثير - أسد الغابة الترجمة رقم ٢٤٨٤ .

٣- أعلن .

٤- الطبقات ٢٠٠/١ دار صادر بيروت .

وضرب مثلاً من الأولين : أبو جهل ، والوليد بن المغيرة وعدّد رجالا .

ومن الآخرين : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان كانوا أهل عداوة إلا أنهم لم يُشخصوا برسول الله – ﷺ – وليس ينفى ما قد مناه أن يقع منهم إجماع فى بعض الحالات كالذى كان منهم فى قرارهم قتل رسول الله – ﷺ – ونجاه الله – سبحانه – من كيدهم .

وتاريخ فترة الدعوة الذى وقع عليه إجماع المؤرخين يبين لنا أن « مجلس السيادة » هذا يكاد يكون معقوداً دائما ، فيندر أن يخلو الحرم ، أو جانب منه ، أو الحطيم من ناد لقريش صباحاً فى ظل الكعبة ، أو مساء بها أو باحد جوانبها :

مجلس ، واثنان وثلاثة ، فإذا حدث أمر فصاح صائح ، وكان له أهميته التف الجمع فى مجلس واحد ونظر فيه .

هذه « مكة » التى آل إليها – من مئات السنين – ميراث الوثنية كله ، وإليها لجأ مختلف القبائل بنماذج لأوثانها فوضعتها لهم حول الكعبة داخل الحرم حتى بلغت ستين وثلاثمائة وثن ، فكانت نموذجاً للشرك مجسماً ، وبلغت منزلة قريش – فى نفس العرب – حد التقديس ، فلا يطوفون إلا فى ثياب القرشيين إيمانا منهم بطهارتها وحسبك فى تقديس العرب لهم .. مقاومة هؤلاء العرب لأبرهة – وهو فى طريقه إلى مكة يريد هدم الكعبة ، فقد تعرض له « ذونفر » من أشراف اليمن ومن أجابه من سائر العرب فحاربوه قبل أن يخلص من اليمن إلى مكة ، فلما انتصر عليهم ، وانتهى إلى « خثعم » خرج اليه « نُفَيل بن حبيب الخثعمى » فى قَبِيلَتَىْ خثعم : « شهران » و« ناهس » ومن تبعه من العرب وقاتلوه ليرتد عن البيت ، ولم نسمع فى التاريخ بمثل هذا ، وإنها الحقيقة تبرز لنا قيمة مكة والكعبة فى نفس هؤلاء العرب ومن ثم منزلة القرشيين ورضيت « حكومة السادة » بالكثير ؛ بل عملت من جانبها جاهدة على إمتاع الزائر وأبنائها بما يريدون فكانت حانات الخمر بـ « الحَزْوَرَة » قريبة من البيت الحرام ، وارتفعت أعلام البغايا على بيوتهن إعلاماً بها ، واتخذ النضر بن الحارث بن كَلَدة بن عبد مناف داراً كانت كمرقص للقيان

والمغنين ، ولهو الحديث[1] ، وعجت الأسواق من حول مكة بطرائف اللهو والمجون .

ودعا رسول الله - ﷺ - إلى التوحيد فى مكة فى إطار نظام تلك الحكومة وأعرافها ، فلم يعلن حربا على هذا النظام فى ذاته ، ولا على أعرافه من نظم قصىٍّ إلا ما كان من أمر الوثنية ، فذلك ما أنكره عليه الصلاة والسلام - بغير هوادة .

إنما كان ثمة أمر واحد يوجه إلى المشرك ، إن استجاب له صلح من أمره كُلُّ شئ ، وسقطت به آثار السوء كلها ... « لا إله إلا الله » . فكان منهج الدعوة مركزاً ضد « الشرك بالله » تعالى الله سبحانه .

بعث أبو طالب إلى رسول الله - ﷺ - ليحضر قومه إذ شَكَوْهُ لأبى طالب ، فلما اجتمع - عليه الصلاة والسلام - بهم ، قال : « ياعم ، كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » فقال أبو جهل : نعم ، وأبيك ، وعشر كلمات .

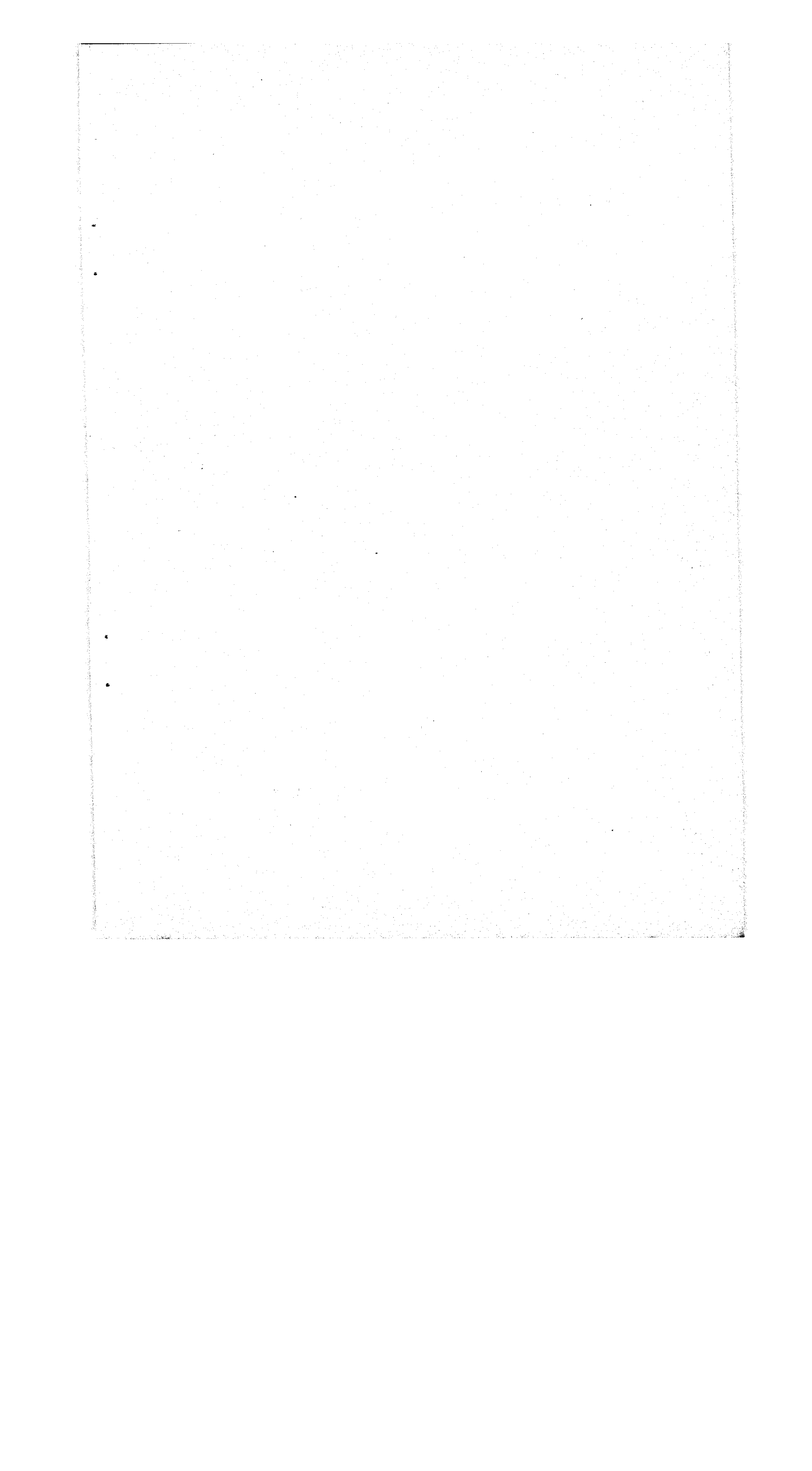
قال : تقولون : لا إله إلا الله . وتخلعون ماتعبدون من دونه » . فصفقوا بأيديهم ، وانطلقوا يقول بعضهم لبعض : امضوا على دين آبائكم واكثر - عليه الصلاة والسلام - من مخاطبتهم بقوله :

« قولوا : لا إله إلا الله ... تفلحوا ...»[2] .

فهى كلمة الإيمان الكفيلة برضوان الله .. وبها ينتهى كل فساد .

١- راجع تفسير الآية ٦ من سورة « لقمان » .

٢- راجع الطبقات الكبرى ابن سعد دار التحرير ١/١٣٥ ، وسيرة ابن كثير ٢/١٢٣ ، ومجلة الأزهر جـ ٧ رجب ١٤٠٨ هـ .



الفصل الثانى

البشارات والنبؤات •

بظهور محمد صلى الله عليه وسلم- بعثته - بشارات التوارة والإنجيل - تحقيق لفظ الفارقليط ومدلولها - بشارة إنجيل برنابا

• الفرق بين البشارة والنبؤة

التبشير: يكون بالخير، وقد يكون بالشر إذا كان مقيداً به. يقال بشره تبشيرا إذا أخبره بخبر يظهر أثره على بشرة وجهه. معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية مادة: بشر.

« وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات» البقرة : ٢٥.

« وبشّرهم بعذاب أليم» .

النبأ: الإخبار بالشئ تقول: أخبره بكذا وذكر له قصته، ويقال: نبّأه الشئ. ويقال: نبئنى هل تزورنى غداً؟ وتبئ علياً إنه لَعليّ القدر. معجم ألفاظ القرآن الكريم. مادة: نبأ.

وفى التنزيل العزيز: « سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً» الكهف: (٧٨).

« فلننبئن الذين كفروا بما عملوا» فصلت: ٥٠.

النبوءات المتصلة بظهور محمد رسول الله ﷺ قال الله في كتابه العزيز :

« الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصراهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معهُ أولئك هم المفلحون » .(١)

وردت في الكتب المقدسة السابقة بشارات ، أو نبوءات تتصل بظهور رسول الله محمد ﷺ ، وكانت من الذيوع والانتشار بين الأمم حتى أغرت بعض اليهود والنصارى أن يستقروا ببلاد العرب .

ذلك بأن أرض النبي الموعود كانت قد عينت وحددت في تلك الكتب المقدسة باسمها تعيينا لا يحتمل اللبس ، وسوف نشير في هذا الفصل إلى بعض من تلك البشارات أو النبوات ، ونحيل إلى غيرها .

يؤكد القرآن أن ظهور محمد ﷺ قد تنبأ به جميع الأنبياء السابقين الذين أخذوا على شعوبهم ميثاقا بأن يؤمنوا به وينصروه والسمة البارزة المميزة لهذا الرسول الموعود ، كما بشروا به ، هي أنه سوف يجئ مصدقا لجميع أنبياء العالم قال رب العالمين :

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ؟ قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا : أقررنا قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »(٢)

ويثبت القرآن الكريم أيضا إلى أن الكتب السماوية كلها تشتمل على نبوات عن مجئ الرسول محمد ﷺ .

١– الأعراف : ١٥٧ .

٢– آل عمران : ٨١ .

قال الله تعالى :

« وإنه لفى زبر الأولين »[1] .

من أسباب بعثة محمد ﷺ :

يتضح مما سبق أن هذه التوكيدات القرآنية مؤيدة تأييدا كافيا برواية مماثلة نقع عليها فى صفحات العهد القديم كما فى سفر التكوين ، « والعهد الجديد » (أعمال الرسل : ٣: ٢١) والذى يبدو أن العناية الإلهية قد استنسبت أن تبعث رسولا مستقلا لإصلاح كل أمة ، فى العصور الخالية ، عندما كانت الأمم المختلفة القاطنة هذا الكوكب الأرضى فى عزلة مطلقة إحداها عن الأخرى ، وعندما لم تكن وسائل المواصلات الحديثة قد وُجدت بعد .

ثم إنها لكى تصهر الأنظمة الدينية المختلفة فى نظام واحد يعتنقها كلها ولكى تصهر الإنسانية فى أخوة كونية :

بعثت نبيا يحمل رسالة إلى الجنس البشرى كله . وهكذا فيما أبلغ نبأ هذا النبى الكونى كلا من الرسل السابقين من ناحية ، وأمر الرسول الموعود من ناحية ثانية ، وبأن يشهد بصدق رسالات الأنبياء السابقين جميعا حيثما بُعثوا وفى أيما وقت بعثوا فى أرجاء العالم كله ، والرسول الكريم محمد ﷺ هو النبى الذى ينطبق عليه هذا الوصف .

فقد جعل من أركان الإسلام الأساسية أن يعلن المسلم إيمانه بجميع أنبياء العالم الآخرين بالإضافة إلى إيمانه به هو . ففى مستهل القرآن الكريم بالذات قوله تعالى :

« ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة

١- الشعراء : ١٩٦ .

ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون »(1) .

وفي ما يتصل ببعث مصلح لكل أمة يطلق القرآن الكريم هذا الحكم العام :

« إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة الا خلا فيها نذير »(2) .

وفي مناسبة أخرى يقول : إنه يشير إلى بعض الأنبياء ، على حين أن ثمة آخرين لم يتحدث عنهم صراحة .

وهكذا يكون الرسول الكريم محمد ﷺ نسيج وحده من وجهتي النظر هاتين كلتيهما . إن نبوءات جميع الرسل الذين سبقوه تجد مصداقها في شخص من ناحية ، على حين أنه كان هو وحده بين جميع الأنبياء والرسل الذى فرض على أتباعه ، في صلب العقيدة الإسلامية ، أن يؤمنون بجميع أنبياء العالم من ناحية ثانية . وعلى هذا النحو يكون هو آخر عُصْبَة الأنبياء النبيلة ، كما تنبأ جميع الرسل قبله(3) .

بشارات التوراة والانجيل بمحمد ﷺ : لقد تحدّر اليهود ، والاسماعيليون من جد أعلى واحد : إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . وعلى الرغم من أن الكتاب المقدس الذى أنْزِل علي إبراهيم لم يصلنا ، فإن سفر التكوين من « العهد القديم » يلقى ضوءا كثيرا على وعود الله له في ما يتصل بمستقبل ولديه إسماعيل ، وإسحاق عليهما السلام .

والقرآن الكريم يشير إلى الوعود نفسها حين يقول :

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن

1- البقرة : 1-4 .

2- فاطر : 24 .

3- راجع حياة محمد ﷺ ورسالته ص 42 ، 43 لمولانا محمد على مترجم القرآن الكريم إلى الإنكليزية ، وواضع تفسير القرآن بالأردية ، نقله إلى العربية منير البعلبكى ط الثالثة 1977 . دار العلم للملايين . بيروت . لبنان .

ذريتي قال : لا ينال عهدى الظالمين »[1] .

وهكذا وُعد إبراهيم بأن تُكرّم ذريته بهبة النبوة ولكنها لابد أن تنتزع منهم إذا ما ظلموا . وصلاة إبراهيم وإسماعيل المشتركة فى الكعبة تشير المفاد نفسه أيضا :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم »[2] .

وفى العهد القديم » وعد إلهى بالمعنى ذاته فاز به إبراهيم حتى قبل مولد اسماعيل واسحاق :

« فأجعلك أمة عظيمة ، وأباركك وأعظّم اسمك . وتكون بركة ، وأبارك مباركيك ولاعنكَ ألعَنُهُ ، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض » .

وبقليل من اعمال الفكر يظهر فى وضُوح أن هذين النّصين يشيران إلى ذرية اسماعيل يعنى إلى المسلمين ، ذلك بأن المسلمين هم وحدهم من بين أقوام العالم كله هم أولى الناس بإبراهيم ، فهم الذين يصلون عليه كل يوم خمس مرات[3] :

« إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين »[4].

أما صيغة الصلاة عليه اليومية فهى :

« اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد »[5] .

وهذا سفر التكوين يصرح باسم اسماعيل عليه السلام فيقول :

١- البقرة : ١٤٢ .
٢- البقرة : ١٢٩ .
٣- حياة محمد ورسالته : ٤٤ .
٤- آل عمران : ٦٨ .
٥- الفقه على المذاهب الأربعة ص ٢١٤ قسم العبادات ط : وزارة الأوقاف . القاهرة ١٣٨٧ هـ .

« وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه ، وأثمره ، وأكثره كثيراً جداً : اثنى عشر رئيسا يلد ، وأجعله أمة كبيرة »[1] .

وهنا أعطى الوعد الخاص بإسماعيل وذريته بالطريقة نفسها التى أعطى بها الوعد الخاص بإبراهيم وذريته ، وقوله : « وأجعله أمة كبيرة إشارة إلى محمد ﷺ ؛ لأنه لم يكن فى ولد اسماعيل عليه السلام من كان له أمة كبيرة غـيره ، وقد ذكر القرآن دعاء إبراهيم واسماعيل عليهما السلام فى حق محمد ﷺ ، فقال سبحانه :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم »[2] .

والوعد الإلهى فى سفر التكوين عن مجئ نبى آخر الزمان » ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : « هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم ، وبين نسلك من بعدك ، يختن منكم كل ذكر . فتختنون فى لحم غُرلتكم ، فيكون علامة عهد بينى وبينكـم »[3] .

وهذا الختان كان طول مدة من الزمن ، شائعا بين اليهود والإسماعيليين فى آن معا . ولكن هذا الميثاق الإلهى لا يوفى به اليوم إلا بين المسلمين ، أبناء الرسول الكريم محمد ﷺ ، على اعتبار أن عدد اليهود الذين يتمسكون بهذه العادة ، لا يكاد يذكر نسبيا ، وهكذا يصبح واضحا أن المسلمين هم الآن ورثة الميثاق الإلهى مع إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

« وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً أبديا . لأكون إلها

١- تكوين : ١٧ : ٢٠ .

٢- البقرة : ١٢٩ .

٣- سفر التكوين : ١٧ : ١٠-١١ .

لك ولنسلك من بعدك ، وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا ، وأكون إلههم » .(١)

وهذه علامة أخرى منظورة ترينا من هم الآن الورثة الحقيقيون للوعد الإلهى لإبراهيم . ومن الحقائق التاريخية الثابتة أنه ما إن جاء الرسول محمد ﷺ حتى انتزعت أرض الميعاد من أتباع الأنبياء الاسرائيليين ، ونقلت ملكيتها إلى المسلمين الذين بسطوا سلطانهم عليها طوال القرون الثلاثة عشر الماضية .

وإنما كان الغرض الأساسى من الحروب الصليبية هو انتزاع أرض الميعاد هذه من أيدى المسلمين . ولا ريب في أنها ضاعت من أيدى المسلمين مؤقتا ، ولكنها سرعان ما أعيدت إليه بعد فترة يسيرة ، وفاءً بالوعد نفسه الذى وعد الله ابراهيم ، ولو قدر لها بعدُ أن تضيع من أيدى المسلمين فلن يستمر ذلك غير برهة قصيرة إن السيطرة السرمدية عليها سوف تكون دائما للمسلمين .

القسم الآخر : المعلن عن مجئ الرسول الكريم محمد ﷺ فقد وردت على لسان موسى عليه السلام :

« أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به » .(٢)

وهذاواضح تماما . أن أيا من أنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا من بعد موسى فى تعاقب متطاول حتى ظهور يسوع لم يدع أنه النبى الموعود به فى هذه النبوءة .. وكان أمر النبوءة معروفا لدى الخاصة ، والعامة من اليهود الذين انتظروا جيلا بعد جيل ظهور نبى مثل موسى يؤيد هذا تأييدا كافيا وإليك الحديث الذى دار بين يوحنا المعمدان ، وأولئك الذين وفدوا عليه ليسألوه :

١- تكوين : ١٧ : ٧-٨ .

٢- تثنية الاشتراع : ١٨ : ١٨

« من أنت ؟ فاعترف ولم ينكر وأقرّ إنى لست أنا المسيح . فسألوه إذا ماذا ؟ إيليا أنت ؟ فقال : لست أنا . ذلك النبى أنت ؟ فأجاب : لا »[1]

وهذا يظهر أن اليهود كانوا يترقبون ظهور ثلاثة أنبياء مختلفين :

أولهــــم : إيليا الذى اعتقدوا أنه سوف يظهر بشخصه كرة أخرى على هذه الأرض .

وثانيهم : المسيح .

وثالثهم : نبى ذو شهرة كلية إلى درجة رؤا معها أن من غير الضرورى نعته بأى وصف مميز ، كان قولهم : « ذلك النبى » كافيا للدلالة الى من يعنون . ذلك كان مدى الشيوع والانتشار اللذين حظيت بهما بين اليهود نبوءة موسى فى ما يتصل بظهور نبىّ مثله .

إذن اليهود كانوا يرتقبون ظهور ثلاثة أنبياء :

المسيح ، وإيليا للمرة الثانية ، والنبى الذى هو مثل موســـى ، ولقد تحققت نبوءتان فى شخصىْ : يسوع ، ويوحنا ، فأعلن الأول أنه المسيح وأعلن الثانى أنه بعث فى روح إيليا .

ولكن لم يدع أحدهما أنه النبى الموعود المماثل لموسى[2] .

وبما أن موسى عليه الســـلام صاحب شريعة ، فمحمد ﷺ المماثل له صاحب

١- سفر يوحنا : ١ : ١٩ - ٢١ .

٢- حياة محمد ورسالته ص ٤٧ .

شريعة أيضا ، ومن ثم فهو النبى الذى هو مثل موسى[1] وهناك أمور أخرى تظهر إذا تؤمل فى شريعتيهما ، ومن ثم قال سبحانه :

« إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا »[2] .

وثمة نبوءة ثالثة واضحة تماما فى سفر « تثنية الاشتراع » وهذه النبوءة تقول :

«جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران ، وأتى من ربوات القدس ومعه عشرة ألاف من القديسين وعن يمينه نار شريعة لهم » .[3]

« والمجئ من سيناء » إشارة إلى ظهور موسى « عليه السلام » .

« والاتيان من ربوات القدس » إشارة إلى ظهور يسوع عليه السلام ، لأن هذين النبيين تلقّيا النداء الإلهى فى هذين الموضعين .

أما « فاران » فمن المسلّم به أنه الاسم القديم لأرض الحجاز حيث ظهر محمد

١- وخلاصة المماثلة بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام فى أمور تصدق على محمد صلى الله عليه وسلم منها : (١) كونه عبد الله ورسوله . (٢) كونه ذا والدين . (٣) كونه ذا نكاح وأولاد .(٤) كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية . (٥) كونه مأمورا بالجهاد . (٦) اشتراط الطهارة وقت العبادة فى شريعته . (٧) وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء فى شريعته .(٨) اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز فيها . (٩) حرمة غير المذبوح وقرابين الأوثان فيها . (١٠) كون شريعته مشتملة على العبادات / البدنية والرياضيات الجسمانية. (١١) أمره بحد الزنا . (١٢) تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص . (١٣) كونه قادرا على تنفيذها . (١٤) تحريم الربا . (١٥) أمره بإنكار من يدعو الى غير الله . (١٦) أمره بالتوحيد الخالص . (١٧) أمره الأمة بأن يقولوا له : عبد الله ورسوله ، لا ابن الله أو الله والعياذ بالله .(١٨) موته على الفراش (١٩) كونه مدفونا كموسى . (٢٠) عدم كونه ملعونا لأجل أمته .

وكونه من إخوة بنى اسرائيل ؛ لأنه من بنى اسماعيل ، وأنزل عليه الكتاب ، وكان أميا جعل كلام الله فى فمه ، وكان ينطق بالوحى كما قال سبحانه « وما ينطق عن الهوى . إن هو الا وحى يوحى » . النجم : ٣ ، ٤ . راجع للشيخ رحمة الله بن خليل الهندى : اظهار الحق . الفصل السادس من الباب الأول بعنوان : أخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته ﷺ ؛ وراجع تفسير المنار عند الآية ١٥٧ من سورة الأعراف ، والرسول ﷺ : لسعيد حوى ص ٣٩٥ .

٢- المزمل : ١٥ .

٣- تثنية الاشتراع ٣٣ :١ .

ﷺ من بين حفدة إسماعيل[1] .

وجاء أيضا فى الباب الثالث والثلاثين من سفر الاستثناء فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م هكذا : « وقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبل فاران ، ومعه ألوف الأطهار فى يمينه سنة من نار » .

والاختلاف الذى حدث بين الفقرتين لعله راجع إلى الترجمة .

فمجيئه من سيناء اعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام ، وإشراقه من ساعير اعطاؤه الانجيل لعيسى عليه السلام ، واستعلائه من جبل فاران إنزاله القرآن لأن فاران جبل من جبال مكة .

وفى الباب الحادى والعشرين من سفر التكوين فى حال اسماعيل عليه السلام هكذا :

٢٠ – وكان الله معه ، ونما وسكن فى البرية وصار شابا يرمى بالسهام .

٢١ – وسكن برية فاران .

ولاشك أن اسماعيل عليه السلام كانت سكونته بمكة ، ولا يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ، ومن فاران أيضا ، فانتشرت فى هذه المواضع ؛ لأن الله لو خلق نارا فى موضع لا يقال : جاء الله من ذلك الموضع ، إلا إذا اتبع تلك الواقعة وحى نزل فى ذلك الموضع ، أو عقوبة أو ما أشبه ذلك ، وقد اعترفوا أن الوحى اتبع تلك فى طور سيناء فكذا لابد أن يكون فى ساعير ، وفاران .[2]

والرمى بالسهام كان فى أولاد اسماعيل عليه السلام فهم أصحاب النبل فى غابر الأزمان ، وهذا غير محتاج إلى بيان ، فقد كان هذا الأمر مرغوبا له عند محمد ﷺ فكان يقول :

١- حياة محمد ورسالته ص ٤٨ .

٢- الرسول ﷺ : سعيد حوى : ٣٩٧/٢ .

« ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهم »

ويقول ﷺ :

« ارموا بنى اسماعيل فإن اباكم كان راميا »

ويقول أيضا ﷺ : « من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا » .

وقد رمى ﷺ يوم بدر ، ويوم حنين وجوه الكفار بقبضة تراب ، فلم يبق مشرك إلا وشغل بعينه ، فانهزموا ، وتمكن المسلمون منهم قتلا وأسرا ، فأمثال هذه من عجيب هداية يمينه ﷺ .(١)

ليس هذا فحسب بل ثمة نبوءة رابعة تنص صراحة على أن أرض النبى الموعود هى بلاد العرب :

« وحى من جهة بلاد العرب . فى الوعر من بلاد العرب تبيتين ياقوافل الددانيين . هاتوا ماء لملاقات العطشان ياسكان أرض تيماء . وافوا الهارب بخبزه . فإنهم من أمام السيوف قد هربوا . من أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدود ومن أمام شدة الحرب » .(٢)

إن لفظة « بلاد العرب » قبل كل شئ ، هى فى ذات نفسها ذات مغزى كاف . ثم إن الإشارة إلى « مَنْ هاجر » تُلقى ضوءا إضافيا على من المقصود بالنبوءة . فتاريخ العالم لم يدون غير هجرة واحدة قدّر لها أن تكتسب أهمية الحدث الحاسم هى هجرة الرسول محمد ﷺ من مكة إلى المدينة ، ومن ذلك اليوم بالذات يبدأ التقويم الاسلامى ، ذلك بأنه كان فى الواقع مستهل فصل جديد فى تاريخ الإسلام ، أو على الأصح فى حضارة العالم كله .

بيد أن فى الكلمات التالية : « من أمام السيوف قد هربوا » لشهادة أبلغ ، فالتاريخ يثبت

١- تفسير المنار : ٩/٢٢٩ .

٢- أشعياء ٢١ : ١٣ - ١٥ . نقلا عن حياة محمد ورسالته .

أن محمدا الرسول الكريم ﷺ هاجر من مكة بينما كان بيته محاطا بأعدائه المتعطشين للدماء ، الشاهرين سيوفهم فعلا ، المستعدين أتم استعداد للانقضاض عليه مجتمعين حالما يغادر بيته ذاك[1] .

فإذا ما ذهبت تقلب صفحات التاريخ بحثا عن هجرة تماثل هجرة محمد ﷺ – نعم هناك هجرات لبعض رسل الله وأنبيائه ستطالعها فى فصل الهجرة من هذا البحث – لكنها لم تتمخض عنها نتائج فى مثل هذه الخطورة وبعد الأثر لهجرة محمد ﷺ .

لقد اشتمل النص السابق على هاتين الواقعتين التاريخين اللتين لا يأتيهما الريب – وهما (سل السيوف ثم الهجرة) – من بين يديهما ولا من خلفهما .

مردفتين بنص صريح على بلاد العرب ، بوصفها مسقطا لرأس النبى الموعود ، تشكلان دليلا لا نزاع فيه على أن النبوءة تشـير الى الرســول محمد « ﷺ » .

وهناك نبوءات كثيرة أخرى مماثلة أطلقها أنبياء بنى اسرائيل من مثل : داود ، وســـليمان ، وحبقوق ، وحقاى ، وغيرهم ، ولكننا سنختصر الحديث ، لنشير إلى واحدة منها ، وهى التى أطلقها آخر أنبياء بنى اسرائيل وهو يسوع عليه السلام[2] والتى تقول : « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى . وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد . روح الحق الذى لايستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه »[1] .

١– حياة محمد ورسالته ص ٤٩ .

٢– المرجع نفسه ص ٥٠ .

٣– انجيل يوحنا : ١٤ : ١٥ – ١٧ .

وتقول :

« وأما المعزى : الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى فهو يعلمكم كل شئ ويذكركم بكل ماقلته لكم » .(1)

وتقول :

« لكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق ؛ لأنه إن لم أنطلق لايأتيكم المعزّى . ولكن إن ذهبت أرسله إليكم »(2) .

وتقول إضافة لما سبق

« إن لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك ، روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق(3) » هذه الكلمات تعلن فى نبوتها بتعابير مختلفة لكنها صريحة فى مجئ نبى آخر بعد يسوع . ومع ذلك فقد أرهق اللاهوتيون النصارى أنفسهم ، ومايزالون ، ابتغاء العدول بها عن قصدها بحيث تنطبق على الروح القدس .

والواقع أن صيغة النبوءة لا تجيز هذا الاستنتاج ، فقوله :

« إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى » .

كلام هو من الوضوح بحيث يستغنى عن كل تعليق .

والعهد الجديد : يذكر أن يوحنا كان مفعما بالروح القدس حتى قبل أن يسرى النور . ثم يتكلم عن يسوع نفسه فيقول : إنه تلقى الروح القدس على شكل حمامة . وهكذا فقد كان من دأب الروح القدس أن يلم بالناس قبل يسوع كما ألم بهم فى أيامه .

وإذن فإلى من تشير هذه الكلمات : « إن لم أنطلق لايأتيكم المعزّى ؟ » . مما لا ريب فيه أنها لا تشير إلى الروح القدس ؛ لأن من التجديف ، أو يكاد أن نفكر أن يسوع لم يكن

1- انجيل يوحنا : ١٤ : ٢٦

2- انجيل يوحنا : ١٦ : ٧ .

3- انظر حياة محمد ورسالته ص ٥١ .

مزودا بروح قدس ، فالإجلال الحقيقى ليسوع عليه السلام يقتضينا أن نؤمن بأن حوارييه أنفسهم ، الذين طُهِّرَتْ نفوسهم بيد معلمهم العظيم كانوا من النقاء بحيث يستحقون أن يكونوا مفعمين بالروح القدس .[1]

والقرآن الكريم يخبر أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا من النقاء بحيث يستحقون أن يكونوا هم أيضا مفعمين بالروح القدس فيقول القرآن :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادن من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه . ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضىَ الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » .[2]

مما لا ريب فيه أن كلمتى « الروح القدس » اللتين وردتا فى النبوءة أيضا ، إنما أريد بهما أن تشيرا إلى أن النبى الموعود سوف يكون متحدا بالروح القدس اتحادا غير منفصم يجعل مجيئه ، مجازيا طبعا ، كمجئ الروح القدس نفسه .

وفى النبوءة صفات أخرى لا تنطبق الا على النبى محمد ﷺ . فالسمات المميزة التى تبيّنها النبوءة مجتمعة فيه برمتها .

وقول النبوءة : « ليمكث معكم إلى الأبد » يدل على أنه لن يكون بعد النبى الموعود أيما نبى جديد . وهذا هو عين ما يقوله القرآن الكريم عن الرسول محمد ﷺ .

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما »[3] .

١- المرجع نفسه .

٢- المجادلة : ٢٢ .

٣- الاالأحزاب : ٤٠ .

وتقول النبوءة :

« فهو يعلمكم كل شئ » وهذا أيضا عين ما يقوله القرآن الكريم عن رسالة محمد ﷺ :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .[1]

ثم إن النبى الموعود يُدْعى فى النبوءة « روح الحق » وهو أمر يزكيه القرآن الكريم أيضا بهذه الكلمات القدسية :

« وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »[2] .

ونقرأ نصوص الانجيل مرة أخرى لنرى الفرق الطفيف الذى نشأ عن الترجمة فى آخر أبواب انجيل يوحنا عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١، ١٨٣١ ، ١٨٤٤ فى بلدة لندن جاء فى الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا هكذا :

« ١٥ – إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الآب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذى لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه ، وأنتم تعرفونه ، لأنه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم .

٢٦– والفارقليط روح القدس الذى يرسله الآب باسمى ، وهو يعلمكم كل شئ ، وهو يذكركم كل ماقلته لكم .

٣٠ – والأن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون ... » .

وفى الباب السادس عشر من انجيل يوحا هكذا :

« ٧– لكنى أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق لأنى إن لم انطلق لم يأتكم الفارقليط فأما إن انطلقت أرسلته إليكم .

٨– فإذا جاء ذلك فهو يوبخ العالم على خطية وعلى بر وعلى حكم .

١– المائدة : ٣ .

٢– الإسراء : ٨١ . ، وراجع حياة محمد ورسالته ص ٥١ .

٩- أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بى .

١٠- وأما على البر فلأنى منطلق إلى الآب ولستم تروننى بعد .

١١- وأما على الحكم فإن أكون رئيس هذا العالم قد دين.

١٢- وإن لى كلاما كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن .

١٣- وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلكمم جميع الحق ؛ لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتى .

١٤- وهو يمجدنى لأنه يأخذ مما هو لى ويخبركم »[١] .

من يدقق فى هذه النصوص والتى سبقتها حتما سيجد فيها أدلة صريحة على البشارة أو النبوءة بمحمد ﷺ . فلنتابع معا بعض فقرات النص :

فقوله : « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى » أن يعتقد السامعون بأن ما يلقى عليهم بعد ضرورى واجب الرعاية ..

وقوله : « هو يشهد لأجلى » فهل تلاميذه فى حاجة إلى أن يشهدوا له ؟ وإنما الذى يشهد للمسيح عليه السلام بالبراءة عن ادعاء الألوهية هو محمد ﷺ .

وقوله : « إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فأما إن انطلقت أرسلته إليكم » .

فمجئ محمد ﷺ متوقف على ذهاب المسيح عليه السلام ، لأن وجود رسولين ذوى شريعتين مستقلتين فى زمان واحد غير جائز .

والمراد بالفارقليط النبى المبشر به أعنى محمدا ﷺ ، وليس الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار...

ومن الجدير بالذكر أن صاحب ميزان الحق فى الفصل الأول من الباب الثانى من مفتاح الأسرار فى ص٥٣ من النسخة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٥٠ : إن لفظ روح الله ، ولفظ

١- إظهار الحق ، فصل أخبار الأنبياء المتقدمين عليه ..

روح القدس فى التوراة والانجيل بمعنى واحد ١ . هـ ، ومن له إلمام بالتوراة والإنجيل يعرف أن الفاظ : روح القدس ، وروح الحق وروح الصدق ، وروح فم الله وغيرها بمعنى روح الله[1] ولفظ روح الله ، بمعنى الواعظ الحق وليس بمعنى الأقنوم الثالث على حد زعمهم ، وتفسير الفارقليط ، بروح القدس ، وروح القدس ، وروح الحق لا يضرنا لأنهما بمعنى الواعظ ، كما أن لفظ روح الحق روح الله بهذ المعنى فى الرسالة الأولى ليوحنا فيصح اطلاقهما على محمد ﷺ بلا ريب[2] .

تحقيق لفظ « الفارقليط » ومدلولها :

هذا اللفظ يونانى ويكتب بالإنجليزية هكذا (paraclete) بارقليط أى المعزّى ، ويتضمن أيضا معنى (المحاج) كما قال بوست فى قاموسه ،

وهناك لفظ آخر يكتب (periclite) ومعناه : رفيع المقام ، سام . جليل . مجيد . شهير وهى كلها معان تقرب من معنى محمد ، وأحمد ، ومحمود .

فإذا كان اللفظ الأصلى الذى نطق به المسيح عليه السلام (Periclte) بيرقليط فلا يبعد أنه حرف عمداً أو سهوا إلى (Paraclete) بارقليط حتى يبعدوه عن معنى اسم النبى محمد ﷺ ، ومما يسهل عليهم ذلك تشابه أحرف هذه الكلمة فى اللغة اليونانية .

وهناك عدة حقائق :

الأولى : أن المسيح عليه السلام كان يتكلم باللسان العبرانى الذى كان لسان قومه ، وما كان يتكلم باليونانى ، وهو قريب القياس أيضا ، لأنه كان عبرانيا ابن عبرانية نشأ فى قومه العبرانيين ، فنقْل أقواله فى هذه الأناجيل فى اليونانى نقل بالمعنى [3] . وهناك فرق واضح بين أن ينقل النص بفصه وبين أن ينقل بالمعنى

١- تفسير المنار : ٢٤٤/٩ ، والرسول ﷺ لسعيد حومبى ص ٤٠٨ .
٢- تفسير المنار : ٢٤٥/٩ .
٣- المرجع نفس : ٢١٤/٩ .

الثانية : ما ذكره الإمام الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون »[1] .

ومعنى الباء فى قوله تعالى : « بالباطل » أنها باء الاستعانة كما تقول : كتبت بالقلم والمعنى : لا تلبسوا الحق بسبب الشبهات التى توردونها على السامعين . وذلك لأن النصوص الواردة فى التوراة والانجيل فى أمر محمد ﷺ كانت نصوصا خفية تحتاج فى معرفتها إلى الاستدلال ، ثم إنهم كانوا يجادلون فيها ، ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بسبب إلقاء الشـبهات .

الثالثة : أن النبى المتقدم إذا أخبر عن النبى المتأخر لا يشترط فى إخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه سيخرج من القبيلة الفلانية ، فى السنة الفلانية ، فى البلد الفلانى ، وتكون صفته كيت وكيت ، بل يكون هذا الإخبار فى غالب الأوقات مجملا عند العوام ، وأما عند الخواص ، فقد يصير جليا بواسطة القرائن ، وقد يبقى خفيا عليهم أيضا لا يعرفون . مصداقه إلا بعد ادعاء النبى اللاحق أن النبى المتقدم أخبر عنى ، وظهور مصدق ادعائه بالمعجزات ، وعلامات النبوة ، وبعد الادعاء ، وظهور صدقه يصير جليا عندهم بلا ريب ، ولذلك يعاتبون[2] كما عاتب المسيح عليه السلام اليهود بقوله :

« ويل لكم أيها الناموسيون لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة مادخلتم أنتم والداخلون منعتموهم »[3] .

١- البقرة : ٤٢ .

٢- تفسير المنار ٩/٢٠٠ .

٣- انجيل لوقا : الباب الحادى عشر : ٥٢ ، وراجع تفسير المنار : ٩/٢٠٢ .

الرابعة : يجب أن يتصور أن كل نبى أتى بلفظة مُعرضة ، وإشارة مدرجة لا يعرفها إلا الراسخون فى العلم ، وذلك لحكم إلهية .

وقد قال العلماء :

ما انفك كتاب منزل من السماء من تضمن ذكر النبى محمد ﷺ لكن بإشارات ، ولو كان منجليا للعوام لما عوتب علماؤهم فى كتمانه ، ثم ازداد ذلك غموضا بنقله من لسان إلى لسان من العبرانى إلى السريانى « اليونانى » ، ومن السريانى إلى العربى .

وقد ذكرت محصلة ألفاظ من التوراة والإنجيل إذا اعتبرتها وجدتها دالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، بتعريض هو عند الراسخين فى العلم جلى وعند العامة خفى(1) .

وبعد ذكر هذه الحقائق فإن كلمة (Paraclete) بارقليط ، أو (Peric;ite) بيرقليط فمعنى كل منهما ينطبق على محمد ﷺ فهو معز للمؤمنين على عدم إيمان الكافرين ، وعلى وجود الشر فى هذا العالم بإيضاح أن هذه هى إرادة الله لحكم يعلمها هو .

ومعز أيضا للمصابين ، والمرضى ، والفقراء وغيرهم بعقيدة البعث والقيامة ، وهو ﷺ كان يحاج الكفار والمشركين وغيرهم .

«إذا كان معناها المحاج المجادل(2) كما قال بوست » .

وهو شهير ، سام ، جليل ، مجيد ، إذا كان اللفظ الأصلى (بيرقليط) والعبارات الواردة فى إنجيل يوحنا فى هذه المسألة لا تنطبق الا على محمد ﷺ(3).

ثم نعود إلى الشيخ رحمة الله الهندى رحمه الله تعالى ، ليقول :

١- المحقق عبد الحكيم السيالكوتى فى حاشيته على البيضاوى نقلا عن تفسير المنار ٢٠٢/٩ .

٢- ومن شواهده قوله تعالى : « وجادلهم بالتى هى أحسن » النحل : ١٢٥ .

٣- راجع كتاب : إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندى، وكتاب : فتح الملك العلام فى بشائر دين الإسلام . نقلا عن تفسير المنار : ٢٣٨/٩ .

عن (بيرقليط ، بارقليط) :

أ) إن التفاوت بين اللفظين يسير جدا ، وإن الحروف اليونانية كانت متشابهة فتبدل (بيركلوطوس) بباراكلى طوس فى بعض النسخ من الكاتب قريب القياس .

ب) إن البعض ادعوا قبل ظهور محمد ﷺ أنهم مصاديق لفظ فارقليط منهم مثلا : منتنس المسيحى الذى كانت فى القرن الثانى من الميلاد وكان مُرتاضاً شديد الارتياض ، وأتقى أهل عهده :

ادعى فى قرب سنة ١٧٧م فى آسيا الصغرى الرسالة ، وقال : إنى الفارقليط الذى وعد بمجيئه عيسى عليه السلام ، وتبعه أناس كثيرن فى ذلك .

ذكر وليم ميور حاله ، وحال متبعيه فى القسم الثانى من الباب الثالث من تاريخ بلسان أردو المطبوع سنة ١٨٤٨ م هكذا :

إن البعض قالوا : إنه ادعى أنه الفارقليط يعنى المعزى روح القدس ، وهو كان اتقى ، ومرتاضا شديدا ، ولأجل ذلك قبله الناس قبولا زائدا[١] . أ . هـ .

فعلم مما سبق أن انتظار الفارقليط كان فى القرون الأولى المسيحية أيضا ، ولذلك كان الناس يدعون أنهم مصاديقه ، وكان المسيحيون يقبلون دعاويهم .

وقال صاحب لب التواريخ :

إن اليهود والمسيحيين من معاصرى محمد ﷺ كانوا منتظرين لنبى ، فحصل لمحمد ﷺ من هذا الأمر نفع عظيم ، لأنه ادعى أنه هو ذاك المنتظر . ا . هـ .[٢]

لقد كان أهل الكتاب منتظرين خروج نبى فى زمان محمد ﷺ وهو الحق ؛ لأن النجاشى ملك الحبشة لما وصل إليه كتاب محمد ﷺ قال :

١- نقلا عن تفسير المنار : ٢٣٩/٩ .

٢- نقلا عن نفس المرجع .

أشهد بالله إنه للنبى الذى ينتظره أهل الكتاب .

وكتب الجواب ، وفى الجواب قال :

أشهد أنك رسول الله صادقا ومصدقا ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك – أى جعفر بن أبى رطالب – وأسلمت على يديه لله رب العالمين[1] ا . هـ .

وهذا النجاشى كان قبل الإسلام .

وكتب المقوقس ملك القبط فى جواب كتاب النبى ﷺ هكذا :

« إلى محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك

أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وفهمت ماذكرت فيه وماتدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك . ا . هـ .

والمقوقس هذا وإن لم يسلم لكنه أقر فى كتابه : أنى قد علمت أن نبيا قد بقى ، وكان نصرانيا ، فهذان الملكان ما كانا يخافان فى ذلك الوقت من محمد ﷺ لأجل شوكته الدنيوية[2] .

وجاء الجارود بن العلاء فى قومه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : والله لقد جئت بالحق ونطقت الصدق ، والذى بعثك بالحق نبيا لقد وجدت وصفك فى الإنجيل وبشربك بن البتول ، فطول التحية لك ، والشكر لمن أكرمك ، لا أثر بعد عين ولا شك بعد يقين :

فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك محمد رسول الله ثم آمن قومه

وهذا الجارود كان من علماء النصارى ، وقد أقر بأنه قد بشر به ابن البتول أى عيسى عليه السلام ، فظهر أن المسيحيين أيضا كانوا منتظرين لخروج نبى بشر به

١- نقلا عن المرجع نفسه

٢- المرجع نفسه

عيسى عليه السلام(١).

فإذا علمت ذلك ، فإن اللفظ العبرانى الذى قاله عيسى عليه السلام مفقود ، واللفظ اليونانى الموجود ترجمته ، لكنى أترك البحث عن الأصل ، وأتكلم على هذا اللفظ اليونانى فأقول :

إن كان اللفظ اليونانى الأصل بيركلوطوس ، فالأمر ظاهر ، وتكون بشارة المسيح فى حق محمد ﷺ بلفظ هو قريب من محمد وأحمد ...

وإن كان اللفظ الأصلى باراكلى طوس كما يدعون فهذا لا ينافى الاستدلال أيضا : لأن معناه : المعزى ، والمعين ، والوكيل ... وهذه المعانى كلها تصدق على محمد ﷺ وعلى هذا فالمراد بالفارقليط النبى المبشر به أعنى محمدا ﷺ ، لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار الذى جاء ذكره فى الباب الثانى من كتاب الأعمال (٢).

حلقنا بك أيها القارئ العزيز فى أفق الحقيقة حول كلمة « إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط ...) ونعود لنشرح بعض الفقرات الباقية .

قال عيسى عليه السلام : « يوبخ العالم » النص واضح وهو لمحمد ﷺ لأنه وبخ العالم سيما اليهود على طغيانهم وافترائهم على عيسى عليه السلام وأمه البتول رضى الله عنها

قال عيسى عليه السلام : « أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بى » .

وهذا يدل على أن فارقليط يكون قويا ظاهرا على منكرى عيسى عليه السلام موبخا لهم على عدم الايمان به .



١- المرجع نفسه ٢٤٠/٩ .
٢- تفسير المنار : ٢٤٠/٩ .

قال عيسى عليه السلام : « ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل مايسمع » .

وهذا يدل على أن فارقليط يكون بحيث يكذبه بنو اسرائيل، فقرر عيسى عليه السلام أن بنى اسرائيل لاتستطيع تكذيبه ؛ لأنه يتكلم بما يوحى إليه .

« وما ينطق عن الهوى : إن هو إلا وحى يوحى »[1] .

« إن أتبع الا ما يوحى إلىّ »[2]

قال عيسى عليه السلام: « إنه يأخذ مما هو لى » .

وهذا لا يصدق على الروح ؛ لأنه عند أهل التثليث قديم ، وغير مخلوق ... ومن ثم قال : « جميع ماللآب فهو لى فلأجل هذا قلت : مما هو لى يأخذ » .

يعنى أن كل شئ يحصل لفارقليط من الله فكأنه يحصل منى كما اشتهر من كان لله كان الله له .[3]

بشارة انجيل برنابا :[4]

فى الفصل السادس والتسعين :

« ٨- إجاب يسوع : لعمر الله الذى تقف بحضرته نفسى أنى لست مسيا الذى تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد اللـه أبا إبراهيم قائلا : بنسلك أبارك كل قبائـل الأرض .

٩ - ولكن عندما يأخذنى الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله ١٠ - فيتنجس بسبب هذا

١- النجم : ٣ ، ٤ .

٢- الأنعام : ٥٠ .

٣- الرسول ﷺ ص ٢ ص ٤١٤ ، وراجع تفسير المنار صفحات : ٢٤١ - ٢٤٤ .

٤- هذا الكتاب ظهر فى أوروبا ، وأحدث ضجة وأخذا وردا ثم كانت النتيجة أن رفضه العالم النصرانى بلا مبرر ، إنه « إنجيل برنابا » والكتاب أعطى قولا فصلا فى المسائل الثلاث الأساسية ، وهى : رسالة عيسى عليه السلام ، وعدم صلبه ، ورسالة محمد ﷺ . اقرأ : الرسول ﷺ لسعيد حوى ص ٤١٨ .

كلامى وتعليمى حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا ١١- حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذى خلق كل الأشياء لأجله ١٢- الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام ١٣- وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر ١٤ - وسيأتى برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به ١٥ - وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا » .

وفى الفصل السابع والتسعين :

« ١٣ - فقال الكاهن حينئذ : « ماذا يسمى مسيًا وماهى العلامة التى تعلن مجيئه ؟ .

١٤- أجاب يسوع : « إن اسم مسيا[1] عجيب ، لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها فى بهاء سماوى .

١٥- قال الله : « اصبر يامحمد لأنى لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم ، وجما غفيرا من الخلائق التى أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركا ، ومن يلعنك يكون ملعونا .

١٦- ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولى للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهنان ولكن إيمانك لا يهن أبدا .

١٧- إن اسمه المبارك محمد » .[2]

هذه شذرات مما ورد فى انجيل برنابا ، وإذا ثبت أن الكتاب كان موجودا قبل الإسلام فقد ثبت عندئذ أن ذلك مما بقى صحيحا من آثار عيسى عليه السلام والله أعلم .[3]

وهكذا وجدنا أن العالم قبيل رسالة محمد ﷺ فى أمس الحاجة إلى رجل يعيد للتوحيد علوه ومجده ، بعد أن كاد يرتفع ويزول من على وجه الأرض ، وتنسى البشرية أن لها ربا يجب عليها أن توحده ...

١- رسول .٢- انجيل برنابا*. ترجمة من الانجليزية الدكتور خليل سعادة . مطبعة المنار لصاحبها : السيد محمد رشيد رضا . ص ١٤٧ ، ١٤٩ .

٣- الرسول ﷺ لسعيد حوى ص ٤٢٢ .

لقد كان العالم فى حاجة إلى من يعيد للعقول الضالة صوابها ورشدها اللذان طاشا بسبب الجهل الأعمى الذى ران على القلوب ...

لقد كاد تاريخ الأنبياء وبعثاتهم إلى الأمم الغابرة يصبح أثرا بعد عين ، فجاء الإسلام ليعيد لهم مكانتهم ، ويجدد للناس سيرتهم ، ويذكرهم القرآن الكريم بكل إجلال واحترام ...

وهكذا فإن دعوات إبراهيم وإسماعيل ونبوءات موسى وعيسى وغيرهما حُقِّقتْ فى شخص الرسول الكريم محمد ﷺ إلى أبد الآبدين .

الفصل الثالث

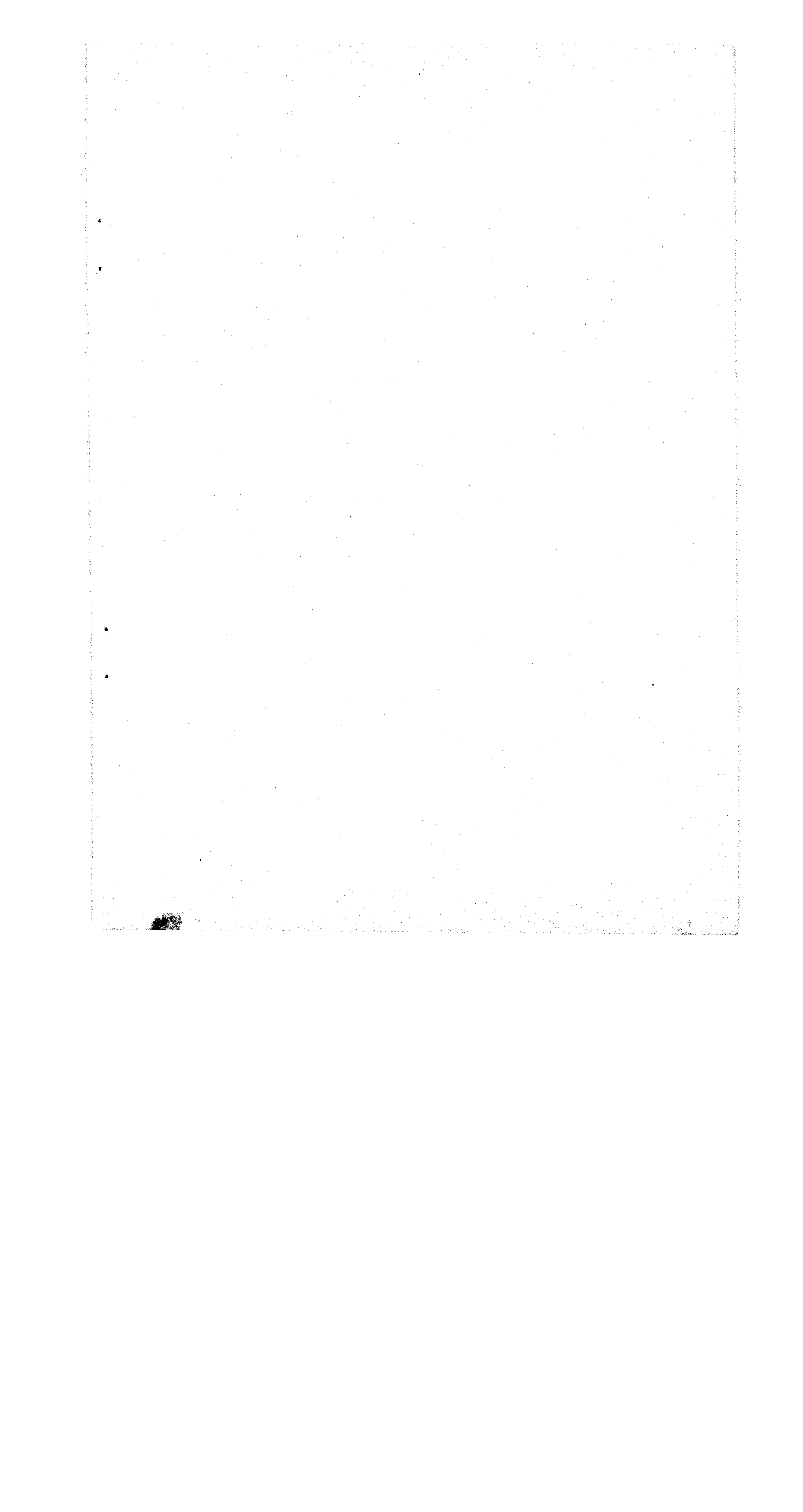
قصة أصحاب الفيل

موقف العرب منها – متى فازت العرب بالنبوة ؟

تساؤلات حول الكعبة – محمد ﷺ فى سجل التاريخ – البشارة

بمحمد ﷺ فى رؤيا تبع – فوز قريش بالنبوة والملك –

طبقات الأنبياء .



قصة أصحاب الفيل :

فى جو مكة الصافى ، كان القوم منصرفين إلى حال سبيلهم لا يعكر عليهم صفو الحياة شئ حتى طرق سمعهم نذير جيش غاز يقوده أبرهة الأشرم فدب الخوف إلى قلوبهم لاعلى حياتهم بل على مستقبل الكعبة المقدسة ، فخر آبائهم وأجدادهم ، وبيت الله الأعظم ،فهل تقاعس العرب ؟ عن نصرة بيت الله ؟

يحدثنا ابن هشام فى سيرة النبى ﷺ ، فيقول : إن بعض القبائل خرجت لقتال أبرهة مثل قريش ، وكنانة ، وهذيل .. لكنهم وجدوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك ، وأثناء سيرجيش أبرهة خرج عليه فى الطريق لإيقاف زحفه وصرفه عن الكعبة ذو نفر[1] ، الذى دعا قومه لقتال هذا الجيش ، لكنه هزم وأخذ أسيرا ، ومثله : نفيل ابن حبيب الخثعمى الذى دعا قومه ومن أحب من العرب لقتال أبرهة ، ولكنه هزم ، ومن العجيب أن يخرج له من الطائف : مسعود بن معتب بن مالك ابن كعب بن عمرو .. بن ثقيف فى رجال من ثقيف فقالوا له :

أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون .. ونحن نبعث معك من يد لك على البيت الذى جئت من أجله ، وهو بمكة ، والأعجب أنه لم يلتفت اليهم ، بل تجاوز عنهم وتركهم ، وفيهم قال ضرار بن خطاب الفهرى :

وفرت ثقيف إلى لاتها .٠. بمنقلب الخائب الخاسر

فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة ، فلما نزلوا بالمغمس ، وهو موضع بطريق الطائف مات أبو رغال هنالك ، فرجمت العرب قبره ، فهو القبر الذى يرجمه الناس بالمغمس[2] .

١- سبق الحديث عنه .

٢- انظر بلوغ الأرب : ١/٢٥٢ ، ٢٥٣ . وابن هشام : ١/٤٦ .

لقد عرض بعض العرب على أبرهة عرضا سخيا ، لقد عرضوا عليه أن يأخذ ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ، وينصرف عن البيت وهدمه ، فأبى عليهم ، فانصرفوا عنه ، وكان مقدم هذا العرض : حناطة يعمر بن واثلة الهذلى سيد بنى بكر ، وخويلد بن واثلة الهذلى سيد هذيل ، فلما انصرفوا عنه ، انصرف عبد المطلب إلى قريش ، فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة . ثم قام عبد المطلب ، فأخذ بحلقة باب الكعبة ، ومعه نفر يدعون الله(1) .

والسؤال الذى يدور فى الذهن : لماذا لم تتفق كلمة العرب على قتال أبرهة مع علمهم بمقدمه ومقصده ، وهو آت من سفر شاق وهم فى بلادهم يعرفون دروبها ومسالكها ؟

مما لا ريب فيه أن العرب تقاعسوا ، ولم ينهضوا للدفاع عن الكعبة لما يلى :-

١- لأن المفاجأة أذهلتهم ، وشلت تفكيرهم .

٢- لم يفطن العرب لإعلان النفير العام والخروج دفعة واحدة ضد أبرهة .

٣- هل الأثرة هى التى جعلتهم فى هذا الموقف ، فتحاول كل قبيلة ملاقات أبرهة منفردة ليكون الفخر لها أمام قبائل العرب ؟

٤- تعجب أبرهة من ترك العرب بيت ربهم ، وخلو بينه وبين البيت .

٥- كان انصراف العرب عن الدفاع عن البيت سبة فى جبينهم ، ولكن الله انقذهم فى الوقت المناسب . حتى قيل : أهل الله دافع الله عنهم .

وأسقط فى أيدى العرب ، ونادى مناديهم بالإسراع إلى تسلق الجبال هاربين حتى خلت مكة من أهلها ، وأصحابها ، تاركين الكعبة لمصيرها ، وفى الواقع فإن الإنسان يقف مندهشا أمام هذا الحادث ، ففى الوقت الذى يقرأ عن شجاعة العربى ، وعدم قبوله للذل أو الهوان ، يجده يقف مكتوف الأيدى أمام هذا الحادث ، لقد كانت الحروب

١- سيرة النبى ﷺ لابن هشام : ٢٥٤/١ .

تقام بينهم سنوات طويلة من اجل أمر تافه ، فما بالهم أصابهم ما أصابهم ، وأصبحت قيادتهم لا حول لها ولا قوة ، وأين نساؤهم ، ولماذا خرست ألسنتهن عن النداء بالدفاع عن الكعبة شرف الآباء والأجداد ؟

لقد سيطر الخوف على الجميع وأصبح الجيش يتقدم بخطى ثابتة نحو غرضه يتقدمه فيل ضخم يملأ القلوب هلعا ، يتبعه جيش جرار ..

إنهم لو قاوموا هذا الجيش بالحجارة لتغلبوا عليه ، ولو استخدموا طريقة الإغارة على المؤخرة لأربكوا الجيش وشتتوا شمله ، وألقوا الرعب فى قلوب أفراده وكل هذا لم يحدث فما السبب ؟

أ- هل صرف الله قلوبهم عن الدفاع عن الكعبة ؟

ب- هل أراد الله أن يلقنهم درسا عمليا ، يروافيه قدرة الله ، ولمن تكون الغلبة ، وعلى من تدور الدائرة ؟

جـ- هل هو إرهاص لمجئ محمد ﷺ ، ومعه كتاب فيه هذه القصة مسطورة فيصدقوه ؟ ولا يكذبوه ؟ كل هذا وارد . لكنهم لم يفطنوا .

لقد أصبح الجيش قاب قوسين أو أدنى ، ولم تبق الا جولة ، ويسقط البيت فى أيدى أبرهة ، والعرب وقوف ينظرون ، فما كان من الشيخ الوقور الملهم عبد المطلب إلا أن توجه قبل مغادرته مكة مع الذين غادروها معتذرا إلى الله بعد أن قال كلمته المشهورة أما الابل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه ، وأخذ يضرع إلى الله عز وجل ممسكا بحلقه باب الكعبة ومعه نفر ممن ثبت معه من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقه باب الكعبة :

لاهمّ إن المرء يمنــع	رَحله فامنع حــلالك[1]
لا يغلبـن صليبهـم	ومحالهم أبدا محـالك
إن كنـت تاركهـم	وكعبتنا فأمر ما بدالك
فلئن فعلت فإنــه	أمر يتمّ بـه فعـالك
أسمع بأرجس ما أرا	دوا العدوَ وانتهكوا حلالك
جـروا جميع بلادهـم	والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهـم	جهلا وما رقبوا حلالك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، فتحرزوا فيها ينظرون ما يفعل أبرهة بمكة إذا دخلها ، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبى جيشه ، وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن ... وضربوا الفيل ليقوم متوجها إلى مكة فأبى فضربوا رأسه حتى أدموه فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن ، فقام يهرول وإلى الشام ففعل وإلى المشرق ففعل ، ووجهوه إلى مكة فبرك ، فقال عبد المطلب :

إن أيات ربنا ساطعات .:. لا يمارى بهن إلا الكفور

حبس الفيل بالمغمس حتى .:. مرّ يعوى كأنه معقور

فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف[2] من طيور الماء ، ويسمى بلشون كما فى حياة الحيوان ، مع كل طائرة ثلاثة أحجار ، حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدا إلا هلك ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى جاءوا معه ، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله تعالى بهم من نقمته :

١- الحلال : القوم الحلول فى المكان والحلال مركب من مراكب النساء ، ويطلق أيضا على متاع البيت فاستعاره ههنا .

٢- جمع خطاف : طائر معروف .

أين المفر وإلا له الطالبُ ... والأشرم المغلوب ليس الغالب

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء ، وهو مثل فراخ الطائر فمامات حتى انصدع صدره عن قلبه .

ويروى أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رؤى بها الشجر المر كالحرمل والحنظل .

فلما رد الله تعالى الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصابهم من النقمة أعظمت العرب قريشا ، وقالوا : أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم(١).

ومن العبر والعظات التى نستخلصها من هذا الحادث ما يلى :

١- إن لم تتوحد كلمة العرب فى مثل هذه النازلة فمتى تتوحد ؟

٢- وقوع هذا الحادث أكبر دليل على تفرق العرب وعدم اتحادهم .

٣- عدم مقدرة العرب على حماية البيت .

٤- سوق هذا الحادث يعد إرهاصا لمجئ رسول يحمى البيت ، ويوحد القلوب على كلمة سواء فيحمى المقدسات ، ويحافظ على الحرمات .

٥- أراد الله عز شأنه أن يجعل تلك المناسبة تشهد ميلاد رسول عظيم فى مكة فتشعر العرب بالعزة وتفوز بالنبوة الخاتمة فكان محمد ﷺ .

عقب انهزام جيش أبرهة ، جلس عبد المطلب مع أشراف قومه فى الكعبة ذات ليلة فإذا هى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول ، يتحدث عن الآية الكبرى التى أهلكت أصحاب الفيل ، وهل وراء هذه الآية سر ؟

لم يدر بخلد عبد المطلب أن مجداً فى الأفق ينتظر قريشا ، ومعها العرب ، وبينما

١- بلوغ الأرب : ٢٥٤/١ ، وما بعدها ، وانظر ابن هشام : ٤٦/١ ومابعدها .

هم فى تفكيرهم ، وتساؤلهم إذ علا صوت البشير ينادى : ياعبد المطلب بن هاشم لقد وضعت آمنة بنت وهب غلاما أسموه محمداً !!

ودمعت عينا الشيخ الوقور ، ورفع رأسه إلى السماء شكراً لله وحمدا .. لكنه لم يستطع أن يربط بين مولد محمد ﷺ ، وهلاك أصحاب الفيل . ويأتيه الجواب من بعيد من ملك اليمن ... فماذا قال ؟

ومتى فازت العرب بالنبوة ؟

أخرج ابن سعد(1) عن السيدة عائشة قالت : سكن يهودى بمكة يبيع بها تجارات ، فلما كان ليلة وُلد رسول الله ﷺ ، قال فى مجلس من مجالس قريش : هل كان فيكم من مولود هذه الليلة ؟ قالوا : لا نعلمه ، قال : أخطأت والله حيث كنت أكره ، انظروا يامعشر العرب واحصوا ماأقول لكم :

وُلد الليلة نبى هذه الأمة أحمد الآخر ، فإن أخطأكم فبفلسطين ، به شامة بين كتفيه سوداءُ صفراء فيها شعرات متواترات ، فتصدّع القوم من مجالسهم وهم يعجبون من حديثه ، فلما صاروا فى منازلهم ذكروا لأهاليهم فقيل لبعضهم : وُلد لعبد المطلب الليلة غلام ، فسماه محمدا ، فالتقوا بعدُ من يومهم ، فأتوا اليهودى فى منزله ، فقالوا : أعلِمت أنه وُلد فينا مولود ؟

قال : أبعد خبرى أم قبله ؟

قالوا : قبله واسمه أحمد ، قال : فاذهبوا بنا إليه ، فخرجوا معه حتى دخلوا على أمه ، فأخرجته إليهم ، فرأى الشامة فى ظهره ، فغُشِىَ على اليهودى ثم أفاق

فقالوا : ويلك ! مالك ؟ قال : ذهبت النبوة من بنى إسرائيل ، وخرج الكتاب من أيديهم ، وهذا مكتوب يقتلهم ويبز أخبارهم ، فازت العرب بالنبوة ، أفرحتم يامعشر قريش ؟

١- الطبقات : ١٠٦/١ ط . دار التحرير القاهرة ١٣٨٨ هـ .

أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج نبؤها من المشرق إلى المغرب .

وقد كان .

لماذا نجت الكعبة من أبرهة ، ولم تنج من الحجاج ؟

أو لماذا حبس الفيل فى زمان الجاهلية من مكة عن الإفساد والإلحاد فيها ، ولم تنج من الحجاج بن يوسف الثقفى فى زمان الإسلام ، وقد نَصب المنجنيق[1] على الكعبة وأضرمها بالنار .. وسفك فيها الدم الحرام ، وقتل فيها عبد الله بن الزبير وأصحابه فى المسجد ؟

وكيف لم يحبس عنها القرامطة ، وقد سلبوا الكعبة ونزعوا حليتها ، وقلعوا الحجر ، وقتلوا الكثير من الحجاج ، وخيار المسلمين بحضرة الكعبة ؟

وعلى هذه الاستفسارات ، أو التسؤلات يأتيك الجواب :

أولا : كان حبس الفيل فى الجاهلية علَماً لنبوة محمد ﷺ ، وتنويها بذكر آبائه إذ كانوا عمار البيت وسكان الوادى فكان ذلك إرهاصا[2] . للنبوة ، وحجة عليهم فى إثباتها فلو لم يقع الحبس عنها ، والذب عن حريمها لكان فى ذلك أمران

أ- فناء أهل الحرم وهم الآباء ، والأسلاف لعامة المسلمين ، ولكافة من قام به الدين .

ب- إن الله سبحانه أراد أن يقيم به الحجة عليهم فى إثبات نبوة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأن يجعله مقدمه لكونها وظهورها فيهم .

ثانيا : كان مولد رسول الله ﷺ عامئذ وهم قوم عرب أهل جاهلية ليست لهم بصيرة فى العلم ، وإنما كانت معرفتهم بالأمور ما كان يدرك بالحس والمشاهدة .

١- آلة لرمى الحجارة .

٢- الإرهاص : الاثبات يقال أرهص الشئ إذا أثبته وأسسه وهو مجاز ومنه : ارهاص النبوة . راجع بلوغ الأرب : ١/٢٦٣ هامش ٣ .

ثالثا : لو لم تقع هذه الحادثة على الوجه الذى وقعت به لم يبق فى أيديهم شئ من دلائل النبوة يقوم به الحجة عليهم فى ذلك الزمان .

خاصة وأن الله سبحانه خاطب رسوله ﷺ بقرآن سمعوه وكان يتلى بين أظهرهم وهو قوله سبحان : « ألم ترك كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول » سورة الفيل .

رابعا : لما أظهر الله الدين ، ورفع أعلامه ، وشرح أدلته ، وأكثر الله أنصاره ، واستقرت أركانه لم يكن ما حدث للكعبة من ذلك الصنع أمرا يضر بالدين ، أو يقدح فى بصائر المسلمين ، وإنما كان ما حدث منه امتحانا من الله سبحانه لعباده ليبلو فى ذلك صبرهم واجتهادهم ، وليقيلهم من كرامته ومغفرته ما هو أصل التفضل به ، والله يفعل ما يشاء ، وله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين(١) .

محمد ﷺ فى سجل التاريخ :

نفهم من سوابق التاريخ ملامح قوية تعد بحق إشعاعا يشف عما كان يضمره الغيب من شأن الرسالة المحمدية ، ومع بداية تحول النبوة نحو بلاد العرب تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ النبوة ، والكهانة فتكون بمثابة البشارة بظهور النبى العربى محمد ﷺ آخر الرسل وخاتم النبيين .

فمن أحداث العرب المشهورة على عهد يزدجرد ، وفيروز ما حدث لتبع بن حسان ملك اليمن ، فقد استهامت(٢) به الجن ، ورجع من استهامته تلك وهو أعلم الناس بما كان

١- راجع لأبى الطيب محمد المكى المالكى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، وتاريخ مكة للإمام الأزرقى ، نقلا عن بلوغ الأرب : ٢٦٣/١ .

٢- أى عشقته ، وسارت به على غير هدى .

قبله فكان ذلك سببا فى ملكه اليمن وهيبة حميرله[1] .

قدم على (تبع) .. كاهن العرب المشهور : شافع بن كليب الصدفى ، وعندما سأله تبع إن كان يجد لقوم ملكا يوازى ملكه : ذكر ملك بنى غسان فى بلاد الشام ، وعندما سأله إن كان يجد ملكا يزيد عليه ؟

قال : « أجده لبار مبرور أيد بالقهور ، ووصف الزبور ، وفضلت أمته فى السفور يفرج الظلم بالنور ، أحمد النبى طوبى لأمته حين يجئ ، أحد بنى لؤى ، ثم أحد بنى قصى ، فنظر تبع فى الزبور فإذا هو يجد صفة النبى ﷺ »[2] .

وعلى عهد قباذ الذى كان زنديقا : يظهر الخير ويكره الدماء ، ويدارى أعداءه عزم الملك اليمنى تبان أسعد أبو كرب على تخريب يثرب (المدينة) ، ولكن منعه من ذلك حبران من يهود بنى قريظة عالمان بأحوال الحدثان ، إذ قالا له :

إنها مهاجر نبى من قريش تكون داره فقبل نصيحتهما ، ودخل فى دينهما ، وبسببه انتشرت اليهودية فى اليمن[3] .

البشارة بمحمد ﷺ فى رؤيا تبع وفيها رد لعبد المطلب :

من أهم معارف الحدثان على عهد تبع التنبؤ بغزو الحبشة لبلاد اليمن ، وذلك أنه لما ملك تبع قبائل ربيعة ، بمعنى سقوط العرب العدنانية تحت سلطان القحطانية ، رأى تبع فى نومه رؤيا هالته فلجأ إلى الكهان والسحرة ،العياف[4] الذين احتاروا فى تفسيرها ولم ينجح منهم إلا كاهنا غسان الشهيران وقتئذ ببلاد الشام وهما :

سطيح ، وشق . وقد أخفى الملك الرؤيا ولم يقصها ، وإنما طلب تفسيرها قبل أن يحكيها !!

١- ابن الأثير : الكامل : ١/ ٤١٠ .

٢- ابن الأثير : الكامل : ٤١٧/١ ، والأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام ص ٢٣٤ . للأستاذ : سعد زغلول عبد الحميد مجلة عالم الفكر . المجلد الثانى عشر ، العدد الرابع ١٩٨٢ (مجلة فصلية تصدر عن الكويت) .

٣- لكامل لابن الأثير : ٤١٧/١ ، والأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام .. ص ٢٣٤ .

٤ - العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها . المعجم الوسيط مادة: عاف.

وفى تفسير الرؤيا قال له سطيح فى كلام مسجوع :

« أحلف بما بين الحرتين من خش ليهبطن أرضكم الحبش ، فليملكن ما بين أبين إلى جرش .. خروجهم على يد وارم ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن فلا يترك أحدا منهم باليمن » .

ثم وجه سؤالا إلى سطيح هل للدهر من آخر ؟

قال : « نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون .. » فكأنه كان يؤمن بيوم الحساب والمثوبة والعقاب .

وعندما سأل الملك إن كان ما يخبرهم به حقا ؟

قال سطيح : « نعم ، والشفق والغسق والفلق إذا اتسق أن ما أنبأتك به لحق » . أما أهم ما فى نبوءة سطيح فهى التبشير بالنبى العدنانى . فعندما سئل إن كان ملك نويزن يدوم قال :

« بل ينقطع ، يقطعه نبى زكى يأتيه الوحى من العلى ، وهو رجل من ولد غالب بن فهر بن ملك بن النضر يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر[1] » .

ثم يأتى دور شق ، ولا يختلف قوله فى تفسير رؤيا الملك عن تفسير سطيح بل يقرب منه فقال فى كلام مسجوع :

« رأيت جمجمة ، خرجت من ظلمة فوقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة . » وفى تأويلها قال : احلف ما بين الحرتين من إنسان لينزلن أرضكم السودان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران فى توقيت ذلك . قال الملك :

« بعدك بزمان ثم يستنقذكم منه عظيم ذو شأن . يخرج من بيت ذى يزن ، وإجابة عن دوام سلطانه وانقطاعه قال :

١- الكامل لابن الأثير ٤١٨/١ ، والأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام ص ٢٣٥ ، وسيرة النبى ﷺ لابن هشام : ١١/١ وما بعدها .

« بل ينقطع برسول مرسل يأتى الحق العدل بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل » .

ولما سئل عن يوم الفصل قال : « يوم تجزى فيه الولاة ويدعى من السماء بدعوات ويسمع منها الأحياء والأموات ، ويجتمع فيه الناس للميقات »(١)

علمت قريش إذن من تفسير الكاهنين العربيين لرؤيا الملك ببشارة نبى عربى عدنانى وأن الخلافة ستستمر فى قريش ، بالإضافة إلى سماعهم عن الإخبار بيوم الحساب والثواب والعقاب .

تهنئة عبد المطلب لملك اليمن : سيف بن ذى يزن :

بعد هزيمة أبرهة ، وقضاء سيف بن ذى يزن على بقايا الحبشة فى اليمن .. ذهب إليه عبد المطلب على رأس وفد قريش وهناك يوجه الخطاب إلى ملك العرب الجديد سيف بن ذى يزن فيقول له :

« فأنت - أبيت اللعن - رأس العرب ، وربيعها الذى به تخصب ، وملكها الذى له تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى إليه لجأ العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف » .

وكان رد ابن ذى يزن على ذلك الكلام البليغ بكلام ذهب بين قبائل العرب مذهب الأمثال ، فقد قال لعبد المطلب : « مرحبا وأهلا ، وناقة ورحلا ، ومستناخا سهلا وملكا ربَحْلا ، يعطى عطاء جزلا »(٢) .

محمد ﷺ يبشر به ملك اليمن عبد المطلب :

كان لملك اليمن منزلة سامية لدى العرب ، فهو الذى قهر أهل الحبشة وثأر لهم ، ولما

١- ابن الأثير : الكامل : ٤١٩/١ ومابعدها .

٢- ابن الأثير : الكامل : ٢٥١٢ ، والأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام ص ٢٤٢ .

ذهبوا للتهنئة قربهم إليه ، ورد على التحية بأحسن منها إذ أخبرهم فى شخص عبد المطلب بنبى يولد من العرب ، ووصف له صفته ، فكبر عبد المطلب ، وعرف صدق ما قال سيف بن ذى يزن فخر ساجدا .

وفى تفصيل ذلك تقول الرواية أن حوارا دا ربين سيف بن ذى يزن ، وبين عبد المطلب أسرّ فيه سيف بما كان يعرفه من علمهم (علم الحدثان) كالآتى :

سيف : إنى أجد فى العلم المخزون ، والكتاب المكنون ، والذى ادخرناه لأنفسنا ، واحتجبناه دون غيرنا خبرا عظيما ، وخطرا جسيما فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة للناس كافة ولرهطك عامة ، ولنفسك خاصة .

عبد المطلب : مثلك أيها الملك مَن بر ، وسر ، وبشر ، ما هو ؟ فداك أهل الوبر زمرا بعد زمر .

سيف : إذا ولد مولود بتهامة ، بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة إلى يوم القيامة .

عبد المطلب : أبيت اللعن لقد أُبت بخير ما آب به أحد فلولا إجلال الملك لسألته أن يزيدنى فى البشارة ما ازداد به سرورا .

سيف : هذا حينه الذى يولد فيه ، أو قد ولد ، يموت أبوه وأمه ويكفله جده ، وعمه قد ولدناه مرارا ، والله باعثه جهارا ، وجاعل له منا أنصارا ، يعز بهم أولياؤه .. ويستمر الحوار وسيف بن ذى يزن يزيد فى إيضاح دلائل النبوة وعلاماتها :

سيف : ارفع رأسك ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك ؟

عبد المطلب : أيها الملك كان لى ابن كنت له محبا وعليه حدبا مشفقا فزوجته كريمة من كرائم قومه يقال لها: آمنة بنت وهب بن عبد مناف فجاءت بغلام بين كتفيه شامة فيه كل ما ذكرت من علامة : مات أبوه ، وأمه ، وكفلته أنا وعمه .

سيف : إن الذى قلتُ لك كما قلت فاحفظ ابنك واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا اطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى أجد فى

الكتاب الناطق والعلم السابق أن يثرت دار هجرته وبيت نصرته ، ولولا أنى أتوقى عليه الآفات ، وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنة أمره ، وأوطأت أقدام العرب عقبه ، ولكننى صارف ذلك إليك عن غير تقصير منى بمن معك[1] .

فوز قريش بالنبوة والملك :

عرف عبد المطلب شأن يتيم ابنه عبد الله منذ مولده ، وماقدر له من نبوة ورسالة فقربه من نفسه ، ودعاه بابنه ، وعندما كان عبد المطلب يجلس بفناء الكعبة كان لا يقرب فراشة إلا النبى وهو غلام صغير ، إذ كان عبد المطلب يسمح له بتخطى رقاب أعمامه ويقول لهم : « دعوا ابنى إن لا بنى هذا لشأنا »[2] .

وهكذا وقع على عاتق عبد المطلب عبء الحفاظ على النبو ة وهى بعد حدث مستقبلى فى حشايا محمد الصغير فكأنها اللؤلؤة فى جوف الصدفة ، وهى فى دور التكوين ، وكان عبد المطلب وهو يقوم بدور الحاضن الأمين لمبعوث العناية الإلهية ، القدوة الحسنة ، والمثل الذى يحتذى بالنسبة للنبى الصغير ، وبالرغم من أن عبد المطلب مات والنبى لم يتجاوز الثامنة من عمره ، فإنه ليس من المستغرب أن يروى عنه أنه كان يعتبر عبد المطلب أبا له حتى أنه ﷺ قال فى غزوة حنين : « أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب »[3] .

وقال عن جده عبد المطلب :

« إن الله يبعث جدى عبد المطلب أمة واحدة فى هيئة الأنبياء وزى الملوك »[4] .

فكأن قريشا قد جمعت بين النبوة والملك مثلما كان الشأن فى بنى اسرائيل يؤيد هذا ما

١- انظر العقد الفريد ص ٢ ص ٢٥ - ٢٨ ، وتاريخ اليعقوبى : ١٢/٢ ، والأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الاسلام ص ٢٤٢ .

٢- تاريخ اليعقوبى : ٢/٢ .

٣- العقد الفريد : ٢٨٣/٥ .

٤- تاريخ اليعقوبى : ١٤/٢ .

ينسب إلى الرسول ﷺ من أنه قال فى قريش أيضا :

« جمعت سبع خصال لم يعطها لها أحد قبلهم ولا يعطاها بعدهم »

فكأن الله عز شأنه فضلهم على العالمين ، كما فضل من قبل بنى اسرائيل[١] .

أما الخصال السبع فهى :

النبوة ، والخلافة ، والحجابة ، والسقاية ، والانتصار على أصحاب الفيل ، انفرادهم بعبادة الله سبع سنين ، أوعشر سنوات دون غيرهم ، نزول سورة من القرآن فيهم[٢] .

ذبحت اليهود :

قال العباس : خرجت فى تجارة إلى اليمن فى ركب فيهم أبو سفيان بن حرب ، فورد كتاب من حنظلة بن أبى سفيان فيه : أن محمدا أقام بالأبطح فقال : أنا رسول الله أدعوكم إلى الله ففشا ذلك فى مجلس اليمن ، فجاءنا حبر من اليهود فقال : بلغت أن فيكم عم هذا الرجل الذى قال ما قال ؟ قال العباس :

فقلت : نعم ، قال أنشدك هل كانت لابن أخيك صبوة وسفهة ؟ قلت : لا ، وإله عبدالمطلب ، ولاكذب ، ولا خان ، وإن كان اسمه عند قريش « الأمين » .

قال : فهل كتب بيده ؟ قال العباسى : فظننت أنه خير له أن يكتب ، فأردت أن أقول : نعم ، فخشيت من أبى سفيان أن يكذبنى ، ويرد على ، قلت : لا ، فوثب الحبر وترك رداءه وقال : ذبحت يهود[٣] .

١- انظر السيرة الحلبية : ٢٥/١ .

٢- الأنبياء المتنبئون قبل ظهور الإسلام ص ٢٤٣ .

٣- الخصائص الكبرى للسيوطى : ٢٤٦/١ . نقلا عن الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى ص ٢٠٨

– مما سبق –

يتضح من التقاء الأنبياء والمتنبئين[1] فى التبشير بالنبى – ﷺ – يعنى المشاركة فى وحدة الهدف ، وبالتالى المشاركة فى صحة الدعوة ، وعن هذا الطريق يكون الإسلام عامل ربط بين مختلف الأديان التى لا تختلف فى أصولها العامة . أما عن أختلافاتها فى الفروع .

١– كلمة النبى مشتقة من الفعل نبأ أو نبأ أو أنبأ بمعنى أخبر ، ومنها النبأ بمعنى الخبر فكأن النبى هو المخبر بأوامر الله ونواهيه وعن هذا الطريق أصبحت الأنباء عند المفسرين هى الحجج ، (لإن الحجج إنباء عن الله عز وجل ، والنبى : المخبر عن الله عز وجل لأنه أنبأ عنه) – لسان العرب مادة نبأ

ويمكن أن تكون مشتقة (من النبوة والنباوة) وهى الإرتفاع عن الأرض أى أنه أشرف على سائر الخلق) .

أما الرسول فهو أخص من النبى ، لإن كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا – لسان العرب مادة نبأ

فالرسول لغة تعنى الرسالة ، يؤنث ويذكر كما تعنى المرسل – لسان العرب مادة الرسل –

والرسول هو : الذى يتابع أخبار الذى بعثه أخذا من قولهم جاء الإبل رسلا أى متتابعة .

وهكذا يكون « محمد رسول الله » فى الأذان بمعنى أن محمداً متابع للأخبار عن الله عز وجل ويصبح المعنى فى التنزيل العزيز حكاية عن موسى وأخيه « فقولا إنا رسول رب العالمين » . بمعنى إنا رسالة رب العالمين أى إننا ذوا رسالة رب العالمين . وبناء على ذلك تكون تسمية الرسول رسولا لإنه ذو رسالة – لسان العرب مادة : الرسل –

وبناء على ما سبق فان الرسالة تعنى النهوض ببلاغ معين بينما تعنى النبوة الشرف إلى جانب الإخبار عن الله عز وجل مما يكون بطريق الوحى ، ..

أما عن كلمة المتنبئ فهى مأخوذة من الفعل تنبأ كما يقال : تنبأ الرجل أى ادعى النبوة كما يقال : تنبأ مسيلمة بإثبات الهمز الذى يترك فى النبى .

كما ينص على ذلك سيبويه راجع الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام ص ١٩٨ ورغم محاولة اللغويين جعل النبوة بمعنى الرفعة والشرف فقد ظل اشتقاق النبوة والتنبى واحداً .. ، بدليل قول عبد الله بن عمر رضى الله عنهما حيث قال : « لما كان اليوم الذى تنبأ فيه رسول الله – ﷺ – ، منعت الشياطين من خبر السماء ورموا بالشهب » – السيرة الحلبية : ١/٢١٠ (وعن طرد الشياطين من استراق السمع عند مبعثه بكثرة تساقط النجوم – »

فلا بأس أن تكون التفرقة التى نلتزم بها فيما بين النبوة والتنبى وليدة العصور التالية لصدر الإسلام حيث وسم أشهر المتنبئين بالكذب ، فلم يعد من الجائز استخدام النبو ة .. بالنسبة للمتنبئين ، كما نزهت شخصية الرسول عن التنبى ، وإن كان مخبرا عن الله عز وجل . =

فتنجم عن طريق التفسير والشرح والتأويل وهو الأمر الذى كان يتطلب شيئا من المراجعة والتعديل إلى ان انتهى الأمر بخاتم الأنبياء والرسل الذى جمع له المتأخرون من أصحاب السير .

والمادحون من العباد والمتصوفة كل الخصال الجميلة والخلال الحسنة والآداب الفاضلة . كما جعلوا له المعجزات الكبيرة والخوارق الباهرة والآيات الكريمة حتى لا يفضله فى أى منها نبى ولا رسول سابق عليه ولم يكن من الغريب ان ينتهى الأمر بأن يصبح النبى فى

= ومما تجب الإشارة إليه أن شخصية الرسول تطورت نحو السمو والرفعة فى أعين المسلمين مع مرور الأيام .

ويلاحظ أن : طبقات الأنبياء من كبارهم تشمل :

الطبقة الأولى وهم :آدم أبو الخليقة الأول .

ونُوح أبو الخليقة الثانى .

وإبراهيم أبو الأنبياء .

وموسى أول أنبياء بنى إسرائيل وعيسى آخر انبياء بنى إسرائيل

ثم محمد خاتم النبيين . عليهم الصلاة والسلام .

الطبقة الثانية : تنحصر فى : داود ، ويعقوب ، ويوسف ثم أيوب عليهم الصلاة والسلام هذا ويضاف إلى هؤلاء .

الطبقة الثالثة : فى هود نبى عاد ، ثم صالح نبى ثمود عليهما السلام .

وهناك مجموعات من الأنبياء ترجع فى معظمها من الناحية العرقية إلى بنى إسرائيل لا يشاركهم سوى السريانيين .

الذين لهم أربعة من الأنبياء وهم :

(آدم ، وشيث ، ونوح ، واخنوخ ، أو إدريس – وإبراهيم) عليهم الصلاة والسلام .

ثم العرب ومنهم : هود ، وصالح ، وإسماعيل ، وشعيب ،

ثم محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ولقد كانت نبوة هود فى عاد ، وصالح فى ثمود موضوع جدل بين الرسول وبين اليهود الذين قالوا إنه لا ذكر لهما ولا لقو ميهما فى التوراة .

راجع : هنرى ماسيه : الإسلام ترجمة بهيج شعبان مجموعة (زدنى علما) منشورات بيروت باريس ص ١٤٣ .

وابن الأثير الكامل ص ١ ص ٨٥ ، ٨٩ .

والعقد الفريد ص ٣ ص ٤٠٤ والمعارف لأبن قتيبة ص ٢٦ .

راجع الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام ص ٢٠٠ .

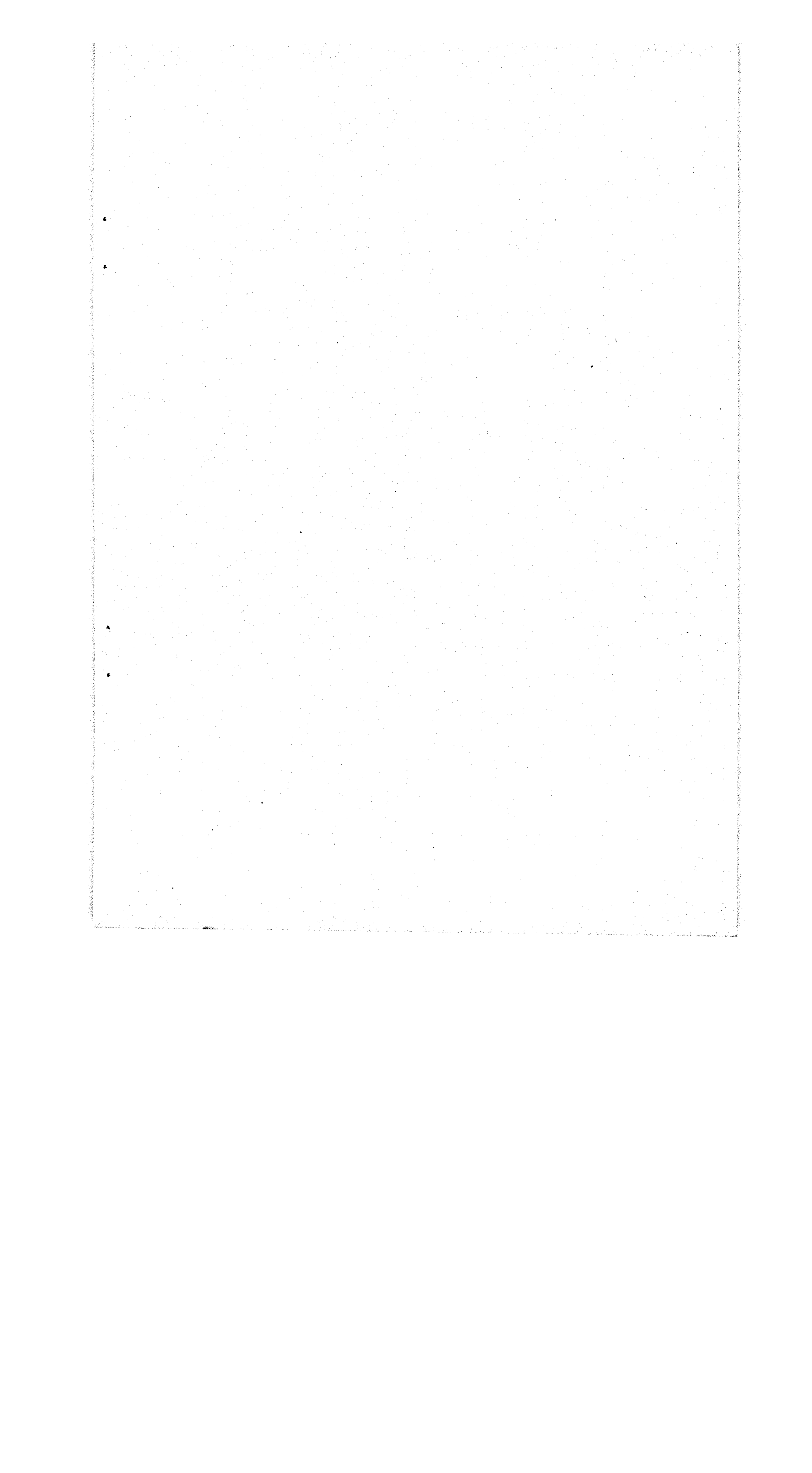
عيون أوليائه من المسلمين أصل الوجود في دنيا البشر هكذا قال ابن عربي (ت٦٣٨هـ)

لو لم يكن نور سيدنا محمد لما انكشف سر على وجه الأرض ولما تفجر ينبوع أو جرى نهر ، والذى لا شك فيه ان ابن عربى يأخذ بفكرة وحدة الأديان وهو ما يظهر فى كتابة (نقش الفصوص) الذى تسلسل فيه الحكم الإلهية ممثلة فى كلمات الأنبياء ، إبتداء من الكلمة الآدمية وما يليها من النُوحيه ، والأدريسية ، والإبراهيمية ، والعيسوية .

وانتهاء[1] بكلمة الإسلام على يد خاتم الأنبياء والمرسلين ، ومسك الختام : محمد رسول الله ﷺ .

١- كتاب نقش الفصوص جـ ١ حيدر آباد ١٣٦٧/١٩٤٨ مجموعة رسائل عربى دار إحياء التراث العربى بيروت .

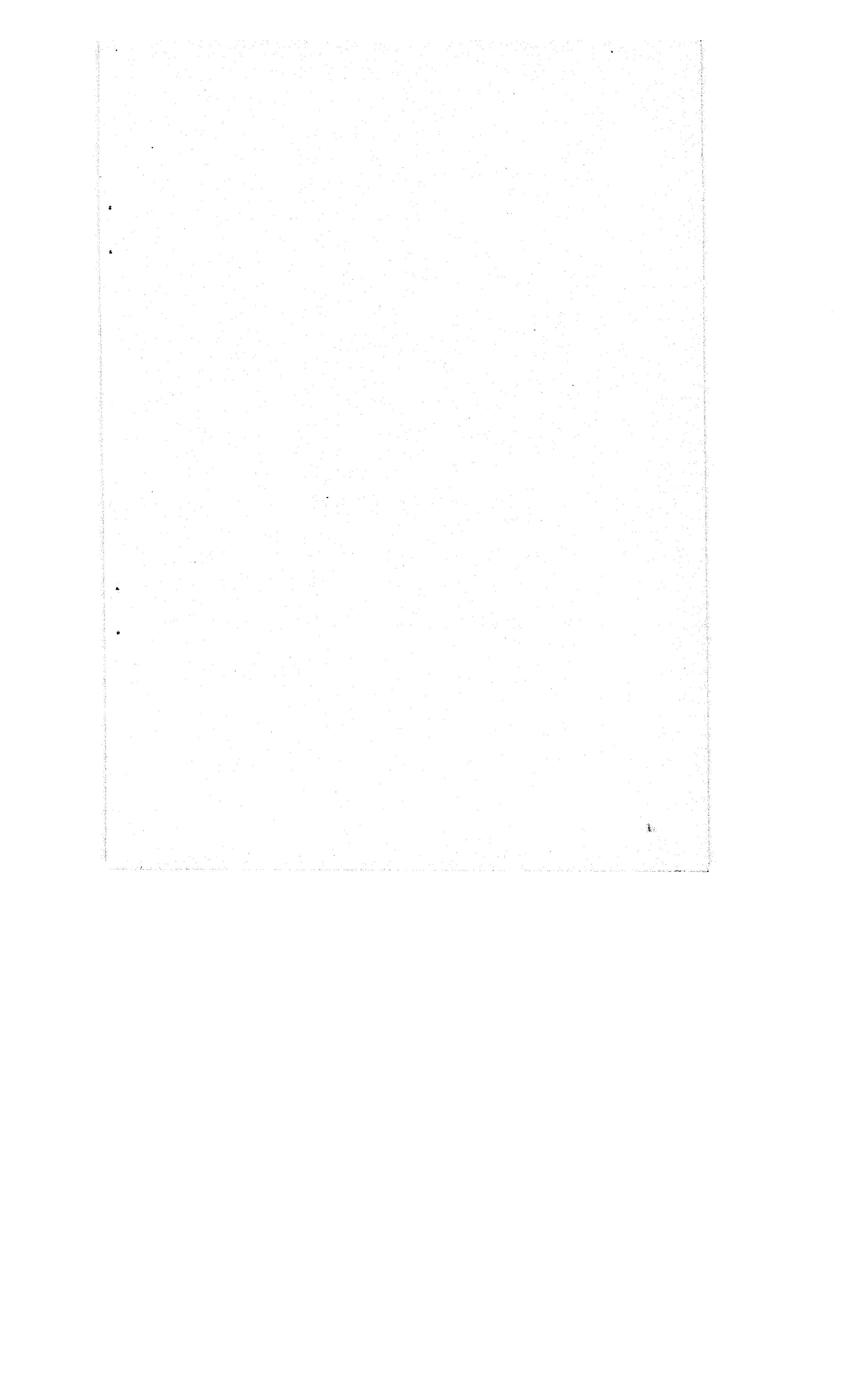
نقلا عن الأنبياء والمتنبئين قبل ظهور الإسلام ص ٢٤٨ .



الفصل الرابع

لماذا اختصت الجزيرة العربية بنزول

الدعوة الإسلامية – مبعث محمد ﷺ – تأكد السيدة خديجة من صدق الملك –
منهج الدعوة الإسلامية فى مكة – فهم العرب للعبادة –
غياب التوحيد الحق لدى الشعوب – التوحيد فى الإسلام .



لماذا اختصت الجزيرة العربية بنزول الدعوة الإسلامية بها ؟

هناك اكثر من سبب هام فى اختيار الجزيرة العربية لتكون مهدا لنشأة الدعوة ، وذيوعها .

أولا : فضل الجنس العربى .. وقوة بيانه وكونه أحفظ من غيره ، ومكانة قريش - كما سبق بيانه -

ثانيا : كان يحيط بالجزيرة دولتان هما فارس والروم ومن ورائهما اليونان والهند .

أما فارس فكانت الفلسفة الدينية الزرادشتية فى صراع فقد اعتنقها ذووا السلطة الحاكمون وكانت فلسفتها تفضيل زواج الرجل بأمه أو ابنته أو أخته ، حتى أن « يزدجرد » الثانى الذى حكم فى أواسط القرن الخامس الميلادى تزوج بابنته هذا إلى جانب الإنحرافات الخلقية المشينة التى كانت ترى فى تلك المجتمعات .

كذلك وجدت المزدكية التى قامت فلسفتها على حل النساء ، وإباحة الأموال ، وجعل الناس شركاء فيها اشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ، وقد حظيت هذه الدعوة بإستجابة مذهلة لدى أصحاب الرعونات وصادفت لديهم قبولا كبيرا[1]

أما الرومان : فقد كانت تسيطر عليها الروح الإستعمارية ، بالإضافة إلى انهماكها فى خلافات دينية بينها وبين نصارى الشام من جهة وبينها وبين مصر من جهة أخرى ، وكانت طموحاتها الإستعمارية تعتمد على قوتها العسكرية فى فرض مذاهبها الدينية .

وقد شاع فى هذه الدولة أيضا حياة التبذل والإنحطاط والظلم الإقتصادى من جراء كثرة الإتاوات ، ومضاعفة الضرائب .

أما اليونان : فقد كانت غارقة فى مجادلات كلامية ، تدور حول الحكمة والحياة النيابية ، وأظهر ما أثر عنهم أنهم قوم استنبطوا قواعد علم الخطابة وشيدوا أركانه

١- انظر الشهرستانى الملل والنحل : ص ٢ ص ٨٦ ، ٨٧ .

وأقاموا بنيانه ، وعلى الجملة فقد نالت الخطابة فى عهدهم شأوا بعيدا ، أما العقيدة فكانت منزوية لا يكاد يشعر بها أحد ؟ وقد عرف عن مجتمعاتها من شطارة اللصوص ، وخطف الأطفال ما كان سيئة فى جبينهم .

وأما الهند : فقد اتفقت كلمة المؤلفين فى تاريخها أن أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعاً ذلك العهد الذى يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادى فقد ساهمت الهند مع جاراتها فى التدهور الأخلاقى والاجتماعى(١)

وماحل بالمجتمعات الآنفة الذكر إنما بسبب إعتمادها على الحضارة المادية وحدها وإغترارهم بدورها دون الإعتماد على وحى من الله عاصم يحول بينها وبين الطغيان والظلم الغاشم .

فإن القيم الحضارية والمدنية – فى ظل الوحى ، الإلهى – تصبح كلها وسائل خير ورحمة تقود إلى السعادة التامة فى مختلف أنواع الحياة و مظاهرها .(٢)

أما الجزيرة العربية ، فكانت هادئة بعيدة عن موجات الصراع والإضطرابات التى كانت تثور بين الروم وفارس .

كما أنه لم يكن لدى أهلها من الترف والمدنية مالدى فارس من الإنحلال والإباحية ولم يكن لديها من الطغيان العسكرى الرومانى ما يبسطون به أيديهم بالتسلط على مقدرات الشعوب .

كانت طبائعهم أشبه ماتكون بالمادة (الخام) التى لم تنصهر بعد فى أى بوتقه محوّلة فكانت تترائى فيها الفطرة الإنسانية السليمة والنزعة القوية إلى الإتجاهات الإنسانية الحميدة .

كالوفاء والنجدة والكرم والإباء والعفة إلا أنه كانت تعوزهم المعرفة التى تكشف لهم

١– راجع لأبى الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ ص ٢٨ .

٢– راجع للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى : فقه السيرة ص ٣٢ ط السابعة ١٣٩٨ هـ .

الطريق إلى كل ذلك .

إذ كانوا يعيشون فى ظلمة الجهالة البسيطة ، فكان يغلب عليهم أن يضلوا الطريق إلى تلك القيم الإنسانية فيقتلوا الأولاد بدافع الشرف والعفة ويتلفوا الأموال الضرورية بدافع الكرم ، وتقام المعارك بينهم بدافع الإباء والنجدة .

وهذه الحالة هى التى عبر عنها الله عز وجل بالضلال فى قوله « وإن كنتم من قبله لمن الضالين »(١) .

وهى صفة إذا ما نسبت إلى حال الأمم الأخرى إذ ذاك تدل على الإعتذار لهم أكثر من أن تدل على تسفيههم أو تعييرهم بها ...

ثم إن الجزيرة العربية تقع فى نقطة الوسط بين هذه الأمم التى كانت تموج من حولها والناظر اليها اليوم يجد كيف أنها تقف فى الوسط التام بين حضارتين جانحتين :

إحداهما حضارة الغرب المادية التى قدمت عن الإنسان صورة بتراء لا تقع حتى على جانب جزئى من الحقيقة

وأخراهما : الحضارة الروحية - الخيالية فى أقصى الشرق كتلك التى كانت تعيش فى الهند والصين وماحولهما .(٢)

فإذا تصورنا حالة العرب فى جزيرتهم قبل الإسلام وحالة الأمم المختلفة الأولى المحيطة بهم سهل علينا أن نستجلى الحكمة الإلهية التى اقتضت أن تتشرف الجزيرة العربية دون غيرها بمولده ﷺ وبعثته ، وأن يكون العرب هم الطليعة الأولى التى تحمل إلى العالم مشعل الدعوة إلى الدين الاسلامى الذى تَعَبّد الله به الجنس البشرى كله من أقصى العالم إلى أقصاه .

..... ولو تعلقت إرادة الله تعالى بأن يجعل فجر الدعوة الإسلامية من جهة ما فى أرض فارس أو الروم ، أو الهند لهيأ لنجاح الدعوة فيها من الوسائل ما هيأ لها فى الجزيرة العربية وكيف يعز ذلك عليه ؟ وهو خالق كل شئ ومبدع كل وسيلة وسبب ؟

١- البقرة : ١٩٨ .

٢- راجع لمحمد تبارك : الأمة الغربية فى معركة تحقيق الذات ص ١٤٧ - نقلا عن فقه السيرة ص ٣٤.

و لكن الحكمة فى هذا الاختيار ، من نوع الحكمة التى أقتضت أن يكون الرسول أميًا لا يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه كما قال الله تعالى حتى لا يرتاب الناس فى نبوته عليه الصلاة والسلام وحتى لا تتكاثر لديهم أسباب الشك فى صدق دعوته « إذ من تتمه هذه الحكمة الإلهية أن تكون البيئة التى بعث فيها عليه الصلاة والسلام أيضا بيئة أمية بالنسبة للأمم الأخرى التى من حولها أى لم يتطرق اليها شئ من الحضارات المجاورة لها ، ولم تتعقد مناهجها الفكرية بشئ من تلك الفلسفات التائهة من حولها »[1] .

ولقد قطع القرآن خط الرجعة أمام كل متقول أمام اختيار محمد - ﷺ - من أنه جاء من بيئة فلسفية ، أو حضارة ومدنية ، إذ رب مرتاب مبطل يزعم أنها سلسلة التجارب الحضارية والأفكار الفلسفية ابدعت أخيراً هذه الحضارة الإسلامية الفذة .

ولقد أوضح القرآن الكريم هذه الحكمة بصريح العبارة حينما قال : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[2] .

فلقد أقتضت إرادة الله تعالى أن يكون رسولا أميا ، وأن يكون القوم الذين ظهر فيهم هذا الرسول أميين أيضا فى غالبيتهم العظمى ، حتى تكون معجزة النبوة والشريعة الإسلامية - واضحة فى الأذهان لا لبس بينها وبين الدعوات البشرية المختلفة .

وهناك حكم أخرى لا تخفى على الباحث نجملها فيما يلى :-

١- من المعلوم أن الله عز وجل قد جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمنا ، وجعله أول بيت وضع للناس للعبادة وإقامة الشعائر الدينية ، وقد تحقق فى الجزيرة دعوة أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ومن لوازم هذا كله أن

١- فقه السيرة ص ٣٥ .

٢- الجمعة : ٢ .

تكون هذه البقعة المباركة نفسها مهدا للدعوة الإسلامية التى هى ملة أبى الأنبياء إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

٢- البقعة الجغرافية للجزيرة العربية ترشحها للقيام بعبء مثل هذه الدعوة بسبب موقعها بين دول العالم ..

وهذا مما يجعل إشعاعات الدعوة الإسلامية تنتشر بين جميع الشعوب والدول المحيطة بها فى سهولة ويسر ، ومن يتدبر سير الدعوة الإسلامية فى صدر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين يجد مصداق ذلك جليا واضحا .

٣- إقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن تكون اللغة العربية هى لغة الدعوة الإسلامية ، وأن تكون هى الوسيلة المباشرة الأولى لترجمة كلام الله عز وجل وإبلاغه إيانا .

ومما لا ريب فيه أن اللغة العربية تمتاز من بين لغات العالم بخصائص لا توجد فى لغة سواها بل يعز وجودها فى لغات أخرى(١)

ومع مولد الرسول ﷺ ورسالته جاء ربيع الحياة حقا وصدقا .

فربيع الحياة الذى دام زهوه ، وزها ضوؤه فأخرج الصالحين من الظلمات إلى النور وأتاح للمؤمنين نعيم الخلد أبد الأبدين .

فى الربيع من التاريخ كان ربيع الحياة السرمدى ، ربيع الروح الذى سبغ الكون بمولد سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله خاتم النبيين وسيد المرسلين ، ودعوة إبراهيم وخير الخلق وسيدهم أجمعين .

وبمولد الرسالة التى عرف بها المؤمنون ربهم ، وقرت به أعينهم فرضى عنهم ورضوا عنه ...

١- انظر فقه السيرة ص ٣٦ د / البوطى وراجع : أحمد موسى سالم : لماذا ظهر الإسلام فى جزير لعرب دار الجيل بيروت ١٩٧٧ م

اختار الله سبحانه وتعالى له مكة مولدا ، فدرج عليها محبا لها ، مبغضا لكل نزواتها .

واختار الله سبحانه وتعالى له مكة مبعثا فنادى فى رباها ، وأسواقها وحشرها ، وجمعها : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » . أما لماذا اختار الله مكة بالذات ؟

فلأنها كانت عاصمة الجزيرة التى اجتمع بها أديان الخلق جميعا والتى صُرعت بباطلها - كما يقول الدكتور على الخطيب - تحت قدميه :

« من الألف الثالثة إلى الألف الثانية من قبل الميلاد أقام فى ذلك الجزيرة أناس من أتباع كل عقيدة دينية عرفت فى تلك العصور » أقام فيها من الهند :

البوذيون ، والزُّط ، والميد ، والسيابجة ، والأحامرة ، والتكاكرة ، والبياسرة بمُختلف أديانهم ولغاتهم الهندية .

وسكنها الأساورة من الفرس بمجوسيتهم ، وأقاموا فيها أكثر من مملكة وحل بها الرومان فى جالية ضخمة ، ومثلهم اليونان ، ويحفظ التاريخ من مستعمراتهم : « أنبلونة » على مقربة من ساحل « عسير » أو ساحل الحجاز شمال جدة ، وشادوا قديماً امبراطوريتهم بـ « تدمر » ، وبنوا معابدهم الوثنية

وحل بها أهل الكتاب من العبرانيين سبط راحيل من نحو عام ١٢٢٥ ق . م . ونزلها النصارى فحلوا بها شمالا وجنوبا وشادوا بها لهم ملكا وأديرة ، وماج هذا الخليط بوثنية هاجت حتى أحاطت بالكعبة .

هنا كان محمد رسول الله ﷺ ، ليتصدى لأقوى مواجهة تشترك فيها أديان الأرض جميعا وليقيم على أنقاضها دينه الذى جعله الله للناس أجمعين وثبت دين الله سبحانه وتلاشى الزور تحت قدمى رسوله ﷺ وطهرت مكة إلى الأبد (١)

١- مجلة الأزهر / مع ربيع التاريخ / ص ٣ / ربيع أول ١٤٠٦ هـ

مبعث محمد ﷺ :

قال ابن اسحاق : لما بلغ محمد ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين وكان الله عز وجل قد أخذ الميثاق على كل نبى قبله ، أن يؤمن به ويصدقه ، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم ، فأدوا ذلك ما كان عليهم من الحق فيه فقال :

« و إذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتُؤمِنُن به ولتنصرنه قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى » أى : ثقل ما حملتكم من عهدى « قالوا : أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »[1]

فأخذ الله ميثاق النبيين جميعا بالتصديق له ، والنصر له ممن خالفه ، وأدوا ذلك إلى من آمن بهم وصدقهم من أهل هذين الكتابين[2] .

بدء نزول الوحى على رسول الله ﷺ :

كان من عادة رسول الله ﷺ أن يعتكف فى حراء من كل سنة شهرا يتعبد فيه لله ، مفكرا ، ومتأملا فى الكون من حوله يعيش فى أفق الخالقية ، ناظرا إلى السماء خاشعا متبتلا ، يطعم من يأتى إليه من المساكين ، فإذا قضى هذه المدة انصرف إلى الكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى إذا كان ﷺ الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه الله تعالى فيها ... جاءه جبريل عليه السلام ، وقص رسول الله ﷺ ما حدث فيقول[3] :

جاءنى جبريل وأنا نائم ... ومعه نمط من ديباج فيه كتاب فقال : إقرأ ، قال : قلت : ما

١- آل عمران : ٨١ .

٢- ابن هشام : ٢٥٢/١ .

أقرأ[١] . قال : فغتنى[٢] به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أقرأ ، قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قال : قلت ماذا أقرأ ؟ قال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قال فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا إفتداء منه أن يعود لى بمثل ماصنع بى فقال :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » قال : فقرأتها ، ثم انتهى فانصرف عنى ، وهببْت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا ، قال : فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل قال : فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل قال : فوقفت انظر إليه فما اتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه ، فى آفاق السماء ، قال فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فمازلت واقفا ما أتقدم أمامى ، وما أرجع ورائى ... ثم انصرف عنى ، وانصرفت راجعا إلى أهلى حتى أتيت خديجة فقالت : يا أبا القاسم : أين كنت ؟ ... ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت : ابشر يا ابن عم ، وأثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، ابن عمها ، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع فقال ورقة بن نوفل : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتينى ياخديجة لقد جاءه الناموس[٣] الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه

١- وفى رواية « ما أنا بقارئ » أى لست ممن يقرءون لأننى لا أعرف القراءة .

٢- قال أبو ذر : « يقال غتنى وغطنى بالتاء والطاء ، ومعناها : شدنى » وقال ابن الأثير : « الغت والغط سواء ، كأنه أراد عصرنى عصرا شديدا حتى وجدت منه المشقة كما يجد من يغمس فى الماء قهرا » راجع هامش ٢ من ابن هشام ص ١ ص ٢٥٥ .

٣- أصل الناموس : هو صاحب سر الرجل فى خيره وشره ، فعبر عن الملك الذى جاءه بالوحى بذلك .

الأمة فقولى له : فليثبت فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ .

فأخبرته بقول ورقة بن نوفل ، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال :

يا ابن أخى :

أخبرنى بما رأيت وسمعت فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال له ورقة :

والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه[1] ، ولتأتينه ، ولتخرجنه ، ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرَنَّ الله نصرا يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه[2] ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله[3] .

وفى البخارى[4] : أنه ﷺ لما قال السيدة خديجة لقد خشيت على نفسى فقالت : كلا والله ما يخزيك الله أبدا :

إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

من هنا كان بدء الوحى على رسول الله ﷺ ، ثم أيده الله بكثير من آيات القرآن تأكيداً له أنه نبى وأنه موحى إليه منها قوله تعالى :

« إنا أوحينا إليك » الآية ، ولما كان الوحى يستعمل فى الإلهام ، وغيره مما يكون إلى غير النبى أيضا كما فى قوله تعالى :

« وأوحى ربك إلى النحل ... » الآية ، « وأوحينا إلى أم موسى .. » فلا يدل على ثبوت النبوة ذكر آية تدل على أن الإيحاء إليه ﷺ كان إيحاء نبوة لقوله تعالـى :

١- بالبناء للمجهول والهاء للسكت .

٢- اليافوخ : وسط الرأس .

٣- ابن هشام : ٢٥٦/١ .

٤- صحيح البخارى : باب بدء الوحى : ٢/١ .

« إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين .. » الآية من سورة النساء : ١٦٣ .

فثبت أنه قد أوحى إليه ﷺ إيحاء نبوة بواسطة ..الملك .

والحاصل : أن الوحى إليه ﷺ هو بدء أمر الدين ، ومدار النبوة والرسالة ، لدعوة الناس إلى الله وإلى رسوله [1] .

السيدة خديجة تتأكد من صدق الملك :

أخرج ابن اسحاق بسنده : أن السيدة خديجة رضى الله عنها قالت لرسول الله ﷺ : أى ابن عم : أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال : «نعم » ، قالت فإذا جاءك فأخبرنى به ، فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع فقال رسول الله ﷺ :

لخديجة : « ياخديجة هذا جبريل قد جاءنى » قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى قال فقام رسول الله ﷺ ، فجلس عليها ، قالت : هل تراه ؟ قال : « نعم » قالت : فتحول فاجلس على فخذى اليمنى ، قالت : فتحول رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليمنى فقالت : هل تراه ؟ قال : « نعم » قالت : فتحول فاجلس فى حجرى قالت : فتحول رسول الله ﷺ فجلس فى حجرها ، قالت : هل تراه ؟ قال : « نعم » قال : فتحسرت [2] ، وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس فى حجرها ، ثم قالت له هل تراه ؟ قال : « لا » .

قالت : يا ابن عم اثبت وأبشر ; فو الله إنه لملك وما هذا بشيطان [3] .

١- انظر حاشية السندى على صحيح البخارى للقسطلانى ٢/١ .

٢- أى ألقت خمارها ، كما يقال تحسر الرجل إذا ألقى عمامته عن رأسه ، انظر حاشية ١ من سيرة ابن هشام : ٢٥٨/١ .

٣- ابن هشام : ٢٥٧/١ .

إعداد الرسول ﷺ واصطفاؤه :

انتهت مرحلة الاصطفاء بالرؤيا ، واختار الله محمداً ﷺ رسولا نبيا للعالمين جميعاً ... ونزل الوحى عيانا ... وصدقه المترقبون له ، لقد صدقت به بادئ ذى بدء السيدة خديجة رضى الله عنها ، وآمن به من بعدها ورقة ...

إن البعثة المحمدية لم تكن على غفلة من الزمن والأحداث ، وأنه لا يتأتى مطلقا أن يقرر القرآن (... ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد[1] .. » .

« وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا[2] ... » .

« يعرفونه كما يعرفون أبناءهم[3] ... » . بل كان هناك استعداد من الملأ الأعلى لها لقد هيأ الله عز شأنه لهذه الرسالة الزمان و المكان ، واصطفى لها محمد بن عبد الله ﷺ كان العالم يتطلع إلى نبى ..

وأمة تتطلع إلى نبى ، ومدينة تتطلع إلى نبى ، وقبيلة ، وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لانجاب ذلك النبى .

ثم ها هو ذا بشر لا يشركه بشر آخر فى صفاته ومقدماته ولايدانيه رجل آخر فى مناقبه الفضلى ، التى هيّأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة فى المدينة .. وفى الجزيرة ، وفى العالم بأسره .

نبيل عريق النسب ... يتيم بين رحماء .. فليس هو بالمدلل الذى يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة والاستقلال ...

إنه خلاصة الكفاية العربية فى خير ماتكون عليه الكفاية العربية .. وهو على صلة

١- الصف : ٦ .

٢- البقرة : ٨٩ .

٣- البقرة : ١٤٦ .

بالدنيا التى أحاطت بقومه .. فلا هو يجهلها فيغفل عنها ، ولا هو يغامسها كل المغامسة فيغرق فى لجتها .

أصلح بشر من أصلح بيت فى أ صلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة .. ذلكم هو محمد بن عبد الله ﷺ(١) .

قد ظهر و المدينة مهيأة لظهوره ؛ لأنها محتاجة إليه ، والجزيرة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه ، والدنيا مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه ، وماذا من علامة الرسالة أصدق من هذه العلامة ؟ وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير ؟ ...

علامات الرسالة الصادقة هى عقيدة تحتاج إليها الأمة ، وهى أسباب تتمهد لظهورها .. فإذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها ؟

لقد خلق محمد ﷺ ليكون بشرا رسولا ، مبشرا بدين ، وإلا فلأى شئ خلق ؟ ولأى عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات ، والتوفيقات ، وكل هاتيك المناقب والصفات ؟ ...

لقد أعد الله رسوله على عينه ، وأعد له فطرته ليكون حاملا لأعظم رسالة عالمية وما من أحد قد أعد فى هذه الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد ﷺ قد أعد لها أكمل إعداد(٢) ..

يقول الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى :

« والنبوة هبة الله لا تنال بالكسب لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعد لها والقادر على حملها : « الله أعلم حيث يجعل رسالته »(٣) ومحمد ﷺ أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمع : أحمره وأسوده ، إنسه وجنه ، وأعد لأن يحمل رسالة أكمل دين ،

١- انظر عبقرية محمد ﷺ للأستاذ عباس محمود العقاد : ١٧ ، ١٨ .

٢- المرجع نفسه .

٣- الأنعام : ١٢٤ .

لأن يختم به الأنبياء والرسل ، وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء ، وتتكدر النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات[1] » .

منهج الدعوة الإسلامية فى مكة :

ثبت نزول الوحى بالنبوة بأول آية وهى « اقرأ » وهذا إعلان واضح للإصطفاء ورجف فؤاده صلى الله عليه وسلم بها غبطة ، فقد تم اللقاء والإقبال ، وارتاحت سريرته لهذا الاصطفاء ، وتأهب لهذا العمل الجليل ، وهو به جد سعيد ، لقد فتر الوحى بعد بدء إعلان النبوة ليتشوق النبى الكريم إلى لقائه بعد أن تستقر غبطته باصطفائه ، وذلك تقدير الله لحياة نبيه ، ثم تتابع الوحى ونزلت مواصفات العمل النبوى[2] فى آيات كريمة منها :

« يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر ولاتمنن تستكثر ... »[3]

فأوجز الله فيها تزكية لحاله ، وأساسا لدعوته ، « وثيابك فطهر » استمر على ما أعددناك به ، من الكمال النفسى الفذ الذى هيأناك به للرسالة ، وللتلقى من الملأ الأعلى ، « والرجز فاهجر » استمر على ما أودعناك من السلوك السامى الذى درجت عليه من الصغر ، وشرحنا لك به صدرك ، وتحرز من دنس هذا الرجز الذى يجر إلى الهلاك .

« ولا تمنن تستكثر » بلغ دين الله دون النظر إلى متاع دنيوى ، فقد وجدناك عائلا فأغنيناك .

« ولربك فاصبر » أساس تبليغ دعوتك هو الصبر على أذى البشر إرضاء لوجه الله ، فهل كان ذلك تبليغ مستندا على أسس وقواعد ؟ أوكان مستندا فقط على العون الإلهى

١- راجع : حياة محمد ﷺ الدكتور محمد حسين هيكل .المقدمة .
٢- المواهب اللدنية : ٢٢١/١ .
٣- المدثر : ١-٦ .

بالمعجزات ؟ نعم إن كل حركة فى الوجود حتى طرفت العين وخلجة النفس تسيرها إرادة الله جل شأنه ، ولكن هل كانت الدعوة الإسلامية فى مكة تعمل دون منهج ؟ لقد كانت الدوعة الإسلامية فى فجرها ، تعمل فى داخل مجتمع بشرى له تقاليده وعاداته وأنظمته وتفكيره ، فهل واجهت الدعوة الإسلامية هذا المجتمع بقوة المعجزات التى تقهر العقل فقط ؟ كلا ،

لقد سبقت الدعوة الإسلامية جميع نظريات الإصلاح الاجتماعى فى العصر الحديث بما وضعته من مناهج لبناء مجتمع الدعوة الإسلامية ، فقد استخدمت :

١- مناهج لإثبات الوحدانية ، والعمل مع الجماعة .

٢- طريقة التبليغ ومراحله .

ومعنى هذا : أن النبى ﷺ لم ينقل دعوة الله ، ولم يبلغها للناس جزافا ، ولا اتكالا على عصمته ، وتأييد الله له ، فذلك فهم العجزة وهمة القعيد المتواكل ولكنه ﷺ نقلها بالأسلوب الفطن الواعى الذى رسم للعمل الإصلاحى فى مستقبل الإنسانية كلها ، قواعد العمل البناء الذى يحترم ظروف جميع الناس ، ويداوى بالتؤدة والمودة ، لا بالقسوة والثورة والجبروت ، ويود استجابة من صميم القلب لتنساب جوارح الناس استسلاما فى تنفيذ أوامر الله وتلك هى مستويات العمل الفاضل لبناء المجتمع الفاضل ، وذلك ما حققته الدعوة المكية فى دورها المبارك[1] .

والمتدبر فى النداء فى أول سورة المدثر ، وسورة المزمل يرى عظمة المنادى ﷺ إنه النداء العلوى الجليل ، للأمر العظيم الثقيل ، نذارة هذه البشرية ، وإيقاظها ، وتخليصها من الشر فى الدنيا ، ومن النار فى الآخرة ، وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان .

١- راجع للدكتور رءوف شلبى :الدوة الاسلامية فى عهدها المكى : مناهجها وغاياتها : ص ٤٣ ، ٤٤ .

وهو واجب ثقيل شاق ، حين يناط بفرد من البشر - مهما يكن نبيا رسولا - فالبشرية من الضلال والعصيان ، والتمرد ، والعتو ، والعناد ، والإصرار ، والالتواء ، والتقصى من هذا الأمر ، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام فى هذا الوجود ،

« يا أيها المدثر قم فانذر » والإنذار هو : أظهر ما فى الرسالة فهو تنبيه للخطر القريب الذى يترصد الغافلين السادرين فى الضلال وهم لا يشعرون ، وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد ، وهم لا ينقصون فى ملكه شيئا حين يضلون ، ولا يزيدون فى ملكه شيئا حين يهتدون ، غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم فى الأخرة ، ومن الشر الموبق فى الدنيا . وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ، ويدخلهم جنته من فضله !

ثم يوجه الله رسوله فى خاصة نفسه بعد إذ كلفه نذارة غيره :

يوجهه إلى تكبير ربه : « وربك فكبر » .. ربك وحده .. فهو وحده الكبير ، الذى يستحق التكبير ، وهو توجيه يقرر جانبا من التصور الإيمانى لمعنى الألوهية ، ومعنى التوحيد ، إن كل أحد ، وكل شئ ، وكل قيمة ، وكل حقيقة .. صغيرة .. والله وحده هو الكبير .. وتتوارى الأجرام ، والأحجام ، والقوى والقيم والأحداث والأحوال ، والمعانى والأشكال ، وتنمحى بجانب الجلال والكمال لله الواحد الكبير المتعال . وهو توجيه للرسول - ﷺ - ليواجه نذارة البشرية ، ومتاعبها وأهوالها وأثقالها ، بهذا الفهم وهذه العقيدة ، فيستصغر كل كيد ، وكل قوة ، وكل عقبة ، وهو يستشعر أن ربه الذى دعاه ليقوم بهذه النذارة ، هو الكبير .. ، ومشاق الدعوة وأهوالها فى حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور ، وهذا الشعور ، وهذا الفهم ، ويوجهه إلى التطهر :

« وثيابك فطهر » : وطهارة الثياب كناية فى الاستعمال العربى عن طهارة القلب والخلق والعمل .. طهارة الذات التى تحتويها الثياب ... والطهارة هى الحالة المناسبة للتلقى من

الملأ الأعلى ... ومزاولة الدعوة فى وسط التيارات والأهواء والمداخل والدروب ، وما يصاحب هذا ويلابسه من أدران ، ومقاذر وخلاط وشوائب ، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة ، كى يستطيع انقاذ الملوثين دون أن يتلوث .. وهى لفتة دقيقة عميقة إلى ملابسات الرسالة والدعوة ، والقيام على هذا الأمر بين شتى الأوساط ، والبيئات ، والظروف ، والقلوب !

وأيضا يوجهه رب العالمين إلى هجر الشرك ، وموجبات العذاب « والرجز فاهجر » .
ومع أن الرسول ﷺ كان هاجرا للشرك ولموجبات العذاب ، حتى قبل النبو ة .. إلا أن هذا التوجيه يعنى المفاصلة ، وإعلان التميز الذى لا صلح فيه ولا هوادة ... كما يعنى التحرز من دنس هذا الرجز ، والبعد عن مس هذا الدنس !

ثم هو يرشده إلى انكار ما يقدمه فى سبيل الدعوة ،أو استكثاره واستعظامه : « ولا تمنن تستكثر » ..

وفى هذا لمحة من الله لرسوله ألا يستعظم أو يستكثر ما يقدمه ويمتن به .. وهذه الدعوة لا تستقيم فى نفس تحس بما تبذل فيها . فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه ... مع الشعور بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطاياه .
فهو فضل يمنحها إياه ، وعطاء يختارها له ، ويوفقها لنيله ، وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكرلله .. لا المن والاستكثار[1] ، وهذا أمر يخص كل داعية ، وكل متحدث باسم الاسلام إلى قيام الساعة .

وأخيرا يوجهه إلى الصبر لربه « ولربك فاصبر » وهى الوصية التى تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة ، والصبر هو الزاد الأصيل فى هذه المعركة الشاقة المستمرة مادامت السماوت والأرض ، معركة الدعوة إلى الله ، فهى معركة مزدوجة مع شبهات النفوس ،

١- تفسير الظلال سورة المدثر .

وأهواء القلوب ، ومع أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات وتدفعهم شياطين الأهواء ! وهى معركة - لا ريب - طويلة عنيفة لازاد لها إلا الصبر الذى يقصد فيه وجه الله ، ويتجه به إليه احتسابا عنده وحده[1] .

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقو الله لعلكم تفلحون[2] » .

فهم العرب للعبادة :

ساد فى أهل الجزيرة قبل الإسلام نوع من العبادة الدينية شابها الانحراف عن الحق ففيها :

أ- من يعرف التوحيد المتمثل فى تعدد الآلهة ، واتخاذ البنوة لله سبحانه لا شريك له . وهذا الأمر يشمل الديانة اليهودية على قلة نفوذها ، وضعف تأثيرها . والديانة المسيحية على تعقدها وغموضها ، وقلة خطرها وضعف جاذبيتها [3].

ب- ثم الوثنية بأصنامها ، ووثنها ، ونصبها ، وهى العقيدة العامة الشاملة للشعب داخل الجزيرة .. وهذا الجو فيه إيمان بالله غير أنه إيمان غير دقيق بل دخله فهم خاطئ عن الألوهية ، وإيمان منحرف فى مقصده نحو عبادة الله .

حـ- من ينكر وجود الله وهم الملاحدة الذين يقولون :

« إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » ، ومع أنهم قلة إلا أن مقالتهم انتشرت حتى أصبح لها اليوم مجتمعات تؤثر فى مصير البشرية ، لكنهم فى البداية كما يقول صاحب الشفاء : إنهم لم يكونوا منكرين للخالق ، وعبادته .. ، ولا يلزم من قول بعضهم حيث قالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر » .

١- المرجع نفسه .

٢- آل عمران : ٢٠٠ .

٣- د / على ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامى العام ص١٥٧ ، والعقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومة ص ٥٢ ، ٥٣ .

إن الدهر خالقهم إذ لم يقل به أحد منهم ، بل أرادوا به : أن طول الزمان ، ودورة الدوران يقتضى أن يحيا بعضنا ويموت بعضنا فنسبوا بعض الأفعال إلى الدهر .

جاءت الدعوة إذن والجزيرة .. تعج بمعتقدات منحرفة ضل أصحابها الطريق ، وانحرفوا عن الفطرة ، فقدمت الدعوة .. لهؤلاء منهجا قويما ليصلوا إلى الحق عن طريق التوحيد الخالص ، ولينزهوا الله جل شأنه عن كل ما سواه مما يشركونه مع جلاله سبحانه وتعالى ، وهذا المنهج صالح لبنى البشر(١) ..

لأن القرآن دستور الدعوة .. وقائدها يبنى الانسان من جميع نواحيه النفسية ، والعقلية والخلقية ، فهو يخاطبه بكل ما يؤسس فيه عوامل الخير :

يخاطبه نفسيا ووجدانيا ..

ويخاطبه عقليا وذهنيا ..

ويخاطبه عاطفيا إن بالترغيب ، أو بالتهديد(٢) ...

وصدق الله العظيم إذ يقول :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين »(٣) .

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه »(٤) .

ولما كانت فطرة العرب مستعدة لتقبل الإصلاح ، والاستقامة ، وأن هذه التماثيل ما هى إلا موصلة إلى شئ أكبر فى تصورهم كما قال الشيخ محمد الخضرى :

« كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لا لاعتقاد أنها آلهة ، وإنما لتقربهم إلى الله سبحانه »(٥) .

١- الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى ص ٤٥ ، وسيأتى بيان عن طائفة الدهرية ص ٢١١ هامش ٣ ، ٤ من هذا البحث .

٢- المرجع السابق .

٣- الاسراء : ٩ .

٤- ق : ١٦ .

٥- محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية : ١/٥٥ ط ثانية .

وجاء فى شرح الشفاء :

« والعرب على جاهليتها ، أى على حالتها التى كانت عليها قبل ظهور النبوة من الجهل بأمور الشريعة وأحوال الديانة ، أكثرها يعترف بالصانع ، بل جميعها كما هو ظاهر قوله تعالى :

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن الله » وإذا جاء النبى ﷺ بكلمة التوحيد ، وهو أن يقولوا : لا إله إلا الله »[1]

وإذن فالوثنية كانت تغطى وجه الإيمان المتدفق بين جوانحهم ، ومن ثم ألقى عليهم رب العالمين عدة أسئلة ، وإجابتهم عليها التى لا يستطيعون الفكاك منها :

يقول عز شأنه :

« قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أمن يملك السمع والأبصار ومن يُخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله . فقل : أفلا تتقون ؟ »[2] .

ويقول العزيز الحكيم :

« قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله .

قل : أفلا تذكرون ؟ قل : من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقون : لله . قل : أفلا تتقون ؟ .

قل من بيده ملكوتُ كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ .

سيقولون : لله . قل : فأنى تسحرون ؟ »[3] ويقول تبارك وتعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ؟ ليقولُن الله ؟ فأنى يؤفكون »[4]

١- شرح على القارئ على الشفاء : ٢٩٩/٣ .
٢- يونس : ٣١ .
٣- المؤمنون : ٨٤ - ٨٩ .
٤- العنكبوت : ٦١ .

« ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ؟ ليقولُن الله . قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون »(1) .

ويقول جل جلاله :

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن الله . قل : الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون »(2) .

ويقول سبحانه : « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .. »(3) .

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ؟ .

ليقولُن : الله ، قل أفرأيتم ما تدعُون من دُون الله إن أرَادنىَ الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادنى برحمة هل هن ممسكاتُ رحمته ؟ قلَ حسبىَ الله عليه يتوكل المتوكلون .. »(4) .

هذه الآيات الكريمة توضح عقيدة العرب قبل الإسلام ، وتخبر بأن العرب كان لديهم أصل من التوحيد لكن شابه شئ من الانحراف والضلال . ولا غرو فالعرب من أبناء اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقد كانوا فعلا يزعمون أنهم على دين إبراهيم ، وكانوا يعتزون بعقيدتهم على هذا الأساس من النسب ، ولم يكونوا يحفلون كثيرا بديانة مسيحية أو يهودية ، مما كان لهاوجود ما فى الجزيرة العربية اعتزازا منهم بأنهم على دين إبراهيم ، ولو أنهم كانوا غير منتبهين إلى ما صارت إليه عقيدتهم من التناقض فقد اندفعوا فى تيار العبادة عاطفيا وجرتهم التقاليد والعادات إلى هذا اللون من العبادة ، ولكنهم إذا سئلوا عن خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر ، ومنزل الماء من السحاب ومحى الأرض بعد موتها يقولون : الله ، هو صانع كل هذا ولكنهم ينحرفون فى

1- العنكبوت : 63 .

2- لقمان : 25 .

3- الزمر : 3 .

4- الزمر : 38 .

الطريق إليه فيعبدون الأصنام والكواكب والملائكة و يجعلونها شركاءً لله فى العبادة وإن لم يجعلوها شركاء له فى الخلق وذلك هو التناقض الذى شاء هذا المنهج أن يفضحه ، وحاول أن يطهر النفوس منه لأنه ضعف وانحراف عن السبيل السواء[1] .

قال ابن كثير :

« يحتج على المشركين باعترافهم بوحدانيته ، وربوبيته على وحدانية إلهية »[2] .

يقول الدكتور سامى النشار : وهو يصور تلك المرحلة :

« ولكن كان وراء كل هذا غريزة باطنية فى أولاد اسماعيل وتشوف نحو شئ فى اللامحدود ، فيما وراء الوجود .

وجاءتهم المسيحية من الشمال ، ومن الجنوب ومشيخة العرب من أولاد اسماعيل يهزون رؤسهم ولا يبدون حراكا .

وأسرعت اليهودية إليهم وهى تحمل التوراة المنحرفة فأنكروها ووقفوا ينظرون إليها بازدراء ، بل ولُّوا ظهورهم متخذين الوحدانية ديناً لهم ولكن مشيخة العرب نأوا فى فردوسهم العجيب وفى لياليهم الصافية فى قلب الصحراء عن كل هذا ..

كان يكفيهم أن يعبدوا الأصنام زلفى إلى الله ...

كانوا يتشوقون إلى صوت النبى الأخير رسول من أنفسهم من ولد اسماعيل يتلو عليهم آياته ويزكيهم »[3] .

وإذن فدعوة محمد ﷺ إلى توحيد الله ليست بدعا من الأمر فهى تطهير للفكرة التى آمنوا بها ، وإزالة للأوشاب والشوائب التى رانت عليها ، وتنزيه لله جل جلاله عما اخترعوه لأنفسهم من نظام تعبدى لا يتفق مع جلال الله وعظمته[4].

١- راجع الظلال سورة الزمر فى هذه الآية ، والدعوة الاسلامية فى عهدها المكى ص ٥١

٢- تفسير بن كثير : ٤١٦/٢

٣- نشأت الفكر الفلسفى فى الاسلام : ١/ ١ ، ٢٠ .

٤- انظر الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى : ٥٢ .

غياب التوحيد الحق لدى الشعوب :

تختلف دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام عن أى دعوة أخرى من دعوات البشر المنْبَتّة عن هداية الله ، ولذلك كان شيئا عاديا تماما أن تكون آثارها وثمارها تختلف عن غيرها فإذا كان ثمار الدعوات الأخرى الإغراق فى الشهوات والملذات الحيوانية ، فإن من ثمار دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ضبط النفس إلا عن المتع المعقولة .

وإذا كان من ثمار الدعوات الأخرى عد التقيد بالحق والخير والمعروف ، فإنه شئ عادى أن يكون من ثمرات دعوة الرسل الإلتزام بهذا ، وإذا كانت دعوات غير الرسل تعتبر الجمال مقدم على الأخلاق ، فشئ عادى أن يكون من ثمرات دعوة الرسل اعتبار الجمال فى الأخلاق الكريمة العالية .

والهدف مما سبق : أن الفطرة تحس بالخير والشر ، وأن فطرة الإنسان تستشعر الثمرة الطيبة للدعوة الطيبة ، كما يستشعر ذوق الإنسان حلاوة الثمرة الطيبة ، أن فطرة الإنسان تستشعر الثمرة الخبيثة للدعوة الخبيثة ، كما يستشعر ذوق الانسان مرارة الثمرة الرديئة .

ولذلك كان عند الفطرة نوع بصيرة تستيطع بها أن تميز ثمرات الرسول الحق من ثمرات مدعى النبوة الكاذب ، وأن ترى فى آثار كل مايدل على صدق الأول وادعاء الثانى . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى .

فقال الله تعالى :

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا(١) » .

وجاء على لسان المسيح عليه السلام :

« احذروا من الأنبياء الكذبة الذين يؤتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنبا ، أو من الحسك تينا ؟ »(٢) .

١- الأعراف : ٥٨ .

٢- انجيل يوحنا الباب السابع الفقرة : ١٥ .

وفى القرآن يقول الله تعالى :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار .. »[1]

وجاء على لسان المسيح عليه السلام :

« قدم لهم مثلا آخر : يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله وهى أصغر جميع البذور ، ولكن متى نمت فهى أكبر البقول ، وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتى فى أغصانها » .

يعرف النبى من ثماره ، لذلك كان لابد من كتابة هذا الموضوع لتبيان أن ثماردعوة الإسلام لايمكن أن تكون إلا ثمار نبى هو محمد ﷺ ، ورؤية متفحصة فى توحيد الله عز وجل لدى بعض الأمم نستطيع أن نحكم على هذه الثمرة أطيبة هى أم خبيثة .

من هذه الثمرة :

التوحيد : تقول : وَحَّد الله سبحانه أى : أقر وآمن بأنه واحد ، وتوحد الله بربوبيته ، وجلاله وعظمته أى : تفرد بها ، والتوحيد : الإيمان بالله تعالى لا شريك له ، وفى اصطلاح أهل الحقيقة : تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور فى الأفهام ، ويتخيل فى الأذهان[2] .

فهل هذا التعريف كان ينطبق على الشعوب إبان مجئ الدعوة ؟ كلا ، وبالبحث المختصر ظهر لنا ما يلى :

١- الفتح : ٢٩ .

٢- المعجم الوسيط مادة : (وَحَّدَ) . وانظر الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٣١٨ سعيد حوى .

طائفة الاسماعيلية :

فى العالم اليوم حوالى ثلاثة عشر مليونا من طائفة الإسماعيلية التى تعبد رجلا كإله وتقدم له كل عام (١/٥) خمس أموالها ، تجعله فى كفة ميزان ، وتجعل الذهب فى كفة أخرى حتى يتساويا وتقدمه له كهدية سنوية ، ثلاثة عشر مليونا من البشر يستغلهم فرد باسم الألوهية . ليجدوا ويقدموا ، أما هو فيأخذ ويكنز ، وينفق بلا حساب على أشياء كثيرة ، وقد يكون المرشح لهذا المنصب داعرا فاسقا ماجنا ، ينال هذا كله ويصرفه فى كل طريق داعر ، ذلك أثر من آثار الشرك بالله ، أن يستغل فرد من البشر شعبا كاملا من البشر باسم ألوهية الإنسان ، وعبودية الإنسان للإنسان[١] .

وثنية الشعوب :

توجد فى العالم اليوم شعوب وثنية ، وقديما كانت الوثنية منتشرة فى العالم كله ، لم تخل منها أمة من الأمم :

الرومان ، واليونان ، والهند ، والصين ، واليابان ، والعرب ، والشعوب الافريقية من مصر إلى غيرها .. فماذا تعنى هذه الوثنية ؟[١]

وثنية العرب :

(أ) روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به .

(ب) وقال الكلبى : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا وجعل ثلاثا أثافى لقدره ، وإذا ارتحل تركه .

(جـ) وقال صاعد فى كتاب : (طبقات الأمم) : « كانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وتميم : الديران ، ولخم وجذام : المشترى ، وطئ : سهيلا ، وقيس :

١- الرسول ﷺ : ٢/٣١٩

الشعرى العبور ، وأسد : عطارد »[1]

(د) وقال الكلبى : « كان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر ، كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذ قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا »[2] .

(هـ) وكان لكل قبيلة من العرب صنم ، ولكل ناحية ، أو مدينة صنم خاص ، وكان فى فناء الكعبة وحدها ثلاث مائة وستون صنما للعبادة .

وثنية الهند :

يقول أبو الحسن الندوى عن حال الوثنية فى الهند :

« بلغت الوثنية أوجها فى القرن السادس ، فقد كان عدد الآلهة فى (ويد) ثلاثة وثلاثين ، وقد أصبحت فى هذا القرن ٣٣٠ مليونا ، وقد أصبح كل شئ رائعا وكل شئ جذابا ، وكل مرفق من مرافق الحياة إلها يعبد ، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلهيات الحصر وأربت على العد :

فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله - زعموا - فى عهود وحوادث معروفة ، ومنها تجلى عليها بعض آلهتهم ، ومنها معادن كالذهب ، والفضة تجلى فيها إله ، ومنها نهر الكنج الذى خرج من رأس « مهاديو » الإله ، ومنها آلات الحرب ، وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة ، والأجرام الفلكية وغير ذلك ، وأصبحت الديانة نسيجا من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يستسغها العقل السليم فى زمن من الأزمان »[3] .

فى الهند اليوم : (٢٠٠) مليون بقرة هذه الأبقار يعتبرها الهنود مقدسة وبالتالى

١- نقلا عن نفس المرجع .
٢- المرجع نفسه .
٣- نقلا عن المرجع نفسه ص ٣١٩ .

لا يستفيدون منها بتاتا ، ويحرمون ذبحها ، وأكثر من هذا . فإن الشعب الهندى كله مسخر لخدمتها وتعيش على حسابه ، فكم يحتاج هذا العدد من الأبقار إلى مراع وطعام ؟

وكم تعطل طاقات على حساب هذا المعنى وزيادة على ذلك ، فإن لهذا البقر سلطانا على كل شئ تقف البقرة فتوقف وراءها السيارات ، ولا يزعجها أحد حتى تمضى هى فيمضى غيرها . وتبول فى أى مكان ، وتخثى فى أى مكان ، وتعتدى على مال أى إنسان ولا أحد يجرؤ على أن يعترض سبيلها شئ . وفى الهند هذه السنين مجاعة تهدد عشرات الملايين ترى لواستفاد الشعب الهندى من البقر ، ألا تنحل شئ من أزمته ؟ .

إن هذه الصورة من صور الشرك ، جعلت البشر مسخر لخدمة البقر .

فى مصر :

تجد أهرامات ضخمة جدا ، أحجارها ضخمة جدا ، نقلت من أمكنة بعيدة جدا ، نقلها آلاف من أبناء الشعب المصرى إلى منطقة الأهرامات وتعبت فى بناء هذه الإهرامات آلاف الأدمغة ، وآلاف الأيدى من أجل ماذا ؟ من أجل أن يصنعوا قبرا لفرعون الذى كانوا يعبدونه كإله !! فكم انفق من جهد ؟ وكم انفق من أموال ؟ بسبب هذه الصورة من صور الشرك ؟[1]

شعب من البشر مسخر كله لخدمة فرد من البشر !!

(و) قال سعيد بن جبير فى شرح الأزلام : « الأزلام : حصى بيض كانوا إذا أرادو غدوا أو رواحا ، كتبوا فى قدحين : فى أحدهما : أمرنى ربى ، وفى الآخر : نهانى ربى ، ثم يضربون بهما ، فأيهما خرج عملوا به »[2] .

١- نقلا عن المرجع نفسه ص ٣١٨ .

٢- انظر الدين المقارن (المسيحية) للشيخ أحمد عبد المنعم الحلوانى : ص ٢ ص ٦٣ .

وثنية الفرس واليونان :

كانوا يعبدون ملوكهم ، ونيرانهم ، واليبانيون : يعتبرون ملكهم ابن الشمس المعبودة ، واليونانيون يعبدون إله المطر : فلانـا ، وإله الحب فلانة ، وإله الحرب ، فلانا .. وهكـذا ...

فماذا تعنى هذه الوثنيات كلها ؟

تعنى أن الإنسان اعتبر نفسه أقل من الحجر ، وأقل من الشمس ، وأقل من الحيوانات ، وأقل من مظاهر الطبيعة كلها ، بل جعلها فى مقام السيد ، وجعل نفسه فى مقام العبد الذليل ، وجعلها تتحكم به بواسطة ، وبغير واسطة .

وقال النصارى : إن المسيح ابن الله ، وأعطوه حكم الأب ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

فأصبح المسيح – عليه السلام – عندهم إلها ، كما اعتبر الهنود[1] بوذا من قبل إلها ، وهؤلاء وهؤلاء صنعوا التماثيل ، وعبدوها ، فأصبحت ديانة وثنية مشركة من ناحتين : من ناحية عبادة الأصنام ، ومن ناحية عبادة الإنسان ، ونتج عن هذا أن اعتبر النصارى خليفة المسيح الممثل بالبابا له حكم المسيح من حيث طاعة أوامره ونواهيه ، فأصبح التحليل والتحريم ، والتضليل والتحريف الذى عليه طابع الديانة المقدسة الصادر من قبل البابا هو كل شئ . فكانت مآسى وفظائع من حجر على العقل ، وقتل للأنفس ، وسلب للحريات ، ومقاومة لكل حق ما ذكر التاريخ منه الكثير . وألحد ناس قديما ، وألحدوا فى هذا العصر إلا الأقل ، فماذا يعنى هذا الإلحاد ؟ يعنى الإلحاد أن الإنسان عبد الكون كله بدلا من أن يعبد أجزاء منه وخلع على الكون كله صفات الألوهية فالكون يخلق ويرزق ، ويعطى ، ويمنع ، ويحى ويميت ، ويتصرف ويعمل ، ويرتب ويبدع ويكون ، واعتبروا أنفسهم أعظم ما فى هذا الكون ، فعبدوا أنفسهم ، اعتبروا أن الانسان مصدر

١- انظر الدين المقارن (المسيحية) للشيخ أحمد عبد المنعم الحلوانى : ص ٢ ص ٦٣ .

التشريع ، مصدر الحاكمية ، ومصدر الأمر والنهى[1] .

وهو حر أن يفعل وأن يترك وأن يعمل كل شئ فغلبتهم شهواتهم ، وظلموا بعضهم وأصبح كل واحد من هؤلاء يعتبر نفسه إلها ، وأخيرا اعتبرت الفلسفة الشيوعية الشعب كله إله ، يفعل ما يشاء ، لا مراد لحكمه ، وتمثل الشعب بأفراد كآلهة ، فحدث على يدهم من المآسى مالم يحدث على يد غيرهم ، حتى أنه قتل فى زمان ستالين وحده : تسعة عشر مليونا من أبناء الشعوب المسماة بالاتحاد السوفيتى .

فلم يكن الإلحاد إذن إلا صورة جديدة من صور الشرك ، انتقل به الإنسان من الجزئية إلى الكلية ، ومن الشرك الواضح إلى الشرك المقنع ، فأعطى الكون كله صفات الألوهية ، بعد ما كان يعطى أجـزاء منه ، وعبد نفسه ، وتعبد لها بعدما كان يعبد غيـره .[2] لقد ضاع التوحيد الحق من أذهان الشعوب !!

التوحيد فى الإسلام :

لما جاء محمد ﷺ حرص منذ فجر الدعوة على توحيد الله عز وجل ، ودعوة قومه ، ومن حولهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

أخرج ابن سعد[3] .. عن ابن عباس قال لما أنزلت :

« وأنذر عشيرتك الأقربين » صعد رسول الله ﷺ ، على الصفا ، فقال : يا معشر قريش ! فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، فأقبلوا واجتمعوا فقالوا : مالك يامحمد ؟ قال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط ، قال : فإنى نذير لكم بين يَدَىْ عذاب شديد ، يابنى عبد المطلب ، يابنى عبد مناف ، يابنى زهرة - حتى عدد الأفخاذ

١- الرسول ﷺ : ٣٢٠/١ .
٢-المرجع نفسه ص ٣٢١ .
٣- الطبقات : ١٣٣/١ .

من قريش – إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا : « لا إله إلا الله » .

كما حرص ﷺ من يوم بعثته حتى وفاته أن الله واحد لا شريك له عن طريق القرآن معجزة الإسلام الخالدة إلى قيام الساعة ، ومن طريق لفت العقل إلى :

أ– أن الكون كله : قمره ، شمسه ونجومه ، وأرضه وحيواناته من بقر ، وأسد ، وعجل ، ونباته كلها ، وبأحجاره ، ومعادنه ، وكل شئ فيه خلق للإنسان ، فالإنسان سيده ، والإنسان مكرم ومفضل عليه .

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا »[1] .

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض » .[2]

ومن حق الإنسان أن يستفيد من الأرض وخيراتها ، ومن القمر وما فيه ، ومن المريخ وغيره ، كل الكون مسخر للإنسان ، والانسان أكرم ما فيه . هذا ما أخبر به الإسلام ، وأقام عليه الدليل .

« لقد كرمنا بنى آدم »[3] .

ب– وبما أن الله هوخالق الكون والإنسان ، فهو وحده الإله المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، المستحق وحده للعبادة ، والإنسان عبده وحده :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[4] .

فالناس كلهم عباد الله .. رسولهم ونبيهم ، وملكهم وخادمهم ، وكبيرهم وصغيرهـم ، لا يجوز أن يعطوا عبوديتهم لأحد سواه .

١– البقرة : ٢٩ .
٢– لقمان : ٢٠ .
٣– الاسراء : ٧٠ .
٤– الذاريات : ٥٦ .

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا له إلا أنا فاعبدون »[1] .

« ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرســـون »[2] .

« قل إنما بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »[3] .

لا حجر إذن ، ولا قمر ولا بشر ، ولا كون ولا مجلسا نيابيا يحلل ويحرم كما يشاء ، ولا شعب ولا حاكم ولا محكوم ولا البشرية كلها .

كل الكون للإنسان ، والإنسان لله ، مقام الإنسان السيادة على المخلوقات ؛ لأنها مسخرة له ، والعبودية لله وحده : بنقلة احدة نقل محمد ﷺ البشر من أحط الدركات إلى أعلى الدرجات ، و بذلك وجد المسلم ، وهذه أول ثمرة من ثمار محمد ﷺ ، وهى أول ثمرة من ثمار كل نبى ، ولكن الناس انحرفوا ، فضلوا وأضلوا . مكتوب فى التوراة التى بيد القوم الآن :

(لو دعا نبى أو من يدعى الإلهام فى المنام إلى عبادة غير الله يقتل هذا الداعى ، وإن كان ذا معجزة عظيمة)[4] .

وفى سفر الاستثناء : لو ثبت على أحد عبادة غير الله يرجم رجلا كا أوامرأة[5]

١- الأنبياء : ٢٥ .

٢- آل عمران : ٧٩ .

٣- الكهف : ١١٠.

٤- سفر الاستثناء : ١٣

٥- سفر الاستثناء : الباب السابع عشر .

وفى إنجيل يوحنا :

(وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته)[1] .

وفى انجيل مرقص :

فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون ، فلما رأى أجابهم حسنا سأله : أية وصية هى أول الكل فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا :

اسمع يا اسرائيل الرب إلهنا رب واحد) .[2]

وبهذه النظرة الدقيقة إلى الكون والإنسان ، فتح المسلم أقفال الكون بالتجربة والمشاهدة ، يدفعه فى ذلك عقيدة أن الكون كله للإنسان ، وعليه أن يستفيد منه ، ولئن وصلت الحضارة الغربية اليوم إلى القمة فى تسخير الكون ، فذلك بسبب أنها أخذت هذا المعنى عن الحضارة الإسلامية ، ولولا ذلك لما كان فى أوربا حضارة ولا علم ، وإلا فأين يكون ؟ ومتى ؟ ومحاكم التفتيش ، وسيف الكنيسة مسلط على رأس كل من يفكر[3] .

يقول : بريفولت فى كتابه : بناء الانسانية :

« ما من ناحية من نواحى تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير » .

ويقول فى موضع آخر :

« لم تكن العلوم الطبيعية التى يرجع فيها الفضل إلى العرب هى التى أعادت أوروبا إلى الحياة ، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت فى حياة أوروبا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوروبا » .

١- سفر الاستثناء : الباب السابع عشر : ٣ .

٢- سفر الاستثناء : الباب الثانى عشر : ٢٨ .

٣- الرسول ﷺ : ٣٢/٢ .

ولكن للأسف فإن أوروبا أخذت جزءا فقط من هدى محمد ﷺ فى هذا الموضوع ، ولو أخذته كله لأفلحت واهتدت .

إن هذه الثمرة الطيبة من ثمار محمد ﷺ ، التى لا يصلح الإنسان إلا بها ، ولا يأخذ محله الصحيح إلا اذا اعتقدها ، لا يمكن أن تكون على هذا الكمال والتمام فى دعوة محمد ﷺ لولا أنه رسول الله حقا .

أراد الله بدعوته أن ترجع الإنسانية الحائرة المنحرفة إلى الاستقامة[1] والطمأنينـة .

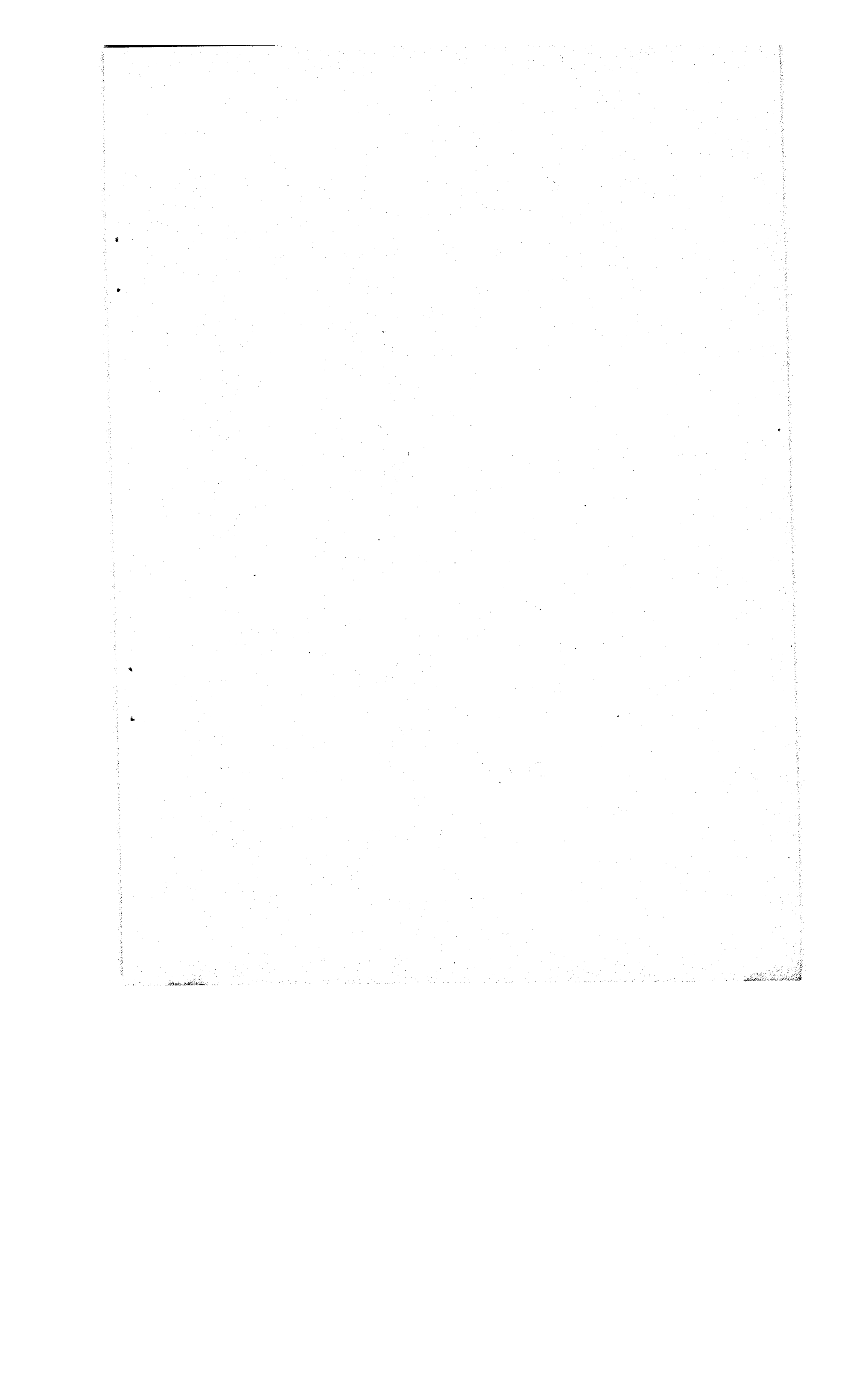
فكيف وصل ﷺ إلى ما وصل إليه ؟

بتربية الله له ، وإعداده على وفق منهج « اقرأ » العظيم ...

١- المرجع نفسه ص ٢ ص ٣٢٣ .

الفصل الخامس

منهج « اقرأ » الذى تربى عليه محمد ﷺ :
تفصيل الله عز وجل لمدارك الانسان –
حكمة « حبب إلى الخلاء » . منهج « اقرأ » نطالع
به علوم الطبيعة ، ومنهج تشهد به طابع الخالقية –
مقومات شخصية محمد ﷺ
ثقافته الكونية – علمه بالقرآن



منهج « اقرأ » الذى تربى عليه ﷺ :

أولا : إعداد محمد ﷺ فى إطار منهج : « اقرأ » باسـم ربك الذى خلـق »

ويتمثل هذا المنهج فيما يلى :-

(أ) تفصيل الله عز وجل لمدارك الإنسان بحيث تستوعب ما أراد للبشر فى الكون من أنواع المعارف وهى :

معارف حسية ، ومعارف رياضية ، ومعارف فكرية .

فالمعارف الحسية : أعد لها فى الإنسان الإدراك الحسى ،

والمعارف الرياضية : أعد لها الإدراك الرياضى ،

والمعارف الفكرية : أعد لها الإدراك الفكرى ...

فالعين مثلا من عوامل الإدراك الحسى من شأنها أن تبصر الأشياء المحسة فتنقل صورها إلى المخ على حسب قوانين الإبصار ، فيستقبلها المخ ، ويدركها وتظل مطبوعة به إلى ما شاء الله ... والإنسان يدرك أن العقل احتفظ بتلك الصور واختزنها .. فإذا طلبت إليه أن يعيد إليك شيئا منها أعاده وصوّره لك كأنما تشاهده مجسما ، فإذا ذهبت تبحث عن تلك الخزانة فى حيز تلك الخلايا العجيبة لا تجد شيئا ، فأين ذهبت تلك الخزانة ، وكيف كانت تلك الصور مختزنة فى تلافيف العقل ؟

إن المدقق فى خلق العقل يرى أنه عالم وحده حافل بما لا يحصيه إلا الله من صور الخلائق على اختلاف أجناسها وأنواعها ، ولك أن تطلق عليه :

عالم الصور والأوصاف ، أو عالم المثال لذهنى ؛ لأن المثال فى اللغة هو : الوصف والصورة . والموهبة الرياضة : عملها ، أن تبصر العلاقات الرياضية القائمة بين الأشياء وبعض فى الخارج فتنقل صورها إلى العقل ، ومعلوم أنه ليس ثمت أشياء حسية فى الخارج اسمها : « العلاقات الرياضية » ؛ لأنها أمور نظرية ، وقوى قائمة فى نسب وقوانين وخواص للأرقام تلحظ بعين العقل ، ولا تدرك بحاسة من الحواس ، وحين لحظ «

نيوتن » العلاقة بين التفاحة و سقوطها على الأرض لم يلحظ أمر حسيا ، إنما لحظ قانونا رياضيا هو الذى تفرعت منه قوانين الجاذبية المعروفة ، ولم يكن سقوط التفاحة إلا الإ شارة التى نبهت « نيُوتن » إلى ذلك القانون الموجود أصلا فى الكون ، والذى أدى اكتشافه على يد « نيوتن » إلى خدمة كبيرة للبشرية ..[1]

كذلك فإن إطلاق قذيفة ، أو صاروخ ، أو قمير صناعى يدور حول الأرض أو حول بعض كواكب المجموعة الشمسية يستلزم منا الإلمام بقوانين الحركة والجاذبية والزمن وغير ذلك من النواميس الكونية – التى يدركها العقل بالعلم –

كما أن عمليات إرسال الموجات ، واستقبالها على أجهزة خاصة تحتاج إلى تفهم لطبيعة هذه الموجات الأزلية ، حتى يمكن التحكم فيها وتسخيرها لخدمة البشرية ، ولكى تتقدم العلوم الزراعية ، والطبية ، والبيولوجية ، وما شابه ذلك لابد من معرفة الأسس التى قامت عليها حياة الكائنات ، ولكى نستنبط سلالات جديدة وممتازة من النبات والحيوان ، فإن ذلك يستلزم منا الإلمام بمبادئ وقوانين علم الوراثة التى تورث الكائنات صفاتها الحسنة والسيئة فنختار الحسن ونهمل السئ إلى آخر هذه الأمور التى لا نحصيها عدا ولا حصرا[2] ، والتى تخضع لعقل الإنسان الرياضى .

إن قوانين الرياضة قوانين أزلية ثابتة لا شك فيها قدرها الله تعالى ، وسوى عليها النظام الطبيعى بأسره ، بكافة كائناته وظواهره وعلاقاته فى أقطار سمائه وآفاق أرضه ، فما من كبيرة منه ولا صغيرة إلا وقد فصل على نظام خاص مقدر علي قانون رياضى دقيق « وكل شئ عنده بمقدار »[3]

الموهبة الرياضية : من خصيتها أنها لا تبصر كما تبصر العين للكائنات ، إنما

١– انظر للأستاذ البهى البخولى : مذكرة فى مادة الدعوة ص ٢ التى قررت على طلبة الدعوة بكلية أصول الدين القاهرة : ١٩٧١ .

٢– راجع للدكتور عبد المحسن صالح : من كل شئ موزون ص ١٣ . مكتبات عكاظ . جدة .

٣– الرعد : ٨ .

تبصر التنظيم الرياضي الذى يحكم العلاقات والقوى القائمة بين هذه الكائنات وكلما أبصرت أحد هذه التنظيمات ، وميزت نسبته ووقائعه ، ودقائقه الرياضية فقد وصلت بذلك إلى كشف جديد لقانون جديد من قوانين الطبيعة ...

وهذه هي الصورة الرياضية ، لإحدى العلاقات القائمة بين الأشياء تنقل إلى الذهن فيدركها ، ويختزنها ، كما أدرك ، واختزن صور المدركات الحسية ..

والدليل أن الإنسان يستطيع أن يستعيد منها فى خلوته ما يشاء ، ومن ثم فإن الموهبة الرياضية تبصر العلاقات بين الكائنات فتنقل صورها إلى العقل ، وعلى هذا فعقل الإنسان عالم حافل بصور من العلاقات الرياضية تكاد لا تحصر ابتداء من العلاقة الماثلة فى مفهوم ١ + ١ = ٢ إلى آخر ما أدرك من قوانين النسبية[1] فى طريق عريض يشمل كل ما يحدث إلى العلاقات الرياضية ... وبمعرفة الإنسان الرياضة وقوانينها ، صار فى إمكانه أن يزيد عليها ، وقد بلغ من تصرفه أن يركب من الخطوط أشكالا هندسية تجمع بين عناصر الحس وقوانين الرياضة .. بل إنه يطور هذه الأشكال الهندسية إلى أبنية وآلات ، وأعمال دقيقة لها خطرها وأثرها فى عالم الواقع وتنظيم شأن الإنسان وهذه الموهبة داخلة فيما عناه الحق جل شأنه فى قوله :

«علّم الإنسان مالم يعلم»[2] .

وقوله : « وَعَلّم آدم الأسْماءَ كُلّهَا ثُم عَرضَهُم عَلى الملائِكةِ فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين[3] » .

١- النسبية : (مبدأ النسبية) : القول بتكافؤ صيغ القوانين الفيزيقية كيفما اختلفت حركات الراصدين لها ، أو كيفما اختلفت حركات المراجع التى تسند تلك القوانين لها ، و(نظرية النسبية) النظرية التى يتوصل فيها على أساس مبدأ النسبية إلى معرفة ما تفضى إليه من نتائج . المعجم الوسيط : مادة : نسب .

٢- العلق : ٥ .

٣- البقرة ٣١ .

الموهبة الفكرية : ليس من شأن هذه الموهبة أن تبصر مادة الأشياء ، ولا علاقتها الرياضية ، بل تبصر دلالة الأشياء على صانعها ، فإن كل صنعة تنم عما لصانعها من صفات ، وكلما أمعنا فى دراسة أثر لصانع ما وتبين حظه من الإبداع ، زاد وضوح صفات ذلك الصانع لنا ، والكائنات صنع الله عز وجل فهى آثار تشير إلى صفاته سبحانه إذ قدرها وخلقها على ما أراد ، ونظمها فى هدى حكمته الذى يحقق الغاية من خلقها ، فإذا صرفنا اهتمامنا إليها من خلال قانون السببية الذى يربط السبب بالمسبب بدت لنا الكائنات كتابا مشرق الصفحات رائع الدلالة على صفات الصانع عز وجل فندرك ما شاء الله :

ندرك طابع الجلال فى روعة البحار ، ...

وضخامة الجبال ، ...

وعظمة أجرام السماوات ، واتساع ما بين السماء والأرض من أقطار رائعة مهيبة ، نبصر كل هذا فندرك صفات الجليل القوى ، المهيمن القادر ، الكبير ، العزيز الجبار ، القاهر ، ونحوها .

كما نشهد لطائف الإنعام فيما أسبغ من نعم ظاهرة وباطنة ، فنشهد صفات المحسن المنعم ، المتفضل الودود .. الكريم .. البر .. السلام .. الجميل .. الرحيم .. الرءوف .. ونحوها .

وأيضا نشهد الأحكام ، ولوائح النظام فى دقة التوقيت للأيام والفصول ومواسم الزرع والحصاد وغيرها ، وفى تصريف الأقدار على منطق الأسباب والمسببات ، وترتيب النتائج على المقدمات ونحوها ..

كما نشهد معالم العناية والحكمة فى خلق كل كائن لعمل ما ، أو وظيفة ، وفى ارتباط كل وظيف بمصلحة .. وفى التعاون المعجز الذى قد يجمع أطرافا من السنن ، أو

من الخلايا ، أو من الأجهزة على غير وعى منها فى تناسق محكم لتحقيق غايات هى عين السداد والمصلحة .

ونشاهد نسب خلق هذه الكائنات إلى واهب الوجود فى عجزها عن أن توجد نفسها ، فتولى هو سبحانه إيجادها من العدم فتدرك فى نفسها تلك الحقيقة الأزلية والبدهية الخالدة التى أنكرها بعض البشر فرد الله عليهم بقوله :

« أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ؟ »[1] .

ذلك بعض ما تشهده الموهبة الفكرية فى صفحة الكائنات وما تنفعل به الضمائر حين تدرك ما تدرك من صفات القدس ، وهو انفعال يلازم الإدراك الفكرى حين يبصر فى الكائنات آثار صفات الصانع الأعلى سبحانه[2] .

هذا والعلم الحاصل من مطالعة الفكر لآثار صفات الخالق هوالعلم الذى يُكَوِّن للإنسان عقيدته ، وما تتضمن من قيم .. أى يكون له إسانيته فيحيا المرء - إذ يحيا - وفى ضميره مبادئه ومثله التى تقرر له غايته فى الحياة :

« إقامة أحكام الحق والخيروالعدل » .

وحينئذ تكون مكانات الطبيعة ، وطاقاتها التى حصلهما الإنسان بنشاطه الحسى والرياضى فى وصاية مبادئ الحق والخير والعدل ... أما إذا حجب الفكر عن مزاولة نشاطه فى آيات الكون ، فإن ضمير المرء يخلو من خصائص العقيدة الإيجابية ، ولا يكون له من بديل سوى سيطرة الأهواء ، والشهوات ، ويكون المرء بلا غاية ..

والحياة بلا غاية صادقة مضيعة .

ومن هنا نعلم أن لنا نوعين من العلم : العلم الطبيعى ، وهو : علم العدة أو الآلة أو الوسيلة ، والعلم بالله وهو العلم الذى يهب للإنسان إنسانيته المؤلفة من قيم وصفات

١-الطور : ٣٥ .

٢- مذكرة فى مادة الدعوة ص ٣-٥ بتصرف واختصار .

ومبادئ وغايات ، ولا غنى للإنسان بحال عن كلا العلمين ، والغاية بلا وسيلة عجز .. ، والعدة أو الوسيلة بلا غاية عبث ومهلكة .

وحضارتنا - كما يقول الأستاذ البهى الخولى - هى حضارة العلم الطبيعى والرياضى فحسب .. أى حضارة العدة والوسيلة بلاغاية .. !!

أما العلم بالله الذى يهب للمرء خصائص انسانيته ويقرر له مهمته وغايته فى الحياة فلا مكان له ، ولا أثر فى تلك الحضارة .. وبهذا تعطلت خاصية السببية عن مزاولة أى عمل لها فى أفق الخالقية ، وتعطلت حاسة الفكر تبعا لذلك عن المساهمة بأى دور فى تلك الحضارة .

وإذا كان تعطل العقل عن مجال الخالق هو شأن البشرية اليوم فقد كان شأنها بالأمس .. شأنها فى كل جيل وبيئة .. وشأنها عند مبعث محمد ﷺ ، وما كان لرسل الله من مهمة فى أى بيئة ، أو جيل إلا إرشاد عقل الإنسان أن ينظر إلى حقائق الكون المختلفة بكل إدراكاته فى كل مجالاتها ولاسيما حاسة الفكر ، ولذا كان محور توصياتهم لأقوامهم على اختلاف البيئات والعصور :

« انظروا ماذا فى السماوات والأرض .. »[1] .

« أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض ؟ »[2] .

ومدار هذا النظر على ما نجد فى القرآن الكريم « منطق الخلقية » أن يشهد العقل فى كل شئ « طابع الخلقية » أى أنه مخلوق لله تعالى[3] ، والآيات الكونية فى القرآن الكريم أكثر من ثمانين آية مما يلفت أنظار الناس إلى حقيقة ربط العلم بالله عز وجل .

١- يونس : ١٠١ .

٢- الأعراف : ١٨٥ .

٣- مذكرة فى الدعوة ص ٩ ، ١٠ .

« ب » إعداد الله لرسوله محمد ﷺ :

ما أحكم أن يعد الله لرسوله ﷺ هذا الاعداد قبل مبعثه ، فلما آذنت الأقدار للبشرية بالخير العميم أحس عليه الصلاة والسلام أن وجدانا بهيجا يبعثه إلى الخلاء وفى هذا يقول : « حبب إلىّ الخلاء » .

أى الخلوة البعيدة عن الناس ، حيث كان يختلى فى غار حراء متأملا متفكرا فى آيات الكون ، وما تتضمن من دلالة على الخالق عز وجل ، وكان يجد لذلك أنسا غامرا لاحد له ... ، وفيما هو مقبل على ما يشف عنه الملكوت من حقائق العلم و الحكمة نزل عليه الوحى لأول مرة بأول باكورة للقرآن الكريم بقوله : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم »[1] . والمعروف أن وقت نزول تلك الباكورة هو ليلة القدر ، وهى ليلة يقول الله فيها « فيها يفرق كل أمر حكيم »[2] .

فما هو الأمر الحكيم الذى فرقه الله فى تلك الليلة وضمنه الباكورة الكريمة ؟ إليك عزيزى القارئ البيان :

١- جوهر الرسالة والمراد بالعلم والقراءة :

فى هذا النص الكريم ورد ذكر العلم ثلاث مرات ، والقراءة مرتين ، والقلم مرة واحدة فما معنى جمع هذه الأمور الخطيرة فى أولى البواكير ؟

معناها أن جوهر الرسالة يقوم على العلم ، وما يتطلب من وسائل القراءة والكتابة .

٢- لكن نزول الأمر بالقراءة لرجل أمى لا يقرأ ولا يكتب مع حديث عن التعلم والعلم

١- العلق : ١-٥ .

٢- الدخان : ٤ .

فى ليلة يفرق فيها كل أمر حكيم يدعونا أن نسأل ما معنى العلم وما معنى القراءة؟

إن النص الكريم يقول : « علم الإنسان ما لم يعلم » وهو لا يريد أنه علمه أصول الشرائع وفروعها ، ولا مقررات الطبيعة ، وقوانينها ، ولا سنن الاجتماع ، وقوانين الحضارات ونحوها ؛ لأن الإنسان حينئذ لم يكن له علم بذلك ويبقى من معنى التعليم أنه تعالى : **جعل فى فطرة الإنسان ملكات الإدراك والفهم لما يقع عليه حسه من حقائق ..**

وأما مفهوم القراءة فى قوله تعالى : « اقرأ » فهى تشير بادئ ذى بدء إلى أن الله سبحانه وتعالى استودع العقل البشرى ملكة القراءة كما استودعه ملكات التعليم .

والمتدبر لهذه الآيات الكريمة من سورة العلق يجد أن الله سبحانه عبر عن العلم بصيغة الفعل الماضى ، والفعل المضارع :

« علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » .

وعبر عن القراءة بفعل الأمر « اقرأ » والقراءة سبيل التعلم فإذا جاء الأمر بهما فى باكورة فجر الدعوة لهذه الرسالة ، فمعناه إذن أن محور الجهود فى تلك الرسالة يجب أن يكون هو إثارة واستخراج ما فى عقل الإنسان من مكونات الملكات ، والمواهب ، إذ القراءة هى العامل المحرك المثير لتلك العبقريات الكامنة فيه ، واللغة تبين لنا نوعين من القراءة :

فهناك قراءة الهدف منها معرفة معانى العبارات والألفاظ المكتوبة ، وقراءة بالعقل يطالع بها أو يكشف ما فى الكون من القوانين العلمية وغيرها ، ومن ثم كان من معانى « اقرأ » كما تقول : « قرأ الشئ جمعه وضم بعضه إلى بعض » وحقائق العلم منثورة فى صفحة الكون وسبيل تحصيلها هو مطالعة العقل لها وجمعها ، وضم بعضها إلى بعض للتصنيف أو للموازنة والاستنباط .

والقرآن يقرر أن « اقرأ » تتضمن مطالعة قوانين الطبيعة ، وتقرير هذا المعنى الخطير لاقرأ يستند فيه إلى ماجاء فى القرآن الكريم ، فإن القرآن جعل قوانين الطبيعة علامات للعقل يتبين فيها حقائق العلم كما يشير إلى الحقيقة العلمية فيقول :

« إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[1] .

« إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »[2] .

أى إن فى ذلك لعلامة لقوم يتفكرون ، أو لعلامات لقوم يتفكرون .

وهذا كله مبثوث في صفحة الكون فنرى مثلا :

● الفلك ، وهو من أعجب المخلوقات يقول الله عنه : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين و الحساب ما خلق الله ذلك لا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون »[3]

فهى علامات عقلية يفصلها الله لقوم علماء ليستخرجوا منها حقائق العلم .

● الطبيعة الجوية : تشير إليها الآية الكريمة : « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال »[4] .

● الكيمياء : وخاصة الكيمياء النباتية التى تختلف بها طعوم الثمار وأنواعها من وحدة العناصر كما فى قوله سبحانه :

« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلـون »[5] .

١- الرعد : ٣ .
٢- الرعد : ٤ .
٣- يونس : ٥ .
٤- الرعد : ١٢ ، ١٣ .
٥- الرعد : ٤ . .

● الطير : نموذج لتسخير الله فى الكون ، وإمساكه له ... ليتدبر الإنسان ويتأمل اقرأ قوله تعالى : « ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون »[1] .

● النحل : نموذج فذ لعجائب الطير يقول عنه سبحانه : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »[2]

● البحار : عالم وحده نأخذ منه قانون الأجسام الطافيـة ، من قوله تبـارك وتعالى : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون »[3] .

فالماء مكون من ذرات الأكسوجين والأيدروجين ، وغيرهما ، فبأى سنة ، أو قانون التحمت تلك الذرات حتى استطاعت أن تحمل الفلك المشحون المثقل بضروب السلع والخلق ، ولو أراد الله عز وجل أن يبطل تلك الخاصية أو القانون ، أفقد تلك الذرات الغازية قدرتها على الحمل وهَوَى الفلك فى القاع كما يقول سبحانه « وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون »[4] .

إلى غير ذلك من النعم التى سخرها الله فى الكون لخدمة الانسان ومنفعته حتى أن الإنسان لا يستطيع حصر نعم الله عز وجل كما قال سبحانه : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .. »[5]

● الاجتماع : من سنن الله فى البيئات الإنسانية ما نشاهده فى اختلاف الألوان ،

١- النحل : ٧٩ .
٢- النحل : ٦٨ ، ٦٩ .
٣- يسٓ : ٤١ .
٤- يسٓ : ٤٣ .
٥- ابراهيم : ٣٤ .

ونسمعه من اختلاف اللغات واللهجات مصداقا لقوله تعالى :

« ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين »[1]

● أسرار النفس الإنسانسة : لا يحيط بها أحد من البشر لما يلفها من الغموض ، وهى جديرة بالدراسة القائمة على التفكير العميق المصاحب لغرابة عجائبها ، وما يدور فى داخلها ، فكل إنسان عالم وحده لا يعلمه إلا من خلقه سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه »[2] .

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ »[3] .

ثم اقرأ هذا الآية الكونية العجيبة « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون »[4] .

● الجبال : أجرام ضخمة جعلها الله كالأوتاد فى الأرض حتى لا تضطرب الأرض أو تميل ، كما قال سبحانه : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا »[5] وقوله :

« وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا »[6] . وقوله : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة »[7]

ثم هى دليل من أدلة كروية الأرض ودورانها يقول رب العالمين :

١-الروم : ٢٢ .
٢- ق : ١٦ .
٣- الملك : ١٤ .
٤- الروم : ٢٣ .
٥- النحل : ١٥ .
٦- الأنبياء : ٣١ .
٧- لقمان : ٤٠ .

« وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ »[1] .

● الأنعام : منافعها للإنسان ظاهرة للعيان منها ما يركب ، ومنها ما يؤكل ومنها ما يتخذ للزينة ، اقرأ قوله تعالى : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ..[2] » ومن إكرام الله للإنسان أنه ذللها له لينتفع بها ، قال تبارك وتعالى :

« أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون »[3] ولا يستطيع حصر هذه النعم التى أسداها القرآن للعقل إلا العصبة أولو القوة حيث أن كل آية من هذه الآيات الكونية تحتاج فى تفسيرها إلى معان ، وقوانين بحيث تثبت لكل ذى لب أن الكون المنظور لا يخرج عما جاء فى الكتاب المسطور .

ومن ثم فإنه يطول بنا القول إذا أخذنا فى تقصى ما ذكره القرآن للعقل من آيات ، وعلامات ترى بالفعل لا بمجرد الأبصار العادى ليقف الانسان متأملا ، ومتفكرا أو قارئا بغير مداد ولا حروف ، ما تتضمنه من دقائق السنن ، وعبر الدلالات ، وحسبنا ما سقناه من آيات وشواهد لتعلم أن « اقرأ »تتضمن بالإضافة إلى معنى النظر فى الصحف المكنونة معنى القراءة العقلية لتمنحنا مفاتيح كنوز الكون .

إذن مفهوم (اقرأ) ومنهجها يمتدا إلى أبعد من قوانين الطبيعة : هل مفهوم (اقرأ) يقف عند معرفة قوانين الطبيعة لنبنى عليها حضارتنا ؟ كلا ، وإلا كانت هذه الحضارة تشبه حضارة الغرب اليوم ، التى قامت وتقوم على قوانين الطبيعة وحدها ، أما غايتها فهى الفتك والتخريب ، ولما أحس الغرب بقصور حضارته ، قال :

١- النمل : ٨٨ .

٢- النحل : ٨ .

٣- يس : ٧١ - ٧٣ .

إن الإنسان تقدم فى ناحية الحس وحدها ولم يتقدم فى ناحية الروح ، وكان يجب أن تكون له ثقافة روحية تسير محاذية لثقافة الحس ، لكنهم لم يبينوا المراد بناحية الروح أو لا ثقافتها ، ولكن المسلمين بفضل الدلالة الواضحة فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

يدركون ما عجز الغرب عن بيانه ، فإن العقل – كما سبق – إدراك طبيعى ، وإدراك رياضى يدرك بهما مقررات الطبيعة ، وقوانينها ، وهذا فى جانب الحس ، أما الحاسة الثالثة التى نرى بها دلالة الكائنات ، ودلالة القوانين فى السماوات والأرض على الخالق تبارك وتعالى ، فبهذه الحاسة يصل إلى أن تلك القوانين لم تخلق نفسها ؛ لأن القانون لا يقنن نفسه .. فلا بدله من خالق قدره وأحكم تقديره ، وبخاصية « اقرأ » نشهد « طابع الخالقية » طابع أنه مخلوق لخالق ، كما يشهد الفكر معالم الصنع ليصل إلى صفات المبدع سبحانه ، ثم نصل إلى أن « اقرأ » العظيمة الحكيمة ذات منهجين عقليين فى القراءة :

منهج نطالع به علوم الطبيعة .

ومنهج نشهد به فى تلك العلوم نفسها طابع الخالقية أى أنها مخلوقة للمبدع عز وجل ، وتلك القراءة هى التى كان سيدنا محمد ﷺ مقبلا عليها فى خلوته الروحية فى غار حراء ، فقد كان ينظر فى الكون فلا يرى إلا مشهدا جليلا للخالقية ، لا يد هناك للإنسان فيها ، وإنما هى صنعة من صفات الجلال والجمال .

وبلغ ﷺ فى تلك القراءة ما جعل نفسه تتهيأ لتلقى الرسالة العظمى ، فكانت باكورة الوحى وصية له ﷺ بالتزام منهج تلك القراءة ، وأن يجعل شهود طابع الخالقية فى كل شئ ، فبلسان الدلالة يسمع تسبيح الكائنات ، وهكذا القراءة :

« اقرأ ... اقرأ » لا باسم معهد ، أو معلم ، بل باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان

من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم[1] .

أول رحمة ، وأول نعمة من الله للعباد :

كانت أول آيات الوحى نزولا هى « إقرأ » إلى قوله : « علم الانسان ما لم يعلم » آيات كريمات مباركات ، أول رحمة رحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليها . وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان مالم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم وهو القدر الذى امتاز به أبو البرية آدم – عليه السلام – على الملائكة ، والعلم تارة يكون فى الأذهان ، وتار ة يكون فى اللسان ، وتارة يكون فى الكتابة بالبنان : ذهنى ، ولفظى ، ورسمى ، والرسمى يستلزمهما من غير عكس ، فلهذا قال : اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم »(٢) .

وفى الأثر : قيدوا العلم بالكتابة(٣) .

وفى الأثر أيضا : « من عمل بما علم رزقه الله علم مالم يكن »(٤) .

وبما أن الله عز وجل جعل أول آيات القرآن رحمة وعلم ، فلابد أن يكون المنزل عليه له مقومات خاصة تتفق ، وعظمة المنزَّل عليه .

١- مذكرة فى الدعوة ص ١٣ – ١٥ .

٢- تفسيرا بن كثير : ٥٤٥/٤ .

٣- سنن الدارمى . المقدمة ، باب : من رخص له فى كتابة العلم الحديثة ٥٠٣ : ١٠٥/١ .

٤- استدل به ابن كثير فى تفسيره : ٥٤٥/٤ .

مقومات شخصية محمد ﷺ التى واجه بها مهمة الرسالة :

من مقومات صفة الشخصية ﷺ :

أولا : سلامة حواسه العقلية ، ولاسيما حاستى الخالقية ، والفكرية ، فقد منح الله رسوله ﷺ سلامة فى حواسه العقلية منذ نشأته أدرك بها عظمة الخالق وحكمته .. حتى تجنب كثيرا من أوضاع البيئة التى عاش وتربى عليها ومن هذه الأوضاع :

(أ) مجافاته لعبادة الأصنام ، أو التقرب منه ، أو الحلف بها لبغضه إياها .

(ب) عدم مشاركته فى احتفالاتها ، وأعيادها ، مع قومه .

(جـ) عزوفه وبعده عن اللغو واللهو ، وتحليه بوقار السمت ومكارم الأخلاق .

(د) كان لسلامة حاستى الخالقية ، والفكر عنده : الأثر الأكبر فى اكتساب الأخلاق الكريمة ، كما سبقت الإشارة إليه من إعداد الله له .

فكان أفق الخالية فى الكون مسفرا له بكل دقائقه وحقائقه .. ، وكانت معالم صفات الصانع جل جلاله شاخصة له بكل دلالتها .. فكان إذا رأى المطر نازلا شهد صلته بالخالق فتلقاه بجانب ردائه وقال « إنه حديث عهد بالله » .

وإذا علّم (صحابته) جعل منطق الخالقية قاعدة تعليمه :

من قال مطرنا برحمة الله فهو مؤمن بى كافر بالكواكب ، ومن قال مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بى .

(هـ) كان علمه بالله عز شأنه أنه كان يقول لأصحابه : « إن أعلمكم بالله لأنا » .

لقد كانت الدلائل لا تغيب عن خاطره لحظة . حتى أسفر له ملكوت الحقائق عن قيم جليلة نقية أسفرت له ملك السماوات والأرض حتى قال :

« والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا

الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه[1] » .

(و) كان لا يخاف إلا الله عز وجل وكان ينجلي لبصائره وحواسه كل شئ حتى خوفه الناس بأن عدوا قد جمع له من السلاح والرجال كذا وكذا فيقول :

« حسبنا الله ونعم الوكيل[2] » .

هذه نبذة ، وتوضيح مبسط عن آثار سلامة حاسة الخالقية وحاسة الفكر لديه ﷺ ، وقد صدق فؤاده في كل مارأى ، وما كذب لحظة من ليل أو نهار[3] .

ثانيا : ثقافته الكونية ﷺ :

كانت صفحة الكون الفسيح متقلب نظرات فكره الثاقب ، فتجلت له حقائق العلم بالأشياء ، والعلم بالله ما لم يقدر لغيره عليه الصلاة و السلام يقول الإمام الفخر الرازي[4] رحمه الله في تفسير قوله تعالى :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك .. الخ » على أن المراد بالآيات الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته سبحانه وتعالى ، ومعنى تلاوته إياها عليهم أنه كان يذكرهم بها ويدعوهم إليها .

وقال الشيخ الإمام محمد عبده في تفسير قوله تعالى : « ويتلو عليهم آياتك » . أنها الدالة على وحدانيتك وتنزيهك وعظمة شأنك ، والدالة على صدق رسلك إلى خلقك ، فالمراد بالآيات :

الكونية والعقلية ، أو المراد آيات الوحي التي تنزلها عليه فتكون دليلا على صدقه ، ومشتملة على تفصيل آيات الله في خلقه كبراهين التوحيد والتنزيه ، ودلائل النبوة ،

١- سيرة النبي ﷺ لابن هشام : ١/٢٧٨ .

٢- آل عمران : ١٧٣ .

٣- مذكرة في الدعوة ص ١٦ .

٤- حـ ٤/٦٦

والبعث ، وتلاوتها : ذكرها المرة تلو المرة لترسخ فى النفس ، وتؤثر فى القلب[1] .

والذى يتصدى لبيان مراد الخالق فى الأشياء ، وبيان آثار صفاته تعالى فيها لاشك يكون حظه من عمق النظر فى الآيات وإحاطة ، وتنوع مناهجه ، ووفرة تحصيله أجل وأعلى على حد ما يقول تعالى :

« وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما »[2] .

حقا إن الوحى كان ينزل عليه بالعلم من لدن العليم الخبير سبحانه وكان ينزل بتركيز نظر فى عجائب الأشياء ، وما تتضمن من ضروب البر والعلم لتحصيلها بطبيعة الحال كقوله تعالى : « وخلق كل شئ فقدّره تقديرا »[3].

فتشديد الدال مع التوكيد بالمصدر هنا يدل على دقة النسب التى قدرت لكل كائن ، واختص بها على حده فى الذرات والعناصر ، والخلايا ، و الأعضاء فى تناسبها ، وأحكامها من إنسان وطير وحيوان ، ونبات وجماد ..

وكقوله تعالى : « صنع الله الذى أتقن كل شئ[4] »

وكقوله سبحانه : « الذى أحسن كل شئ خلقه[5]» .

ومما لا ريب فيه أن مواهبه ومنكاته ﷺ كانت فى أتم طاقتها وقدرتها على استيعاب ما أراد الله من علم ومعرفة ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الوحى يهدى العقل ، ويحثه على أن ينظر إلى الأشياء « نظر كيف » لا نظر حس سطحى فحسب ، بمثل قوله

١- تفسير المنار : ٣٨٨/١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٩٧٢

٢- النساء : ١١٣ .

٣- الفرقان : ٢ .

٤- النمل : ٨٨ .

٥- السجدة : ٧ .

تعالى : « أولم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج »[1] .

وقوله سبحانه : « أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده »[2]

ظهرت لنا الآفاق واضحة جلية[3] .

ثالثا : علمه ﷺ بالقرآن : يقول الإمام محمد عبده[4] :

إن قوله تعالى : « ويعلمهم الكتاب » أى القرآن عقب يتلو عليهم آياته يدل على أن المراد بالآيات الكونية لا آيات الوحى ، وإلا كان تكرارا ...

والقرآن يشتمل على حقيقتين هامتين : الأولى : أصول العقائد والشرائع ، والأخرى : علم الله القدسى وهو المفهوم من قوله عز شأنه :

« لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه[5] .. »

وذلك واضح كل الوضوح ، وفى توضيح بيان ثقافته ﷺ نستهدى بقوله سبحانه : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب .. » ومقام التعليم يقتضى أن يكون المعلم ذا رسوخ وامتياز فيما يعلم ، فإذا مقام الفرد فى التعليم هو اصطفاء من الله لا جرم يؤهله تعالى ويُعِدّه بكل ما يكمل به شرف المعلم وقدره من العلم ، واستعدادات العقل .. فإذا كان رسول الله محمد ﷺ هو المعلم بأمر الله واصطفائه يتلو على الناس آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة لاجرم يكون شأنه من صحة المدارك ، وإحاطة العلم ما حاولنا أن نضع له مجرد إشارة بما وصى ، لا أن نرسم له صورة ، هذا بالنسبة لتلاوة الآيات وتعليم لكتاب[6] .

١- ق : ٦ .
٢- العنكبوت : ١٩ .
٣- السيرة لابن هشام ، وامتاع الأسماع ومذكرة فى الدعوة .
٤- تفسير المنار سورة البقرة الآية ١٢٩ .
٥- النساء : ١٦٦
٦- راجع مذكرة الدعوة ، تفسير المنار : ١/٣٨٩ .

أما الحكمة : فشأنها دقيق إذ يختلف العلماء فى كنهها ، ولكنه فهم متقارب و غير متضارب فيذكر الطبرى عن ابن زيد :

أن الحكمة شئ يجعله الله فى القلب ينور له به ... ، والحكمة فى كل شئ معرفة سره ، وفائدته ، والمراد بها : أسرار الأحكام الدينية ، والشرائع ومقاصدها وقد بينها النبى ﷺ بسيرته فى المسلمين ، وما فيها من الفقه فى الدين(١).

ويقول الإمام القرطبى رحمه الله : إن الحكمة : هى الفهم الذى هو سجية ونور من الله تعالى(٢) .

ونقل النيسابورى فى تفسيره عن القفال أن بعض الحكماء عبر عن الحكمة : بأنها التشبه بالإله بقدر الطاقة البشرية ، ويناسبه قول الرسول ﷺ :

« تخلقوا بأخلاق الله » .

وقال الفخر الرازى : إن الحكمة : تعليم الشرائع وما فيها من وجوه المصالح والمنافع ، وأيضا هى الفصل بين الحق والباطل ، وأيضا أراد بهاالآيات المتشابهات ، وأصلها من أحكمت الشئ أى : رددته ، فكأن الحكمة هى التى ترد عن الجهل والخطأ ... فهو يدلنا على أن الحكمة حقيقية نظرية – أى ليس لها قوام حس – يحسها الله فى القلب ، والفخر الرازى والحكماء : ينظرون إليها على أنها عمل قوامه الخلق الربانى ، والإصابة فى القول والعمل .. وجمع الرازى القولين معا فى موطن آخر إذ يقول : « المراد من الحكمة : إما العلم ، وإما فعل الصواب » .. وذلك أن كمال الإنسان فى شيئين :

١– تفسير المنار : ٣٨٩١ .

٢– تفسير القرطبى : ٥١٦/١ ط الشعب .

أ- أن يعرف الحق سبحانه وتعالى لذاته ..

ب- والخير والطريق إليه ليعمل به ..

فالأول : يرجع إلى العلم والإدراك المطابق ..

والثانى : يرجع إلى فعل العدل والصواب (١) .

أما الإمام البيضاوى فيقول فى تفسيره عن الحكمة كما فى سورة لقمان :

«والحكمة فى عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية ، واكتساب الملكة الدالة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها(٢) » .

وعن الحكمة بأجل معانيها يقول المولى سبحانه : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه(٣) » .

والشكر منهج عملى مترتب لا محالة على العلم بالله ، العلم بآثار صفاته تعالى فيما أقامه علينا من نعم ظاهرة وباطنة لا تحصى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها(٤) » .

وهو علم لا يدع لصاحب به إلا أن ينهض بشكره تعالى (٥) .

قال الزمخشرى : « وقد نبه الله سبحانه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقى هو العمل بها حيث فسر إيتاء الحكمة : البعث على الشكر » .

ذلك بعض ما ورد من أقوال العلماء فى معنى الحكمة ، ومما لا شك فيه أن حظه منها ﷺ أو مستواه هو مستوى المعلم الذى له صفة الرسوخ والإمتياز وله خصوصية الامتياز والاعداد الإلهى ، وما نزل بشأن هذا الإعداد قول الله تعالى :

١- تفسير الفخر الرازى : ٤/٦٦ ، ٦٧ .

٢- تفسير البيضاوى : ص ٥٤٧ .

٣- لقمان : ١٢ .

٤- إبراهيم : ٣٤ .

٥- مذكرة فى الدعوة ص ١٨ .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله[١] » .

فإن الرؤية تكون بالعين وبالقلب والإرادة ، والإراءة هنا من الله للقلب على نحو ما قال الله تعالى :

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض[٢] » .

فهى إراءة من الله لقلبه عليه السلام لا لبصره العادى ، فإذا قال تعالى :

« لتحكم بين الناس بما أراك الله »[٣] .

فهى إراءة للقلب لأن الحكم لا يرى بالعين[٤] .

أما الإراءة فلا ندرى كيفيتها ؛ لأن ذلك من اختصاص الله تعالى ، وحسبنا أنها لفظ دال على عناية خاصة لتكون طاقة الرؤية فى كل من محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام فوق ما للبشر العادى بآحاده ، وكل من عند الله :

« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وماكان عطاء ربك محظورا [٥] » فنجد أن القرآن صرح بذكر المفعول الثانى بالنسبة لإراءة إبراهيم عليه السلام بأنه « ملكوت السماوات والأرض »[٦].

أما بالنسبة لمحمد ﷺ فقد أضمره « تحكم بين الناس بما أراك الله » أى بما أراك الله ، وفائدة هذا الإضمار ، ليكون عاما يشمل رؤية دلالة الكائنات على ما قال الراغب الأصفهانى : « الحكمة : معرفة الموجودات وفعل الخيرات ، وليشمل الفقه ، أو

١- النساء : ١٥ .

٢- الانعام : ٧٥ .

٣- النساء : ١٠٥ .

٤- مذكرة فى الدعوة ص ١٨ .

٥- الاسراء : ٢٠ .

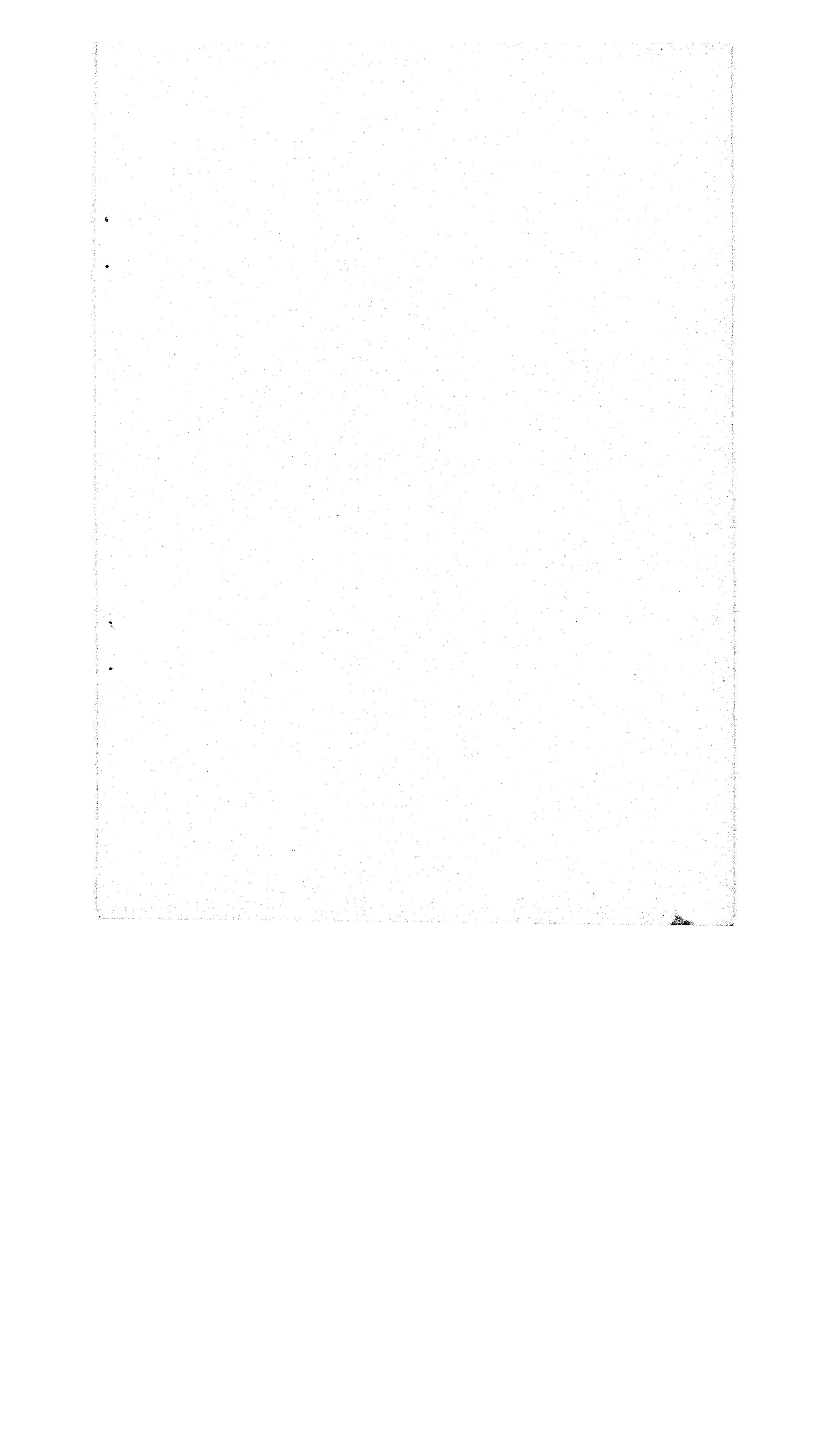
٦- الانعام : ٧٥ .

البصيرة فى العالم بالله ، وما أنزل من مقاصد الشرائع على حد ما قال الأستاذ الإمام فى المنار : « الحكمة فى كل شئ : معرفة سره وفائدته ، والمراد بها أسرار أحكام الدين ، والشرائع ومقاصدها .. ولذا كانت الحكمة خالصة له عليه الصلاة والسلام بنوعيها : النظرى والعلمى ، ومفهوميها : الكونى واللدنى ... « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خير كثيرا » .

الفصل السادس

موقف الرسول ﷺ من أهل مكة

ثقة الداعية الأول ﷺ في نفسه ومنهجه - تحديد الغرض الذى أرسل من أجله - فهمه لعقليات المجتمع الذى يعيش فيه دور مدرسة الأرقم .. - عرض الدعوة - مطالب الدعوة - سلاح البطش .



موقف الرسول ﷺ من أهل مكة :

يتلخص فيما يلى :-

أ- ثقة الداعية الأول ﷺ فى نفسه .

ب- تحديد الغرض الذى أرسل من أجله .

جـ- فهمه لعقليات المجتمع الذى يعيش فيه .

أما ثقة الداعية فى نفسه ، فقد عبر عنها ﷺ فى هذه الكلمة الموجزة التى خاطب بها عمه أبا طالب : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته »[1] .

إن المناسبة التى قيلت فيها هذه العبارة تبين لك ثقة الداعية ، لقد واجه قومه وهم يساومونه فى ترك الدعوة .. وعدم التعرض لآبائهم ، وآلهتهم .. ولكنه أبى ...

والرسول ﷺ بهذا الموقف يحدد مستوى الثقة بالنفس للداعية المسلم الذى يضطلع بأعباء العمل للدعوة الإسلامية ... **لقد كانت ثقة الأنبياء مصدرها معرفتهم العظيمة بقدرة الله عز وجل ونصره ، ومن ثم كانت دعوتهم للناس رحمة وحنان وثقة**[2] .

ثم ها هو ﷺ يستنطق القبائل على ثقته بينهم فينـادى قائـلا :

يابنى فهر ، يابنى عدى ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ماجربنا عليك إلا صدقا[3]

ويقول ابن هشام : عن أمانته وصدقه أن رسول الله ﷺ لما أراد الهجرة أخبر على بن أبى طالب رضى الله عنه « وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله

١- السيرة لابن هشام ١/٢٦٦ ، والكامل فى التاريخ ٢/٦٤ .
٢- انظر : الدعوة الاسلامى فى عهدها المكى : ١٧٢ .
٣- فتح البارى : ١/١١٩ باب وأنذر عشيرتك الاقربين ، والدعوة الإسلامية فى عهدها المكى ص ١٧٨

ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شئ يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ »(١) .

أما تحديد الغرض الذى جاء من أجله فيتضح فيما يلى :

١- أنه ﷺ جمع قومه فى مؤتمر عائلى ، وأعطاهم من الأمان والراحة ماآنسهم ثم قام بينهم خطيبا فقال :

الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به ، وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ثم قال :

« إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها لجنة أبدا .. »(٢)

فهو نبى لهم وللناس عامة .. ، يدعو إلى توحيد الله .. ، والإيمان بالبعث والحشر والحساب ، والجنة والنار .. وهو فى سبيل هذا لا يسألهم أجرا ، ولكنه يحدد الغرض الذى من أجله أرسله رب العالمين فيقول لهم :

« ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم »(٣) .

١- السيرة لابن هشام ٤٨٥/١ .

٢- الكامل فى التاريخ لابن الأثير : ٦١/٢ .

٣- السيرة لابن هشام ٢٩٦/١ ، والدعوة الاسلامية فى عهدها المكى ص١٨١

حـ : فهمه ﷺ لعقليات المجتمع الذى يعيش فيه :

عاش النبى ﷺ مع المجتمع الذى سينقل إليه الدعوة عيشة المستوعب لثقافة البيئة دون أن يغامس حياة المجتمع فى اتجاهاتها التى تؤثر مستقبلا عليه فهو لم يغفل عنها ولم ينغمس فيها بل عاش حياة المجتمع الفاضلة .. كان ﷺ تاجرا مع قومه فى السوق(١) .

وكان قاضيا لقومه فى مدلهمات الأمور عند وضع الحجر الأسود(٢) .

وشارك معهم فى حلف الفضول (٣) .

أقوال قومه فيه ﷺ :

أ- قالت أمه آمنة :

والله ما للشيطان عليه سبيل ، وإن لابنى لشأنا(٣) .

ب- وقال فيه جده عبد المطلب :

يابركة لا تغفلى عن ابنى ؛ فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبى هذه الأمة (٤) .

جـ- وقال عمه أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة الأرامل(٥)

د- وقالت خديجة رضى الله عنها :

يابن عم : إنى قد رغبت فيك : لقرابتك وسطتك فى قومك ، وأمانتك ، وحسن

١- السيرة لابن هشام : ١٨٧/١ ، والحلبية : ١٥٧/١ .

٢- الحلبية : ١٧٢/١ ، وابن هشام : ١٩٧/١ .

٣- ابن هشام : ١٣٣/١ ، والسيرة الحلبية : ١٥٣/١ .

٤- الحلبية : ١١٣/١ ، وابن هشام ١٦٥/١ .

٥- الطبقات : ١١٨/١ ، والحلبية ١٣١/١ .

خلقك ، وحسن حديثك(1) .

وقال له روقة :

... ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخ(2) .

وقال النضر بن الحارث :

قد كان محمد فيكم غلاما أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة(3).

وتودد إليه عتبة بقوله :

ياابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السعة فى العشيرة والمكان فى النسب(4) .

ويمدح الوليد بن المغيرة القرآن الذى سمعه منه فقال :

إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة(5) .

والقرآن الكريم يخبر عن موقفه فى إيجاز فيقول :

« قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون (6) » . أنه الحق الذى لا محيص عنه ، لولم أرسل به لا رسل به غيرى ، ولأجعلنكم بتلاوته خصماء تدرونني بالجدال فالأمر بمشيئة الله تعالى لا بمشيئتى فأجعله على نحو ما تشتهونه ، ثم قرر ذلك بقوله : « فقد لبثت فيكم عمرا » مقدار أربعين سنة « من قبله » أى من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه ، فإنه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علما ، ولم

1- المواهب : 1/193 ، والحلبية 1/138 .
2- السيرة لابن كثير : 1/454 .
3- السيرة لابن هشام : 1/299 .
4- المرجع نفسه : 1/293 .
5- المرجع نفسه 1/280 .
6- يونس : 16 .

يشاهد عالما ، ولم ينشئ قريضا ، ولا خطبة ، ثم قرأ كتابا بزت فصاحته فصاحة كل منطيق ، وعلا على كل منثور ومنظوم ، واحتوى على قواعد علمى :الأصول ، والفروع ، وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ماهى عليه علم أنه من الله تعالى .

« أفلا تعقلون » فتستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه لتعلموا أنه ليس الا من الله العزيز الحكم؟[1]

يقول الأستاذ الندوى :

« وحياة محمد ﷺ من ميلاده إلى ساعة وفاته معلومة للذين عاصروه وشهدوا عهده ، وقد حفظها التاريخ عنهم لمن بعدهم ، وهو فى حياته لم يحتجب عن عيون قومه .

إن جميع شئون ، وأطوار حياته من ولادته ورضاعه وطفولته إلى أن صار يافعا وشابا كل ذلك ظاهر أمره ، معلومة تفاصيله ، وقد علم التاريخ عن هذا النبى ﷺ باشتغاله فى التجارة ، وكيفية زواجه ، وعلم الناس سجاياه فى صداقته ، وفى وفائه للناس قبل النبوة ، واتصلوا به حين اتخذوه أمينا ، وأقاموه حكما فيما اختلفوا فيه من نصب الحجر الأسود فى موضعه من الكعبة ، ثم وقفوا على أمره حين حبب الله إليه الخلوة فاعتزلهم فى غار حراء ، ثم علموا حاله حين نزل عليه من رب العالمين ، وحين بدأ أمر الإسلام يظهر للوجود أخذ يدعو الناس إليه ، ويبلغهم ما أنزل عليه[2] » .

١- تفسير البيضاوى ص ١٧١ .

٢- الدعوة الإسلامية فى عهد المكى .. ص ١٩٨ .

منهج مدرسة دار الأرقم .. فى فجر الدعوة الإسلامية :

كان لمدرسة دار الأرقم بن أبى الأرقم دور بارز فى فجر الدعوة .. كما كان لها أثر هام فى تربية قادة الإسلام الذين حملوا عبء تبليغ الدعوة فيما بعد ، وكانت هذه المدرسة ضرورية للأسباب الآتية :

أولا : حرص الرسول ﷺ على إرساء مبادئ الدين الجديد فى نفوس أتباعه المنتسبين إلى مدرسة الأرقم ، يتلو عليهم آيات ربه التى كان الوحى ينزل بها تباعا .

ثانيا : حرص الأتباع على التعلم ، والتقاط كل ما يبلغهم عن ربهم سبحانه

ثالثا : أن يصوغ عقولهم فى قوالب من الأفكار النيرة الثاقبة ، تتفق وهداية الله إلى الخير والحق .

رابعا : أن يصهر قلوبهم فى بوتقة الإيمان الحق .

خامسا : أن يصب فى وجدانهم طاقات من العزائم التى تفل الحديد .

سادسا : أن يقوى من عزمهم ليصمدوا أمام الجبال الشوامخ ، والعواصف العاتية .

سابعا : تهيئة الفئة المؤمنة لمرحلة تالية هى مرحلة الجهر بالدعوة ، وهذه المرحلة هى فترة الاختبار الحقيقية ؛ لأنها فترة تحد ، وإظهار لمعدن الدعوة .. وأثرها فى نفوسهم ، ظهور أثر الدعوة .(١)

قال ابن اسحاق :

« كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال : اجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا :

« والله ما سمعت قريش القرآن يجهر لها به قط » مَن رجل يسمعوه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا .

١- انظر : للأستاذ محمد عبد الله السمان : الهجرة : بداية مراحل التحول والانطلاق ص ١٥٤ المحرم ١٣٩٢ هـ .

قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه

قال : «دعونى فإن الله سيمنعنى » .

فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم » رافعا بها صوته « الرحمن علم القرآن » ثم استقبلها يقرؤها . فتأملوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد » فقاموا إليه ، فجعلوا يضربون فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أثروا فى وجهه ، فقالوا له : « هذا الذى خشينا عليك » .

فقال : ما كان أعداء الله أهون علىّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا » .

قالوا : لا ، حسبك ، وقد أسمعتهم ما يكرهون ..[1] !

لقد كانت الفترة المكية مرحلة صهر للإيمان والعزائم ، وقبول التحدى ، ولم يكن رسول الله ﷺ يسمح لإيمان أصحابه أن يتعرض لأدنى ضعف ، حتى فى أحلك الظروف وأشدها بلاء ، فكان يمر عليهم ليشد من عزائمهم :

كان يمر على آل ياسر وهم يعذبون ، فيقول لهم : « صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » . يروى الإمام البخارى رضى الله عن خباب بن الأرت رضى الله عنه قوله :

أتيت النبى ﷺ ، وهو متوسد ببردة وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : « ألا تدعو الله لنا ؟ »

فقعد وهو محمر وجهه فقال : « قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد مادون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه

١- السيرة لابن هشام : ١/٣٣٦ ، ٣٣٧ .

فيشق باثنين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ..

وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عز وجل والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[1] .

لقد لمس الرسول ﷺ من رغبة بعض أصحابه فى الدعاء على الأعداء آثار الضعف فتدارك إيمانهم أن يتعرض للاهتزاز ، نعم رفض فكرة الدعاء على الأعداء فى مثل هذا المقام بالذات ؛ لأنه يريد أن ينتصر أتباعه بإيمانهم ، وما النصر إلا من عند الله ، وبما أن الفترة المكية فترة صهر للإيمان وامتحان للعزائم فليصبر أتباع الدعوة ، ولا يعتمدوا على أية خارقة من السماء ، بل على الإيمان وحده ، إن الآية الخارقة قد تضع حدا لابتلائهم ، وحدا لجبروت أعدائهم ، ولكنها لن تسجل للفئة المؤمنة أدنى صفحة من صفحات البطولة بين دفتى التاريخ[2] .

لقد كان منهج دار الأرقم .. إعداد الرجال ، الذين سيتولون تبليغ دين الله لعباد الله فى كل بقاع الأرض .

إذن هى مرحلة إعداد وتكريس الجهود لفهم دستور الدعوة فهما دقيقا عميقا بحيث يستطيع الواحد منهم أن يناقش و يقنع المخالف له فى العقيدة إذا لزم الأمر .

أخذ الرسول ﷺ فى هذه المرحلة يضم إليه الأخيار المصابيح يدعوهم إلى الإسلام ، فاختار : على بن أبى طالب فآمن به ، كما آمنت به السيدة خديجة رضى الله عنها ، ثم زيد بن ثابت مولاه ، وصديقه أبو بكر ، وورقة بن نوفل .

واضطرت الدعوة الإسلامية أن تجعل من هذه المرحلة سرية لماذا ؟

أ- حتى تكتمل التربية القائمة على تعاليم الله وهدايته بعيدا عن جاذبية المجتمع

١- البخارى : مناقب الأنصار باب ٢٩ ، ومسلم فى الزهد باب ٧٣ ، والترمذى تفسير سورة البروج .

٢- الهجرة مرجع سابق ص ١٥٩ .

التى تضغط دائما على المبادئ فى مهدها لتموت ، ولذا كان الرسول ﷺ ينأى بمن يدخل معه فى دينه بعيداً عن أعين المجتمع حتى لا يتأثر به فتضيع من ذهنه مبادئ الإسلام فى مهده ، فكان لابد من وجود مكان يتدارس الناس فيه الإسلام على روية وطمأنينة بعيدا عن لهو المجتمع وعبثه[1] .

وأخذ النور يقهر الظلام رويدا رويدا .

ب- يقول ابن هشام :

ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الاسلام بمكة وتحدث به ، ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاء به[2] .

إسلام على رضى الله عنه

روى البيهقى :

أن على بن أبى طالب رضى الله عنه جاء بعد ذلك فوجدهما - أى محمدا ﷺ والسيدة خديجة رضى الله عنها - يصليان فقال على :

ما هذا يامحمد ؟ فقال رسول الله ﷺ : دين الله اصطفى لنفسه ، وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى عبادته وتكفر باللات والعزى .

فقال على : هذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم ، فلست بقاض أمرا حتى أحدث به أبا طالب ، وكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره فقال له :

١- المرجع نفسه ص ١٩٩ .

٢- السيرة لابن هشام : ٢٦٢/١ ، والكامل لابن الأثير ٥٩/٢ ، والصدع : الشق فى الأرض نقول : صدع النبات الأرض صدعا : شقها فظهر منها ، وصدع بالأمر بينه وجهر به . المعجم الوسيط مادة : الصدع .

ياعلى إذا لم تسلم فأكتم ... فمكث على تلك الليلة حتى جاء فقال : ماعرضت على يامحمد ؟ فقال رسول الله ﷺ :

تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزى ، وتبرأ من الأنداد ، ففعل على وأسلم فمكث على يأتيه على خوف من أبى طالب ، وكتم على إسلامه ولم يظهره[1] .

سبب اتخاذ دار الأرقم مكانا للاجتماع :

قال صاحب السيرة الحلبية :

أن سبب دخول الرسول ﷺ وصحبه دار الأرقم بن أبى الأرقم كان على إثر حادث التقاتل الذى وقع بين المسلمين ، ونفر من المشركين الذين عابوا على المسلمين صلاتهم ، وشج فيها سيدنا سعد بن أبى وقاص رجلا وأراق دمه فيقول :

ضرب سعد بن أبى وقاص رجلا منهم بلحْى بعير فشجه فهو أول دم أريق فى الاسلام ، ثم دخل ﷺ وأصحابه مستخفين فى دار الأرقم بن أبى الأرقم بعد هذه الواقعة فإن جماعة أسلموا قبل دخوله ﷺ دار الأرقم[2] .

إذن كانت الدعوة ، قد أعلنت ، وعلم بها الكثير من أهل مكة ..

روى الزهرى قال : دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام أهل مكة سرا وجهرا ، فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال ، وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول ، فكان إذا مر عليهم فى مجالسهم يشيرون إليه : إن غلام بنى عبد المطلب ليُكلَّمْ من السماء[3] .

١- دلائل النبوة : ١/٤١٤ ، وتفسير ابن كثير ١/٤٢٨ .
٢- الحلبية : ١/٣١٩ .
٣- الوفا : ١/١٨١ .

فالنص فيه تصوير لعمل الدعوة بمرحلتين : سرا وجهرا ، أما الدعوة نفسها فمعروفة للناس ولم يقفوا منها موقف العداء إلا عندما اتسعت رقعتها وشكلت خطرا على المواريث الثقافية التي يؤلهها البشر[1] .

قال في الوفا تكملة النص السالف :

فكان كذلك حتى عاب آلهتهم التي كانوا يعبدونها وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر فشاقوا رسول الله ﷺ[2] .

إسلام عمرو بن عتبة السلمي :

كان ممن أتى إلى رسول الله ﷺ ، وهو مستخف ، وعنه يقص ابن كثير قوله :

أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث بمكة وهو حينئذ مستخف فقلت : ما أنت ؟ قال : أنا نبي ، فقلت : وما النبي ؟ قال : رسول الله ، قلت : الله أرسلك ؟ قال : نعم ، قلت بما أرسلك ؟

قال : بأن تعبد الله وحده لا شريك له وتكسر الأصنام وتوصل الأرحام ، قال : قلت : نِعْم ما أرسلك به ، فمن تبعك على هذا ؟ قال : حر وعبد : يعني أبا بكر وبلال ، قال فكان عمرو يقول : لقد رأيتني ، وأنا ربع الاسلام[3] .

وهذا واضح في أن الدعوة نفسها كانت معروفة لأهل مكة ، وأما الذي ينبغي أن يوصف بالسرية في هذه المرحلة فهو العمل لها وهو إعداد الدعاة إلى الله تربية وتهذيبا ، لمجابهة الناس في الخارج فيما بعد .

والدليل الواضح على أنه لاسرية في الدعوة بل في العمل من أجلها ، أن الدعوة

١- الدعوة الإسلامية في عهدها المكي : ٢١٢ .
٢- الوفا : ١/١٨١ .
٣- تفسير ابن كثير ١/٤٤٢ .

حتى بعد أن صدع الرسول ﷺ بها مازالت تعمل في جو من الحذر والاستخفاء[1] .

قال ابن كثير :

أسلم عمر يوم الخميس ، فكبر رسول الله ﷺ ، وأهل البيت تكبيرة سمعت بأعلى مكة . فقام عمر فقال : يارسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق ؟

ويظهر دينهم وهم على الباطل ؟ قال ياعمر : إنا قليل قد رأيت مالقينا[2] .

وإذن فليس من الثابت علميا أن يقال : سرية الدعوة فإن الحق الذى سجله التاريخ هو : وضوح الدعوة واشتهارها ، وسرية العمل لها إعدادا للقادة من الرجال وتربية لهم ليحملوا مع الداعية الأول ﷺ مسئولية تبليغ الدعوة عند الصدع بها عامة والجهر بها للناس كافة[3] .

١- الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى ٢١٢ .

٢- السيرة النبوية لابن كثير : ٤٤١/١ .

٣- انظر الدعوة الاسلامية فى عهدها المكى ص ٢١٣ .

عرض الدعوة .. ، ومنهج الداعى الأول ﷺ مع قومه :

سلك محمد ﷺ فى عرض الدعوة منهجاً رشيدا عندما أمره الله بإظهارها قال ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » . صعد النبى ﷺ على الصفا فجعل ينادى : يابنى فهر ، يابنى عدى - لبطون قريش - حتى اجتمعوا ، فجعل الذى لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر : ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش . فقال النبى ﷺ : أرأيتهم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد !! فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتبّ ...[1] » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه « وأنذر عشيرتك الأقربين » فقال : « يامعشر قريش ، اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يابنى عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيئا ، ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، ياصفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا ، يافاطمة بنت رسول الله سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا[2] » .

هذه الصيحة العالية هى غاية البلاغ . فقد فاصل الرسول عليه الصلاة والسلام قومه على دعوته ، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو : حياة الصلة بينه وبينهم ، وأن عصبية القرابة التى يقوم عليها العرب ذابت فى حرارة هذا الإنذار الآتى من قبل الله عز وجل[3] .

١- البخارى : ٤٠٦/٨ ، ومسلم : ١٣٤/١ .
٢- البخارى : ٤٠٨/٨ ، ومسلم : ١٣٣/١ من طريقتين عن أبو هريرة .
٣- فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى : ص ١٠١ .

لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام كبير المنزلة فى بلده مرموقا بالثقة ، والمحبة ، وها هو ذا يواجه مكة بما تكره ، ويتعرض لخصام السفهاء والكبراء ... باتت مكة بعد هذا الانذار وهى تموج بالغرابة والاستنكار ، وتستعد لحسم هذه الثورة التى اندلعت بغتة .. بدأت قريش تسير فى طريق اللدد ، ومجانبة الصواب ، ومضى محمد ﷺ ، كذلك فى طريقه يدعو إلى الله ويتلطف فى عرض الإسلام ، ويكشف النقاب عن مخازى الوثنية ... وها هو يجدد الدعوة لآله الأقربين لمنزلتهم الكبيرة فى العرب ، ووقوفهم بجانبه مكسب عظيم النتائج وهم أهله الذين يود لهم الخير ، ويكره لهم الوقوع فى مساخط الله .

ولما دعاهم ﷺ قال :

« الحمد لله أحمده وأستعينه ، و أومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله . والله الذى لا إله إلا هو : إنى رسول الله اليكم خاصة ، وإلى الناس عامة . والله لتموتنّ كما تنامون . ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها للجنة أبدا ، أو النار أبدا » .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك . وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقنا لحديثك !! وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم إلى ما تحبّ ، فامض لما أُمِرْتَ به .

فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبدالمطلب

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة !!! خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ...

فقال أبو طالب : والله لنمنعنّه مابقينا[1] .

١- الشيخ محمد الغزالى : فقه السيرة ١٠٢ ، ١٠٣ .

عرض الدعوة .. بالحجة البالغة :

اجتمع نفر من أهل مكة ، واتفقوا على مطالب يعرضونها على رسول الله ﷺ منها :

تدعَنا وآلهتنا ، وندعك وإلهك وكان عمه أبو طالب حاضرا فقال : قد أنصفك القوم فقال رسول الله ﷺ : أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطى كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم ؟

فقال أبو جهل : إن هذه لكلمة مربحة ، نعم ، وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها ، قال : قولوا : لا إله إلا الله ، فاشمأزوا ، ونفروا منها ، وغضبوا وقاموا وهم يقولون : اصبروا على آلهتكم إن هذا لشئ يراد[1] .

وفى مقام آخر يرد عليهم رسول الله ﷺ موضحا ما أرسل به كما قال ابن هشام : ما بى ما تقولون : ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم[2].

وتلا عليهم القرآن حجة الله البالغة ليبين لهم هدف ومنهج ما يدعوهم اليه :

« قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به ماعندى ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين .

قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين[3] »

١- ابن سعد الطبقات : ١/١٣٥ .

٢- السيرة لابن هشام : ٢٩٦/١ ، والمواهب ٢٥٧/١ ، والحلية : ٣٤٠/١ .

٣- الأنعام : ٥٧ ، ٥٨ .

ثم عرض عليهم أمر الدعوة خالصا من عرض الدنيا :

« قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين »[1] .

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون[2] » .

لقد قال لهم فى قوة وصراحة : ترون هذه الشمس ؟ قالوا : نعم ..

قال : فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم أن تشتعلوا منه بشعلة[3] .

لقد كان القرآن كله وما يزال حجة الله البالغة على المكلفين منذ أن نزل وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، جابه أهل مكة وصمد لهم ، وعرف أهل المدينة فيه الحق فاتبعوه ، فأمر الاسلام واضح كل الوضوح ليس فيه سر مكتوم ، ولا أحاجى يغمض تفسيرها ، ففى أيدى الناس على اختلاف ألسنتهم وجنسياتهم تاريخه ، ودعوته ، وسلوكه ، ومنهاجه وهم يعلمون من أمر محمد ﷺ كل صغيرة وكبيرة منذ ولادته ورضاعه وشبابه حتى بعثته .. وأن قبره المعطر الكريم أثبت فى سنده التاريخى من كل تواريخ العظماء وجميع أصحاب الدعوات ..

فماذا يعرفه الناس عن زرادشت ، وكونفشيوس ؟

وماذا يعرفه التاريخ عن سولون وسقراط ؟

وماذا يعرفه التاريخ عن موسى وعيسى عليهما السلام ؟

أما قبر محمد - ﷺ فهو منزله الذى كان يعيش فيه ، وتلقى فيه الوحى ، وخرج منه للجهاد الخالص فى سبيل الله ..[4]

١- ص : ٨٦ .
٢- الأنعام : ٥٠ .
٣- السيرة لابن كثير : ٤٦٣/١ .
٤- انظر الرسالة المحمدية للأستاذ سليمان الندوى ص ٩ نقلا عن الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى ص ٢٣٤ .

أثر الدعوة فى مكة :

بات أمر الدعوة .. شائعا فى مكة فشغلت عقولهم ونفوسهم ، وحملها الركبان حيث يظعنون وبالجملة فقد قلقت الدعوة الإسلامية منذ فجرها كل الثقافات ، والمعتقدات الموروثة فى الجزيرة العربية ، لتحل محلها شيئا فشيئا تصور جديد فى العقيدة والأخلاق والمعاملات ..

وهذه نماذج دخلت ، فما خرجت منها إلا وهى مذعنة لدعوة الإسلام :

الطُّفَيْلُ بن عمرو الدرسىّ :

قدم مكة ورسول الله ﷺ بها فمشى إليه رجال من قريش ، وكان الطفيل رجلا شريفا ، شاعرا ، لبيبا ، فقالوا له : ياطفيل إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، فقد فرق بين الرجل وأبيه ، والرجل وأخيه ، وبين الرجل وبين زوجته وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمه ، ولا تسمعنّ منه شيئا ، قال : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا ولا أكلمه ، حتى حشوت فى أذنى حين غدوت إلى المسجد قطنا خوفا من أن يبلغنى شىء من قوله ، وأنا لا أ ريد سماعه ، قال فغدوتُ إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلّىَ عند الكعبة ، قال : فقمت منه قريبا ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ، قال فسمعت كلاما حسنا ، فقلت فى نفسى : واثكل أمى ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟

فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته ، فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت يامحمد إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا ، للذى قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بقطن لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك فسمعته قولا حسنا ، فأعرض

عليّ أمرك ، فعرض عليّ رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا عليّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه ، فأسلمت ، وشهدت شهادة الحق ، وقلت يانبى الله إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام ، ...

وظل الطفيل رضى الله عنه حتى أسلم قومه وأتى بسبعين بيتا أو ثمانين بيتا من دوس ، وكان هدم ذى الكفين صنم عمرو بن حممة على يديه حتى أحرقه[1] .

وفد نصارى الحبشة :

قال ابن اسحاق : قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلا .. ، من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله ، وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبوجهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم :

خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئنْ مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركب أحمق منكم ، فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه[2] .

ضماد :

قدم مكة ، وهو رجل من أزد شنوءة ، وكان يرقى من الرياح ، فسمع سفهاء الناس يقولون : إن محمدا مجنون فقال : آتى هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدى .. قال

١- السيرة لابن هشام : ٤٠٧/١ - ٤١٠ .

٢- المرجع نفسه : ٤١٨/١ .

فلقيت محمدا فقلت : إنى أرقى من هذه الرياح ، و أن الله يشفى على يدى من يشاء فهلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله .. فقال ضماد : أعدهن على ؟ فأعادهن فقال : والله لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة ، وقول الشرك فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، ولقد بلغن قاموس البحر ، فهلم يدك أبايعك على الإسلام فبايعه[1] .

لقد فشلت أسلحة الدعاية المثبطة ، ومازالت قافلة الايمان تسير ، .... لقد أكسبت هذه المعارضة الدعوة الإسلامية منذ فجرها انتشارا فى البلاد والقبائل التى كانت تفد للحج كل عام[2] ..

سماحة صاحب الدعوة ﷺ .

لما كانت دعوة الإسلام دعوة إصلاح للناس جمعا ، والنبى ﷺ بعث رحمة للعالمين كانت سماحته واضحة جلية إذ عندما رده أهل الطائف ردا سيئا فسلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ، ويصيحون به ، ويرضخونه بالحجارة حتى أدموا رجليه وهم يضحكون ؛ فيلجأ إلى حائط .. ويشكو إلى الله بكلمات تتقطع لها القلوب حزنا على هذه المعاملة البغيضة مع رجل يدعوهم إلى الله .. فماذا حدث ؟

أرسل الله له ملك الجبال ليقول لمحمد ﷺ :

أنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بما شئت إن شئت أن أطبق عليهم

١- الخصائص الكبرى للسيوطى : ١/٣٣٤ ، والحلبية : ١/٣٣٤ .

٢- الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى : ٢٤٢ .

الأحشبين[1] .. الخ وتظهر رحمة الرسول ﷺ بأمته ويطبق الجانب العملى للدعوة فيرد على ملك الجبال قائلا : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا[2] ، ويصفح رسول الله الصفح الجميل ، ويدعو دعاء نديا .. أخاذا بالنفس والمشاعر والوجدان يعلم الداعية إلى الله فى كل زمان كيف يكظم غيظه ويعفو عن قومه ويدعو ربه :

اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك[3] ..

وحق لملك الجبال أن يقول للنبى ﷺ : أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم[4] .

وصدق صاحب الهمزية :

جهلت قومه عليه فأغضى

وأخو الحلم دأبه الإغضاء

وسع العالمين علما وحلما

فهو بحر لم تعيه الأعباء

١- هما جبلان : تارة يضافان لمكة ، وتارة يضافان لمنى فيقال : أخشبا مكة ، و أخشبا منى وهما أبو قبيس وقعيقعان ، ويسميان أيضا الجبجبان . راجع الشفاء شرح نسيم الرياض : ٨٢/١ نقلا عن الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى ص ٢٤٨ هامش ١ .

٢- الحلية : ٣٩٥/١ ، والسيرة لابن كثير : ١٥٢/٢ .

٣- السيرة لابن هشام : ٤٢٠/١ ، وتاريخ الطبرى : ٣٤٥/٢ .

٤- الحلية : ٣٩٦/١ .

ولم يكن ذلك دأبه ﷺ فى مكة وحدها ، بل هذا هو منهج الدعوة الذى استمر ولم ينقطع فى كل ظروفها يخلصها لله ، ويجعل كل حركة فيها ابتغاء وجهه سبحانه . فى غزوة أحد لما كسرت رباعيته ، وشج وجهه الكريم شق ذلك على أصحابه وقالوا : لو دعوت الله عليهم ؟

فقال ﷺ : إنى لم أبعث لعانا ، ولكن بعثت داعيا ورحمة : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون[1] .إنهم حقا لا يعلمون طريق الحق فمازالوا فى غواية النفس ، ولا يعرفون قدر النبى ﷺ ، فهم مازالوا فى حجاب من الجاهلية الأولى ، ولا يعرفون حقيقة الإسلام فقد طمسوا قلوبهم بتعاليم الأجداد ، وجعلوا على سمعهم ختما وران على قلوبهم ما كانوا به يأفكون[2] ..

لقد كان عقبة بن أبى معيط من كبار المستهزئين بالإسلام وبالمسلمين ، وكان كثير الأذى لرسول الله ﷺ حتى قال فيه ﷺ :

كنت بين شر جارين . أبى لهب ، وعقبة بن أبى معيط إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابى ..

ومع هذا فإن صاحب الحلبية يروى أن رسول الله ﷺ كان يكثر من مجالسة عقبة بن أبى معيط[3] ، يدعوه إلى الإسلام !

لقد كان رسول الله ﷺ على أعلى مستوى من الرفعة الأخلاقية ، تحمل أعباء الرسالة ، وكان عمله الكريم نبراسا للمنهج الذى يسير عليه الدعاة إلى الله ، وقد أثبت القرآن الكريم ذلك بقوله :

١- الشفاء : ١/١٤ .

٢- الدعوة الرسلامنية فى عهدها المكى - : ص ٢٥٠ .

٣- الحلبية : ١/٣٥٣ .

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير[1] » .

وقوله : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »[2] .

وقوله : « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير[3] » .

وما أجل هذا الوصف وأعظمه الذى اختص به رسول الله ﷺ فى قوله سبحانه :

« وإنك لعلى خلق عظيم[4] » .

ومن أهم ما كلف به ﷺ من قبل الله عز وجل : الصبر ، وهى صفة يجب أن يتحلى بها الدعاة فى رسالتهم الدينية فى رحلة الحياة الدنيا مقتدين بسيد الأنبياء محمد ﷺ ومن هذه الآيات الكريمة قوله سبحانه :

« واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين[5] » .

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداةِ والعشى يريدون وجهه[6] » .

« فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى[7] » .

١- هود : ١١٢ .
٢- الأعراف : ١٩٩ .
٣- الشورى ١٥ .
٤- القلم : ٤ .
٥- النحل : ١٢٧ .
٦- الكهف : ٢٨ .
٧- طه : ١٣٠ .

« واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ...[1] » .

« فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم[2] » .

« فاصبر صبرا جميلا[3] » .

« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا[4] » .

« ولربك فاصبر[5] » .

« فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا[6] » .

هذه الآيات الكريمة التى تحض - مع غيرها - الرسول ﷺ على الصبر كانت المنهج الذى ظل عليه الرسول ﷺ فى مكة ، فقد كان هدف المنهج المكى أن يحافظ على تنقية الدعوة .. فى صورتها العملية من أدنى شائبة تحسب عليها ، ذلك بأن الفرد المسلم هو مرآة الإسلام ..

ولهذا فإن الدعوة .. منذ فجرها قد تجنبت صداما مسلحا حتى تعطى فرصة كاملة لإبراز معالمها .. وحقيقتها ، ولذلك التزمت بالصبر الإيجابى الذى يزاول العمل فى إخلاص مع التحمل لشدائد الأمور ..

ولو سمح القرآن الكريم للفئة المسلمة بالدفاع عن النفس فى هذه المرحلة ، لما أمكن للدعوة أن ترى للناس على طول الحياة أنها دعوة لخير الإنسانية ، ولكانت مشادات فى محيط الأسرة بين الولد ووالده والعبد وسيده والمرأة وزوجها ، ولصح للكافرين يومها أن

١- الطور : ٤٨ .
٢- القلم : ٤٨ .
٣- المعارج : ٥ .
٤- المزمل : ١٠ .
٥- المدثر : ٧ .
٦- الإنسان : ٢٤ .

يقولوا إن محمدا ﷺ يفرق بين المرء وأبيه[1] ، ومما ينبغى التأكد عليه أنه لايغيب عن المسلم أن الكلمة الصادقة لها دوى على الآذان ، أقوى من السحر ، وهذا أعظم سلاح الإيمان فى أيدى الدعاة إلى الله .

مطالب الدعوة الإسلامية :

هل كانت مطالب الدعوة أمورا يستحيل علي أهل مكة تحقيقها ؟ لو كان هذا صحيحا ، لحكمت الدعوة على نفسها بالفشل من الجولة الأولى ؛ لأن العرب بشر ، والبشر طاقات محدودة ، ودعوة الله سبحانه فى جوهرها اليسر ، لأن الله لا يريد بعباده العسر .. لقد كانت مطالب الدعوة تتلخص فيه :

أ- أن يحل التوحيد محل الشرك .

ب- وأن يحل الإيمان ، مكان الكفر .

جـ- والإيمان بالبعث ، محل الشك والإنكار .

د- وأن يحل العلم والأخلاق محل الجهل والتقاليد .

فهل هذه المطالب مما يشق على أى إنسان أن يؤمن بها وينفذها ؟

لقد كان من المنطق لنجاح هذه الدعوة عندما تظهر أن لا تكون مفاجأة للعرب إلا من حيث التوقيت لا من حيث الحدوث فهم عايشوا جاليات من اليهود والنصارى تباشر نشاطها الدينى عبادة وفكرا وسلوكا .

فكان من المنطقى أيضا أن تدعوهم إلى الله فى أسلوب جديد فيه شئ من التأمل والتفكير فماذا حدث[2] ؟

لم يعجب سادة قريش ما جاء به محمد ﷺ ، فتصدوا للدعوة وحاربوها ، ثم دعوا

١- الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى ص ٢٦٠ .

٢- الهجرة .. ص ١١٧ .

إلى مقاومتها ، واضطهاد كل من يفكر فى الإستجابة لها .. هكذا دون انتظار ، ودون تأمل ، دون تفكير ... على أن هذا المجتمع لم يعدم بعض المفكرين الذين كانوا يبحثون عن الحقيقة .

قال ابن اسحاق :

اجتمعت قريش يوما فى عيد لهم .. فخلص منهم أربعة نفر نجيا[1] ، وهم : ورقة ابن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، فقال بعضهم لبعض : تَعَلَّموا والله ماقومكم على شئ لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يضر ، ولا ينفع !! ياقوم التمسوا لأنفسكم ؛ فإنكم والله ما أنتم على شئ فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام .

فأما ورقة .. فدخل فى النصرانية ... وقيل : إنه نقل إلى العربية بعض ما فى الأناجيل .

وأما عبد الله بن جحش ، فاقام على ما هو عليه من الالتباس ، حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان مسلمة ، فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام ، حتى هلك هناك نصرانيا .

وأقامت امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان على الاسلام حتى صارت من أزواج النبى ﷺ ، ومن أمهات المؤمنين .

وأما عثمان بن الحويرث ، فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده ، ويقال : إنه أراد أن يخضع مكة لحماية الروم ، وأن يكون عامل قيصر عليها ،

١- النجى : الجماعة يتحدثون سراً يكتمون حديثهم عن غيرهم ، وهو لفظ يستوى فيه : الواحد والاثنان والجماعة « قال الله تعالى : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا » يوسف : ٨٠ .

فطرده المكيون ، فاحتمى بالغساسنة فى الشام ، وأراد أن يقطع الطريق على تجارة مكة فوصلت إلى الغساسنة هدايا المكين ، فمات ابن الحويرث عندهم مسموما ..

وأما زيد بن عمر بن نفيل ، فوقف ، فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان ، والميتة ، والدم ، و الذبائح التى تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموؤدة ، وقال : أعبد ربُ إبراهيم ، وبَادَى قومه بعيب ما هم عليه .

ويروى ابن إسحاق ... أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يسند ظهره إلى الكعبة وهو يقول : يامعشر قريش ، والذى نفسى زيد بن عمرو بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ، ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه ثم يسجد على راحلته[1] .

ويروى ابن اسحاق أيضا : أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعمر بن الخطاب – وهو ابن عمه – قالا لرسول الله ﷺ : أنستغفر لزيد بن عمرو ؟ قال : « نعم ؛ فإنه يبعث أمة وحدة »[2] .

إسلام ورقة بن نوفل :

لم يشر الدكتور هيكل رحمه الله فى كتابة حياة محمد ﷺ عن إسلام ورقة بن نوفل هل أسلم ؟ أم صار حاله كحال أبى طالب ؟

أما المقريزى ، فينص على إسلام ورقة بن نوفل صراحة ، بل جعله خامس خمسة سبقوا إلى الإسـلام ، قال بعد أن ذكر أبا بكر ، وعليا ، ووخديجة ، وزيد بن حـارثة :

١- السيرة لابن هشام : ٢٤٢/١ ، وما بعدها ، وحياة محمد ﷺ للدكتور محمد حسين هيكل ، ومروج الذهب للمسعودى : ٥١/١ ، ٥٣ ، ٥٤ . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١٣٨٦ هـ .

٢- السيرة لابن هشام : ٢٤٤/١ .

« .. ثمن أسلم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وصدق بما وجد من الوحى ، وتمنى أن لو كان جذعا « شابا » وذلك أول مانزل الوحى » .

وفى السيرة النبوية لابن كثير :

ميل إلى هذا الرأى فيرى أن ما صدر من ورقة بن نوفل حين أبلغته خديجة خبر نبوة محمد ﷺ هو تصديق بما وجد ، وإيمان بما حصل من الوحى ونية صالحة للمستقبل[1] .

وإليك بعض الأحاديث التى ذكرها ابن كثير لتأييد إيمان ورقة :

الأول :

روى الحافظ أبو يعلى :

« سئل رسول الله ﷺ عن ورقة بن نفيل فقال :

قد ر أيته ، فرأيت عليه ثياب بياض ، أبصرته فى بطنان الجنة عليه السندس .. ، والبطنان من كل شئ وسطه » .[2]

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال :

« لا تسبوا ورقة فإنى رأيت له جنة ، أو جنتين »[2] .

والحق أن ماجاء على لسان ورقة كاف لأن يقوم دليلا على أنه أسلم وحسن إسلامه ، فقد قال للرسول ﷺ :

« أبشر ثم أبشر ، أنا أشهد أنك الذى بشر بك ابن مريم ، وأنك على ناموس موسى ، وإنك نبى مرسل ، وإنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، ولئن أدركنى ذلك ، لأجاهدن معك » .

هذا التعقيب ما هو إلا لفتة يسيرة على هامش الرواية التى ساقها المرحوم الدكتور

١- الهجرة .. ١١٨ .

٢- مجمع الزوائد ٩/٤١٦ .

هيكل ، ولم نسق سيرة هؤلاء الأربعة الذين نفروا من دين قريش ، إلا لنؤكد أن الدعوة الإسلامية حين تبدى امتعاضها من الوثنية فى بدايتها لم تكن بدعا من الدعوات ..

ولم يكن هؤلاء النفر الأربعة هم وحدهم الذين نفروا مما عليه العرب دينا ومجتمعا ، بل كان غيرهم آخرون رفضوا الخضوع لأصنام من حجارة لا تنفع ولا تضر ، ولا تنطق ولا تسمع ، ورفضوا أيضا التعامل مع التقاليد التى لا يقرها عقل ، ولا يرتضيها منطق ، ولا تقبلها مروءة ولا شهامة .

إن أى مثقف له معرفة بتاريخ العرب فى الجاهلية ، لا يمكن أن يجهل عاقلا مثل قس بن ساعدة الأيادى ، ذلك الذى لم يكن يكتفى باعتزال ما عليه العرب ، بل كان يتردد على سوق عكاظ يعرض حكمته ، ويطرق أسماع العرب بها محاولا إيقاظهم من غفلتهم[1] ، وعندما قدم على رسول الله ﷺ وفد إياد ، قال :

« يامعشر وفد إياد : ما فعل قس بن ساعدة الأيادى ؟ وعندما أجابوه : هلك يارسول الله .. » قال ﷺ :

« لقد شهدته يوما بسوق عكاظ على جمل أحمر يتكلم بكلام معجب مونق لا أجدنى أحفظه » .

لكن أعرابيا تطوع بأن يتلو كلام قس على مسامع النبى ﷺ وأصحابه ، وأصغى رسول الله ﷺ :

« أيها الناس اجتمعوا ، واسمعوا .. من عاش مات ... أما بعد : فإن فى السماء خبرا ، وإن فى الأرض عبرا ، نجوم تمور ، وبحار تغور ، وسقف مرفوع ... أقسم قس ... أن لله لدينا هو أرضى من دين أنتم عليه ... » ثم قال الأعرابى : وقال قس أبياتا لا أحفظها .

فقال أبو بكر رضى الله عنه : أنا أحفظها يارسول الله .

١- انظر الهجرة ... ص ١٢٠ .

فقال : هاتها . فقال :

فى الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت مــــوادا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوهـا	تمضى الأوائل والأواخر
لا يرجـع الماضى ، ولا	يبقى من الباقين غابـر
أيقنت أنى لا محالة	حيث صار القوم صائر

فقال رسول الله ﷺ :

« رحم الله قسا ، إنى لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده[1] » .

ثم نعود إلى التأكيد على أن مطالب الدعوة الإسلامية وهى :- (كما سبقت الإشارة إليها) - الإيمان بالله ، والتوحيد ، والإيمان بالبعث ، وبالحساب معا ، ثم التخلى عن العادات الذميمة ، والإلتزام بالأخلاق القرآنية فى السلوك . هذه المطالب لم تكن ليشق على إنسان تحقيقها تحقيقا ماديا - على الأقل - قد يكون هناك لون من المشقة النفسية ، ولكن لو أن القوم استعملوا عقولهم قليلا لما كان هناك أى لون من ألوان المشقة النفسية ، لو أنهم استعملوا عقولهم قليلا ، لا عتبروا أن مامضى من حياتهم فى الضلالة ، يجب أن يكون مصدر مشقتهم النفسية ، وليس انتقالهم من الضلالة إلى الهداية ، ومن الغى إلى الرشد[2] ..

فماذا حدث ؟

ظلموا وبغوا واستخدموا :

سلاح البطش والتخريف : من يتتبع سير الدعوة فى عهدها المكى يراها تعرض

١- مرجع الذهب للمسعودى : ١/٥٠ ، وبلوغ الأرب : ٣/١٢٢ ، ١٥٥ .

٢- الهجرة .. : ص ١٢١

مبادئها فى هدوء ، وأدب جم ، لكن قريشا تقابل الهدوء بالعنف ، والأدب بالبطش ، ومع ذلك سارت الدعوة إلى هدفها من بين البطش والتخويف والتهديد ، ولم يؤثر فيها هذا السلاح بل زادها قوة وصلابة .

يقول ابنَ اسحاق :

« ثم إنهم – أى قريش – عدوا على من أسلم واتبع رسول الله – ﷺ – من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، برمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنوهم عن دينهم ، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء ، ومنهم من يصلب ، ومنهم من .. يعصمه الله منهم » .

كان على رأس القائمة المعتدية : (أبو جهل ، وأمية بن خلف ، والأخنس بن شريق ، وأبو لهب) .

لم يقف الأمر عند اعتداء الرجال بل شاركت فى الركب إمرأة هى أم جميل حمالة الحطب اختصها الله مع زوجها سورة المسد ، فما أن سمعت قول الله تعالى حتى حملت فى يدها فهرا من حجارة – الفهر ملء الكف – واتجهت إلى رسول الله – ﷺ – ، وما أن رأت أبا بكر فى المسجد حتى صاحت : « أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنى لشاعرة ، ثم راحت تنشد »

مذ مما عصينا ∴ وأمره أبينا

ودينه قلينا

أليس فى هذا ما يثير الدهشة ؟ إن صناديد قريش كانت أوصالها تهتز لسماع أية من كتاب الله لكن عنادهم كان يدفعهم دائما إلى تكلف الهدوء و الرزانة ، أما هذه المرأة ،

فقد تفوقت على الرجل فى عنادها ، وتماديها فى البغى والعدوان ...... وتمْضى الأيام ، ويثبت اللّه الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويكتب لهم صفحة من أنصع صفحات البطولة الإيمانية ، ويسجل لتاريخ الطغاة صفحة سوداء من أحلك الصفحات[1] .

رابعا سلاح المساومة :

قصدت قريش من وراء هذا السلاح أن يكون ذا حدين :

أ) أن يكف محمد – ﷺ – عن سب آلهتهم وتهدأ دعوته عنهم .

ب) القصد من وراء هذه المساومة الحوار ، فتكسب عواطف الذين لا يزالون على الحياد من أهل مكة ، أو يثبط الحوار والمساومة همم الذين يفكرون فى الإنتماء إلى الدعوة الجديدة ..

يروى الإمام بن هشام عن إبن اسحاق :

أن رسول اللّه – ﷺ – لما بادى قومه بالإسلام ، وصدع به ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعاب عليها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من عصم اللّه تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون ، وحدب على رسول اللّه – ﷺ – عمه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه ..

فلما رأت قريش أن رسول الله – ﷺ – لايعتبهم من شئ – أى لا يرضيهم – أنكروه عليه من فراقهم وعيب الهتهم .. مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب .

كان على رأس أول وفد انتخبته قريش ليقوم نيابة عنها بدور المساومة : « عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان ، وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن عبد المطلب وأبو جهل ، والوليد بن المغيرة » .

١– الهجرة .. ١٤٠ .

قالوا :

(يا أبا طالب : إن ابن أخيك سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آبائنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه ..

فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه ... دب الأمل فى نفوس قريش أن عهداً من الوفاق بينها وبين محمد - ﷺ - قد بدأ ، فأرادت أن تتقدم خطوة اخرى لعلها أن تكون الخاتمة فتشجع عتبة بن ربيعة وكان سيدا فى قومه فأشار على قريش أن يقوم وحده إلى رسول الله - ﷺ - وكان فى المسجد وحده - ليكلمه ، ويعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فتعطيه قريش أيها شاء ، ويكف عنهم ...

جلس عتبة إلى رسول الله - ﷺ - فقال له فى هدوء :

يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السِّنَة - بكسر السين المشددة : الشرف - فى العشرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ..) وكأنما أراد - ﷺ - أن يشجعه على مواصلة الكلام فقد كان لرسول الله - ﷺ - هيبة تبدو على وجه من يخاطبه ، ولاسيما إذا كان من أعدائه ، قال له :

(قل يا أبا الوليد ، أسمع)

فواصل عتبة بن ربيعة الحديث وقد بدا على وجهه مسحة من الإطمئنان (يا ابن أخى ان كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ..

وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك

وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ..

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا (مايتراءى للناس من الجن)

تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع « من يتبع من الجن » على الرجل حتى يداوى منه .

إنها عروض - لا ريب - مغرية ، ولكن الذى فات قريشا أن هذه العروض كلها من متاع الدنيا ، ولو كانت دعوة محمد - ﷺ - الذى جاءهم بها دنيوية لحما ودما فقط ، لكان لهذه المغريات المعروضة مجال .. فى القبول

أما وأن دعوة الإسلام جاءت للحياتين معا ، فلا سبيل لتقديم إحداهما على الأخرى .فكما قال سبحانه :

« ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

قال فى مقابلها : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » .

فرغ عتبة بن ربيعة ورسول الله - ﷺ - يستمع منه قال :

« أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال عتبة : « نعم » .

قال الرسول ﷺ : « فاسمع منى » قال عتبه أفعل »

وأخذ رسول الله - ﷺ - يتلو عليه آيات من أول سورة « فصلت » وما أن سمعها عتبة بن ربيعة حتى أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه .

ثم عاد عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جائكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم ، قالوا ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائى أنى سمعت قولا - والله - ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ...

يامعشر قريش : أطيعوني وأجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ... فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به ... »

وامتعضوا لهذه الكلمات وعندما قالو له : « سحرك - والله - يا أبا الوليد بلسانه قال : هذا رأيي ... فاصنعوا مابدا لكم ... » كانت إشارة عتبة ... إشارة ناصح حقا فإن قضى العرب على الدعوة الوليدة استراحوا وقد كفاهم غيرهم مشقة هذه المحاولة ، وإن ظهر محمد - ﷺ - و صار ملكا عزيزا فيكون ملكه ملكا لهم ، لأنه منهم وهم عصبيته ... فشلت إذن كل محاولات المساومة مع محمد - ﷺ - ولكنها أكسبت الدعوة الناشئة قوة الصمود والقدرة على المحاورة ، و أنها ترفض أسخى العروض التي يشتهيها كل طموح ، لأن لها هدف غير الذي ترمي إليه قريش . فهي تعرض القوة المادية ، بينما رسول الله ﷺ يعرض الإيمان غذاء الروح[1] .. لكن روح الحقد أبت إلا العداء فكانت هجرة الحبشة .

١-الهجرة ... ١٤٨ .

الفصل السابع

الهجرة الى الحبشة

سببها – المهاجرون الأول – محاولة قريش
رد المهاجرين – إعلان الدعوة أمام النجاشى
وأساقفته – ثمرة الدعوة فى الحبشة – اسلام
النجاشى – الهجرة الثانية – أهمية الهجرة إلى الحبشة وآثرها .



الهجرة الى الحبشة :

سببها : الفرار إلى الله عز وجل ، وترك المال والأهل والوطن ، ومع أنه ليس هناك أصعب على النفس من أن تضطر إلى ترك وطنها ، لكن إذا كان هذا الأمر فى صالح الدعوة .. وفى مرضاة الله عز وجل ، فالصعوبة هنا تتبدد ، ويتلاشى أثرها ، ولا يبقى إلا التنفيذ ، فإنه لما اشتد أذى المشركين على من آمن وفتنوا جماعة منهم حتى إنهم كانوا يَصْبِرونهم - يحبسونهم - ويلقونهم فى رمضاء مكة ، ويضعون الصخرة العظيمة على صدر أحدهم وهو ملقى على الرمال فلايستطيع الجلوس من شدة الألم قائلين له : اللات إلهك من دون الله فيقول مكرها : نعم !

وحتى إن الجعُل ليمر فيقولون : وهذا إلهك من دون الله ، فيقول : نعم ! ومر الخبيث عدو الله أبو جهل : عمرو بن هشام بسمية أم عمار وهى تعذب وزوجها ، وابنها فطعنها بحربة فى فرجها فقتلها ، رضى الله عنها وعن ابنها وزوجها .

شفقة الصديق رضى الله عنه :

كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه إذا مر بأحد من الموالى يُعذَّب يشتريه ، ويعتقه ومن هؤلاء : بلال ، وأم حمامة ، وعامر بن فهيرة ، وأم عُبَيس ، وزنيرة ، والنهدية ، وابنتها ، وجارية بنى عدى . وكان عمر يعذبها على الإسلام قبل أن يسلم ، حتى قال أبو قحافة لولده أبى بكر : يابنى أراك تُعْتِق رقابا ضعافا ، فلو اعتقت قوما جُلداً يمنعون .

وفى رواية : « فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جُلدا يمنعونك ، ويقومون دونك »(١) .

فقال له أبو بكر رضى الله عنه : « يا أبت إنى إنما أريد ما أريد : يعنى الله عز وجل »(٢) .

١- الروض الأنف : ٣/ ٢٠ .

٢- السيرة : لابن هشام : ١/ ٣١٩ .

ويقال : إنه الذى نزل فيه : « وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى »[1] .

فلما اشتد البلاء أذن الله سبحانه وتعالى فى الهجرة إلى أرض الحبشة[2] . وهى تقع غربى مكة وبين البلدين صحارى السودان ، والبحر الآخذ من اليمن إلى القلزم[3]، فكان أول من خرج فارا بدينه إلى الحبشة :

عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومعه زوجه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ وتبعه الناس .

وقيل : بل أول من هاجر إلى أرض الحبشة أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس ، ثم خرج جعفر بن أبى طالب ، وجماعات رضى الله عنهم ، وأرضاهم ، وكانوا قريبا من ثمانين رجلا[4] .

فانحاز المهاجرون إلى مملكة أصحمة[5] .

النجاشى فآواهم ، وأكرمهم ، فكانوا عنده آمنين ، فلما علمت قريش بذلك بعثت فى أثرهم : عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص بهدايا وتحف من بلادهم إلى النجاشى ليردهم عليهم فأبى ذلك عليهم ، وتشفعوا إليه بالقواد من جنده ، فلم يجبهم

١- سورة الليل : ١٧ - ٢١ .

٢- السيرة النبوية لابن هشام ٣٤٤/١ ، وجوامه السييرة لابن حزم ص ٥٥ ، والسيرة النبوية لابن كثير : ٧٠/٣ ، والدر لابن عبد ربه ص ٥٠ .

٣- القلزم : مدينة تقع على ساحل البحر الأحمر قرب أيلة والطور وإليها ينسب البحر نفسه فيقال له : بحر القلزم ، وهو المعروف باسم البحر الأحر .

٤- الفصول - مرجع سابق - ص ٨٧ ، ٨٨ .

٥- أصحمة النجاشى : معنى أصحمة بالعربية : عطية ، وهو أبجر ، والنجاشى : لقب عام لكل من ملك الحبشة انظر الفصول : ص ٨٩ عامش ٣ .

إلى ما طلبوا ، فوشوا إليه إن هؤلاء يقولون فى عيسى قولا عظيما ، يقولون : إنه عبد ، فأحضر المسلمون إلى مجلسه ، وزعيمهم جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال : مايقولون هؤلاء ؟ إنكم تقولون في عيسى ؟

فتلا عليه جعفر سورة « كهيعص » فلما فرغ أخذ النجاشى عودا من الأرض فقال : مازاد هذا على ما فى التوراة ، ولا هذا العود ، ثم قال : اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى ، من سبكم غرم ، فقال لعمرو ، وعبد الله ، : لو أعطيتمونى دَبْراً من ذهب ، ما سلمتهم إليكما ، ثم أمر فردت عليهما هداياهما ، ورجعا مقبوحين بشرخيبة وأسونها[1] .

كان هذا موجز لأمر المسلمين في الحبشة ، ولهذه الهجرة فى فجر الدعوة أهمية كبيرة نستعرضها معا فيما يأتى :

قال ابن اسحاق : كان من أسباب الهجرة أنه لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، لمكانه من الله ، ومن عمه أبى طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فَرَجًا مما أنتم فيه » .

فخرج حينئذ المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة ، مخافة الفتنة ، وفرارا إلى الله بدينهم فهى أول هجرة فى الإسلام[2] .

المهاجرون الأول :

كان أول المهاجرين إلى الحبشة : ١- عثمان بن عفان بن أبى العاص رضى الله عنه ، ومعه امرأته : رقية بنت رسول الله ﷺ ، ورضى الله عنها .

٢- وأبو حذيفة بن عتبة ، ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو .

١- كلمة حبشية معناها الآمنون .

٢- لسيرة لابن هشام : ٣٤٣/١ ، وسبل الهدى والرشاد : ٤٨٥/٢ .

٣- والزبير بن العوام بن خويلد .

٤- ومصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف .

٥- وعبد الرحمن بن عوف بن عبد مناف بن عبد الحرث بن زهرة .

٦- وأبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال ، ومعه امرأته أم سلمة بنت أبى أمية ابن مغيرة ، بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

٧- وعثمان بن مظعون ..

٨- وعامر بن ربيعة .

٩- وأبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزّى .

١٠- وسهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحرث .

فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة .

قال ابن هشام : وكان عليهم عثمان بن مظعون .

قال ابن اسحاق : خرج جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة فكانوا بها .

منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل معه ، وكان مع سيدنا :

جعفر بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، امرأته أسماء بنت عميس ابن النعمان[1] .

وأخرج ابن سعد عن الزهرى قال : لما كثر المسلمون ، وظهر الإيمان ، وتحدث به ثارناس كثير من المشركين من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم فعذبوهم وسجنوهم ، وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « تفرقوا فى الأرض » .

فقالوا : أين يارسول الله ؟ قال : « ها هنا وأشار إلى الحبشة ، وكانت أحب

١- السيرة لابن هشام : ٣٤٣/١ ، وقد ذكر الذين نزلوا الحبشة مع أسرهم وأسماء قبائلهم بالتفصيل .

الأرض إليه أن يهاجر قِبَلَها ، فهاجر ناس ذو عدد من المسلمين ، منهم من هاجر معه بأهله ، ومنهم من هاجر بنفسه حتى قدموا أرض الحبشة .. وخرجوا متسللين سرا ، وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشُعيبة منهم الراكب والماشي ، ووفق الله للمسلمين ساعة جاءوا ، سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة ، وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نبئ رسول الله ﷺ .

و خرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا ، قالوا : وقدمنا أرض الحبشة ، فجاورنا بها خير جار ، أمِنَّا على ديننا وعبَدنا الله ، لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه[1] .

قريش تحاول رد المهاجرين :

قال ابن اسحاق : فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد آمنوا ، واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جليدين إلى النجاشي فيرده عليهم ، ليفتنوهم في دينهم ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها فبعثوا :

عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص بن وائل – كما سبق – وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ، ولبطارقته ، ثم بعثوهما إليه فيهم .[2]

موقف أبي طالب من المهاجرين :

كان قلب أبي طالب مع المهاجرين ، فإنه لما رأى قريشا أرسلت إلى النجاشي في طلب المهاجرين أرسل إليه محرضا إياه الدفاع عن المهاجرين أبياتا يحضه على حسن جوارهم والدفع عنهم فقال :

١– الطبقات : ١/١٣٦ .

٢– السيرة لابن هشام : ١/٣٥٦ .

ألا ليت فى النأى جعفرُ

وعمرو وأعداء العدو الأقاربُ

فهل ثار أفعال النجاشى جعفرا

وأصحابه أو عاق ذلك شاغبُ(١)

تعلم أبيت اللعن أنك ماجدُ

كريم فلا يشقى لديك المجُانبُ(٢)

تعلّم بأن الله زادك بسطةً

وأسباب خير كلُّها بك لازبُ(٣)

وأنك فَيْضُ(٤) ذو سجال غزيرة

ينال الأعادى نفعها والأقاريف

الوصف التفصيلى لوضع المهاجرين فى أرض الحبشة :

قال ابن اسحاق :

حدثنى محمد بن مسلم الزهرى ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام المخزومى عن أم سلمة ، بنت أبى أمية بن المغيرة زوج النبى ﷺ قال : قالت :

لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشى ، أمنّا على ديننا ، وعَبَدْنا الله تعالى لا نؤذى ، ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا أئتمروا فيما بينهم

١- عاق : منع .

٢- أبيت اللعن : تحية العرب للملوك فى الجاهلية ، والمعنى : أبيت أن تأتى الأمور ما يكون سببا فى اللعن ، والمجانب : أراد به الداخل فى حماه راجع لابن هشام : السيرة : ٣٥٦/١ هامش : ٢، ٤ .

٣- لازب : لاصق ولازم .

٤- قبض : أراد به أنه كريم ، وسجال : فى الأصل : جمع سجل وهو الدلو إذا امتلأ وأراد منه ههنا : العظمة .

أن يبعثوا إلى النجاشى فينارجلين منهم قويين ، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما كان يأتيه منها الأدم[1] فجمعوا له أدما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقته[2] بطرقا إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك : عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص . فأمروهما بأمرهم وقالوا لهما :

ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلّما النجاشى فيهم ، ثم قدّما إلى النجاشى هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم ، قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشى ، ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريق الا دفعا إليه هديته ، قبل أن يكلما النجاشى ، وقالا لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى[3] ، إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك أشراف قومهم ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم فإن قومهم أعلم بهم ، عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم .

لقد أحيط بالدعوة وأصحابها حتى فى بلاد الغربة ، فلم تكتف قريش بخروج المسلمين من بين أظهرهم إلى بلاد لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس ، ولكنهم ذهبوا أملا فى حفاظهم على دينهم ودعوة ربهم ، فهل سيسلمهم النجاشى ، وينتهى أمر الدعوة ؟ سننظر :

قدّم المبعوثان هداياهما إلى النجاشى ، فقبلها منهما ، ثم كلماه فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم

١- الأدَم : الجلد .

٢- البطريق : صاحب المذهب ويطلقون عليه أيضا : أبا - راجع : صبح الأعشى ص ١٣ ص ٢٧٤ .

٣- ضوى : أى أوى ، ولجأ ، ولصق .

أشراف قومهم من آبائهم ، وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه ، قالت :

ولم يكن شئ أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشى ، فقالت بطارقته حوله :

صدَقا أيها الملك ، قومُهُم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

رد النجاشى : كان رد النجاشى على هذه الخطة الرخيصة مفحما حصيفا ، وكان مفاجأة أذهلت الجميع من حوله ، وصدقت فيه مقولة الرسول ﷺ : « .. ملك لا يظلم عنده أحد .. »

قالت السيدة أم سلمة رضى الله عنها :

فغضب النجاشى ، ثم قال : لاها الله ، إذاً لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى حتى أدْعُوَهم ، فأسألهم عما يقول هذا فى أمرهم :

فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ، ما جاورونى .

وأسقط فى أيدى المبعوثين ، ورأوا أنهما قد كذبا ، وافتريا ، وأتيا بهتانا وإثما عظيما ، على هؤلاء المهاجرين الذين هاجروا بدينهم إلى الله وإلى رسوله .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟

قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمَرَنا به نبينا كائنا فى ذلك ما هو كائن ، فلما جاءوا

وقد دعا النجاشى أساقفته[1] . فنشروا مصاحفهم حوله .

إعلان دعوة الإسلام أمام النجاشى وأساقفته :

حضر المهاجرون مجلس النجاشى تلبية لرغبته ، فوجه إليهم هذا السؤال :

ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا دينى ، ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

قالت : فكان الذى أجابه على سؤاله : جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه فقال له :

أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف .

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة ، والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا .

وأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، أى أخبره بكل ماجاءت به دعوة الاسلام .

قالت : فعدد عليه أمور الإسلام ، ثم يكمل سيدنا جعفر فيقول :

فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ماجاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ماحرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن دينا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها

١- جمع أسقف وهو العالم فى النصرانية ، وهو عندهم بمنزلة المفتى .

الملك ، قالت :

فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شئ ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشى : فاقرأه علىّ ، فقرأ عليه صدرا من سورة مريم « كهيعص » قالت : فبكى والله النجاشى حتى اخضلت(١) لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا ومصاحفهم حين سمعوا ماتلا عليهم ، ثم قال النجاشى : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة(٢) واحدة .

انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ، ولا يكادون ، وخرج المهاجرون بعد أن سمع النجاشى وأسقافته ما يدعو إليه الإسلام ، ومرت هذه المناظرة بسلام وأمن المهاجرون فى مهجرهم ، لكن عمرو بن العاص لم ترضه هذه النتيجة ولم يقبل أن يرضى من الغنيمة بالإياب ، فماذا حدث ؟

قال عمرو .. : والله لآتينه غدا عنهم بما استأصل به خضراءهم(٣) .

قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة ، وكان أتقى الرجلين فينا : لا تفعل فإن لهم أرحاما ، إن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد .

قالت : ثم غدا عليه من الغد ، فقال : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فسلْهم عما يقولون فيه ؟

قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا كائنا فى ذلك ما هو كائن ، قالت :

١- أى : ابتلت ، وأخضلوا مصاحفهم ، كما تقول أخضل المطر الأرض إذا بلها .

٢- المشكاة الثقب الذى يوضع فيه الفتيل والمصباح ، وهى الكوة غير النافذة .

٣- أى جماعتهم معظمهم .

فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم ؟

قالت : فقال جعفر بن أبى طالب :

نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ : هو عبد الله ورسوله وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، قالت : فضرب النجاشى بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ماعدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود ، قالت : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، ثم أشار إلى المهاجرين قائلا لهم : اذهبوا فأنتم شيوم(1) بأرضى ، من سبكم غرم ، ثم قال : من سبكم غرم ، ثم قال : من سبكم غرم ، ماأحب أن لى دَبْرا(2) من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم .

ثم قال : مرحبا بكم ، وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى نجد فى الإنجيل ، وأنه الرسول الذى بشر به عيسى ابن مريم ، انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذى أحمل نعليه . وأمر لنا بطعام وكسوة ثم قال : اذهبوا فأنتم آمنون(3).

ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فو الله ما أخذ الله منى الرّشوة حين رد على ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ، وماأطاع الناس فىّ فأطيعهم فيه(4)

١- لشيوم : الآمنون .
٢- قال ابن هشام : ويقال : دبرا من ذهب والدبر بلسان الحبشة : لجبل .
٣- سبل الهدى والرشاد : للإمام محمد .. الصالحى الشامى ص ٢ ص ٥٢٠ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٠٧ هـ .
٤- إشارة إلى قتل والد النجاشى ، وتولية أخيه مكانه ، ولم يولوا النجاشى محله خوفا من أن يقتلهم فباعوا النجاشى فى السوق ، فلما مات عمه لم يجدوا من ولده من يصلح للملك ، ولما خاب سعيهم لم يجدوا أمامهم بعد البحث إلا النجاشى فردوه ممن اشتراه منهم ، وألبسوه التاج ، وجعلوه ملكا عليهم وهو تفسير عبارة : « ما أخذ الله منى رشوة حين رد علىّ ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيع الناس فيه » راجع السيرة لابن هشام : ٣٦٢/١ ، وسبل الهدى والرشاد : ٥٢٣/٢ ، ٥٢٤ .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به ، وأقمن عنده بخير دار مع خير جار ، حتى قدمنا على النبى ﷺ وهو بمكة[1] .

كان من ثمرة الدعاة الأول فى بلاد الحبشة :

إسلام النجاشى .

قال ابن اسحاق : اجتمعت الحبشة فقالوا ، للنجاشى : إنك قد فارقت ديننا وخرجوا عليه ، قال : فارسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنا ، وقال اركبوا فيها ، وكونوا كما أنتم فإن هزمت ، فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا ، ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه هو يشهد : أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبه ورسوله ، ويشهد أن عيسى ابن مريم عبده ورسوله ، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم ثم جعله فى قبائه عند المنكب الأيمن وخرج إلى الحبشة ، وصفوا له - أفسهم يريدون خلعه من الملك - فخاطبهم النجاشى قائلا :

يامعشر الحبشة ، ألست أحق الناس بكم قالوا : بلى ، قال : فكيف رأيتم سيرتى فيكـم ؟ قالوا : خير سيرة ، قال : فمالكم ؟ قالوا : فارقت ديننا ، وزعمت أن عيسى عبد .

قال : فما تقولون أنتم فى عيسى ؟

قالوا : نقول هو ابن الله ، فقال النجاشى : ووضع يده على صدره على قبائه :

هو يشهد أن عيسى ابن مريم لم يزد على هذا شيئا ، وإنما يعنى ما كتب ، فرضوا

١- السيرة لابن هشام : ٣٥٧/١ ، وما بعدها ، وسبل الهدى والرشاد ص ٢ ص ٥١٧ ومابعادها .

وانصرفوا ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فلما مات النجاشي صلى رسول الله عليه واستغفر له .

قال ابن اسحاق : حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت :

لما مات النجاشي كان يتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور(1) .

رجوع المهاجرين من الحبشة :

سمع المهاجرون بإسلام أهل مكة ففرحوا ، وعلى الفور حزموا أمرهم ، وقفلوا راجعين إلى مكة قائلين : عشائرنا أحب إلينا ، كما أن الحنين إلى أرض الوطن كان يدعوهم إليه ، فخرجوا قاصدين مكة حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما قد سمعوه من إسلام أهل مكة باطل ، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوار ، أو مستخفيا(2) .

الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة :

وكتاب الرسول ﷺ إلى النجاشي :

أخرج ابن سعد(3) قال : لما قدم أصحاب النبي ﷺ مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائرهم ، ولقوا منهم أذى شديدا ، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج مرة ثانية الى الحبشة ، فكانت هجرتها الأخيرة تلك أعظمهما مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفا شديدا ، ونالوهم بالأذى ، واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم .

فقال عثمان بن عفان : يارسول الله فهجرتنا الأولى ، وهذه الأخرى إلى النجاشي ولست معنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنتم مهاجرون إلى الله وإليّ لكم هاتان الهجرتان جميعا ، قال عثمان رضي الله عنه : فحسبنا يارسول الله .

1- السيرة لابن هشام : ١/٣٦٣ وما بعدها ، وسبل الهدى والرشاد : ٢/٥١٧ .
2- راجع فقه السيرة للدكتور سعيد محمد رمضان البوطي ص ١٠٠
3- الطبقات : ١/١٣٨ .

وبلغ عدة من خرج فى هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ، ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية ، أقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشى فى أحسن جوار ، فلما سمعوا بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم : ثلاثة وثلاثون رجلا ، ومن النساء ثمانى نسوة فمات منهم رجلان بمكة وحبس بمكة سبعة نفر ، وشهد منهم بدرا أربعة وعشرون رجلا .

فلما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشى كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام وبعث به مع عمرو بن أمية الضمرى ، فلما قرئ عليه الكتاب أسلم ، وقال :

لو قدرت أن آتيه لأتيته ، وكتب إليه رسول الله ﷺ أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ابن حرب ، وكانت فيمن هاجر إلى أرض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش ، فتنصر هناك ، ومات فزوجه النجاشى إياها ، وأصدق عنه أربعمائة دينار ، وكان الذى ولى تزويجها :

خالد بن سعيد بن العاص ، وكتب إليه رسول الله ﷺ أن يبعث إليه من بقى عنده من أصحابه ويحملهم ففعل ، وحملهم فى سفينتين مع :

عمرو بن أمية الضمرى ، حتى إذا وصلوا إلى المدينة وجدوا رسول الله ﷺ بخيبر ، فشخصوا إليه فوجدوه قد فتح خيبر ، فكلم رسول الله ﷺ المسلمين أن يدخلوهم فى سُهمانهم ففعلوا[1] .

أهمية الهجرة إلى الحبشة ، وأثرها :

١- الطبقات : ١٣٨/١ ، ١٣٩ ، وأما كتاب الرسول ﷺ إلى النجاشى فسوف أتحدث عنه فى الجزء الثانى (الدعوة فى المدينة) إن شاء الله .

أما أهميتها فتظهر فى :

(١) أن الدعوة فى مكة لم ترض بالاضطهاد والعذاب ، أو الذلة والمسكنة ،

(٢) ولم يقبل أصحابها أن يعيشوا على هامش الحياة كسالى منبوذين ، أو عالة على غيرهم متهاونين ؛ لأن دعوتهم جاءت لتعيش بين الناس ومع الناس توضح لهم الصواب من الخطأ ، الحلال من الحرا م ، .

(٣) يشهد لما سبق أن الدعوة حينما هاجرت لم تعتزل الناس ، وتتقوقع كما يستكين بعض المسلمين اليوم ، وينصرفوا عن أهداف دينهم وما يدعوهم إليه ، إنها لم تخش المواجهة بالرغم من أنها غريبة ، وفى أرض بعيدة ، وإنما صرح دعاتها – حين طلب منهم – وعلى رأسهم سيدنا جعفر .. حقيقة الدعوة وأنها جاءت بعقيدة التوحيد ، وفى وسط قوم متعصبين لدينهم ، يعتقدون ألوهية المسيح ، أو بنوته .

(٤) كان فى خروج الدعوة من الجزيرة إلى الحبشة إرهاص بأنها ستخرج إلى العالم الخارجى الفسيح .

(٥) الإيثار ، فقد ضحى المهاجرون بممتلكاتهم وأموالهم ، وكل متاع الدنيا التى يحرص عليها إنسان اليوم ، بكل قوة ، وخرجوا مؤثرين ما عند الله وفيهم نزل :

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعةً ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما »[١] .

١- النساء : ١٠٠ .

(٦) دور النساء اللائى آثرن الهجرة مع أزواجهن ، وهو نوع فريد من التضحية والفداء ، حبذا لواقتدت به نساءالمسلمين اليوم مع أزواجهن .

(٧) صدق توجيهات الرسول ﷺ حين أشار على صحابته فى التوجه إلى أرض الحبشة دون غيرها من أرض الله الواسعة ، واختيار النجاشى بالذات واتضح أنه اختيار صاحبه التوفيق ، إذ لم تستطع حاشيته أن تخدعه من أجل هدايا المبعوثين .

(٨) تطلع المهاجرين ، وحنينهم إلى ديارهم ، وسرعة حضورهم إلى مكة فور سماعهم دخول أهل مكة الإسلام ، وهذا دليل على أن الهجرة كانت من أجل الفراربالدين وخوف الفتنة والاضطهاد .

أما الأثر الذى يؤخذ من هجرة المسلمين إلى الحبشة فيتمثل فى :

١- أن الدين مصدر كل قوة ، ومن أجل ذلك لزم تجنيد كل الإمكانيات المادية والمعنوية لحمايته ، وحماية مبادئه ، والتضحية بالوطن والأرض لتسلم العقيدة من كل شر .

٢- إن الدين إذا ضاع ، أو غُلب ، لم يغن من ورائه وطن ولا مال إذ سرعان ما يذهب كل هذا كما قال الشاعر :

إذا الإيمان ضاع فلا أمانا

ولا دنيا لمن لم يحى دينا

ومن رام الحياة بغير دين

فقد رضى الفناء لها قرينا

فالدين هو لحم الانسان ودمه ، يجب أن يحافظ عليه حفظه عليهما أو أشد .

٣- الأمة الغنية فى خلقها وعقيدتها ، يقوى سلطانها المادى ، ويغدو أكثر تماسكا ،

وأما إذا كانت فقيرة فى خلقها ، ضعيفة فى عقيدتها ، ضعف سلطانها المادى ، وأصبح أقرب إلى الاضمحلال والضياع ، ومكتسباتها المادية أسرع إلى الزوال وحوادث التاريخ خير شاهد ، فكم من أمة كانت قوية بسلطانها المادى فقيرة فى عقيدتها كان مصيرها الزوال كالفرس والروم ، والأمة العثمانية فإنها لما تهاونت فى عقيدتها ، كان مصيرها النسيان ، إن عين التاريخ ساهرة تبصر تحركات الأمم خطوة بخطوة ، فهى ليست كعين الإنسان التى لا تبصر إلا ما حولها ، ولفترة ما ثم تنسى .

٤- مما يحفظه التاريخ عن الأمم التى تعرت عن كل مقوماتها المادية : من ثروة وعدة وعتاد ومال لكنها حرصت على عقيدتها حرصها على حياتها ، لم تمض فترة من الزمن حتى ارتفع شأنها ، وغدا اسمها يملأ السمع والبصر ، فاستردوا شخصيتهم ومكانتهم ، ومقوماتهم المادية تلك الأمة هى أمة الإسلام ، والتى تحقق فيها قول الله عز وجل :

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض »[1] .

٥- من أجل هذا اختبر الإسلام أتباعه فشرع لهم مبدأ الهجرة ، ليظهر معدنهم ويطهرهم من الأنانية .. ثم لما خشى عليهم من الفتنة فى الدين أمرهم بالخروج من وطنهم الأصلى إلى وطن يأمنون فيه ، فأى وطن يؤدى المسلم فيه ويمارس عبادته فهو وطن له .

٦- حكم الهجرة من دار الإسلام بين الوجوب والجواز والحرمة .

أما الوجوب : فيكون عند عدم تمكن المسلم من القيام بشعائر الإسلام كالصلاة

١- القصص : ٥ ، ٦

والصيام والأذان والحج ..

وأما الجواز : فيكون عندما يصيبه فيها بلاء يضيق به ، فيجوز له أن يخرج منها إلى دار إسلامية أخرى .

وأما الحرمة : فتكون عندما تستلزم هجرته إهمال واجب من الواجبات الإسلامية لا يقوم به غيره[1].

٧- إخلاص النجاشي في عقيدته النصرانية ، فمن كان مؤمنا بدين المسيح عليه السلام حقا لابد أن يؤمن بمحمد ﷺ لماذا ؟ .

أ- لأن المسيح عليه السلام بشر بمحمد[2] ﷺ كما ثبت في القرآن الكريم « ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد .. »[3]

ب- قوله تعالى : « .. يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم ... »[4] .

ولذلك أقر النجاشي بما جاءت به التوراة وأقر به الإنجيل ، إذ من إقامتها الاعتراف بمحمد ﷺ ومن ثم قال : إن هذا والذي جاء به عيسى ابن مريم ليخرج من مشكاة واحدة .

لقد نجح الدعاة الأول في أرض الحبشة في شرح الإسلام والاعلان به . على مسمع ومرأى من بطارقته .

٨- جواز دخول المسلمين في حماية غير المسلمين إذا دعت الضرورة إلى ذلك سواء

١- تفسير القرطبي : ٣٥/٥ ، وأحكام القرآن لابن العربي : ٨٨٧/٢ نقلا عن فقه السيرة للدكتور محمد سعيد البوطي ص ١٠٦ .

٢- راجع فصل البشارات من هذا البحث ص .

٣- الصف : من الآية : ٦ .

٤- المائدة : ٦٨ .

كان المجير من أهل الكتاب كالنجاشى ، أو كان مشركا كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة فى حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة ، وكالمطعم بن عدى الذى دخل رسول الله ﷺ مكة فى حمايته عندما رجع من الطائف .

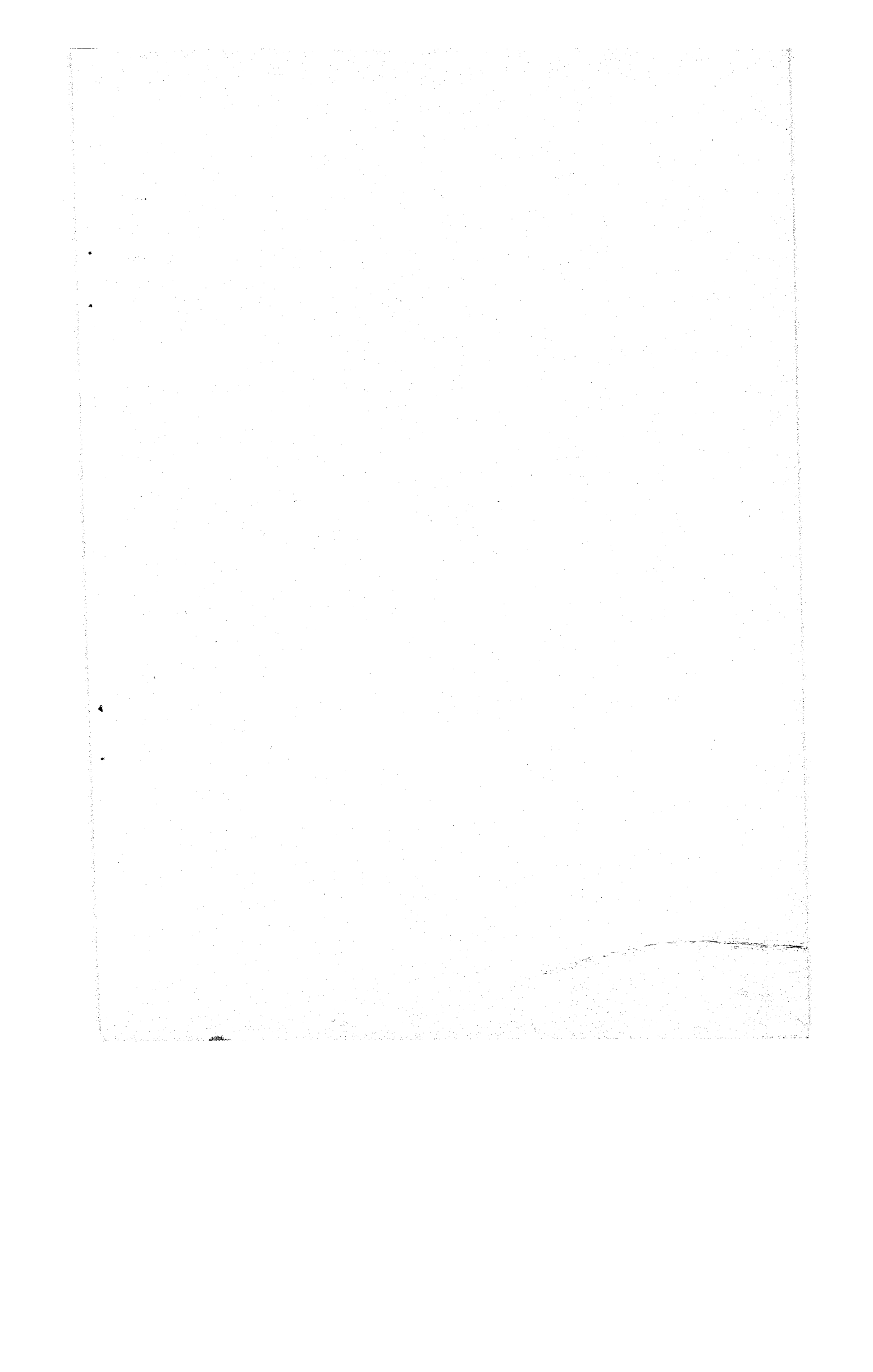
لكن كل هذا مشروط بأن لا يستلزم من وراء هذه الحماية إضراراً بالدعوة ، أو تغييرا لبعض أحكام الدين ، أو تعطيلها ، أو الوقوف فى وجهها ، أو السكوت على بعض المحرمات ، وإلا لم يجز على المسلم الدخول فيها .

الدليل على ماسبق : موقف رسول الله ﷺ من عمه أبى طالب عندما قال له : ابق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق فظن أن عمه خاذله فقال هذه الكلمة التى دوت فى أرجاء الجزيرة ووعاها سمع الزمان ، وسجلها التاريخ :

« والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وهكذا لم يسكت ﷺ على شئ مما يجب عليه بيانه وإيضاحه[1] .

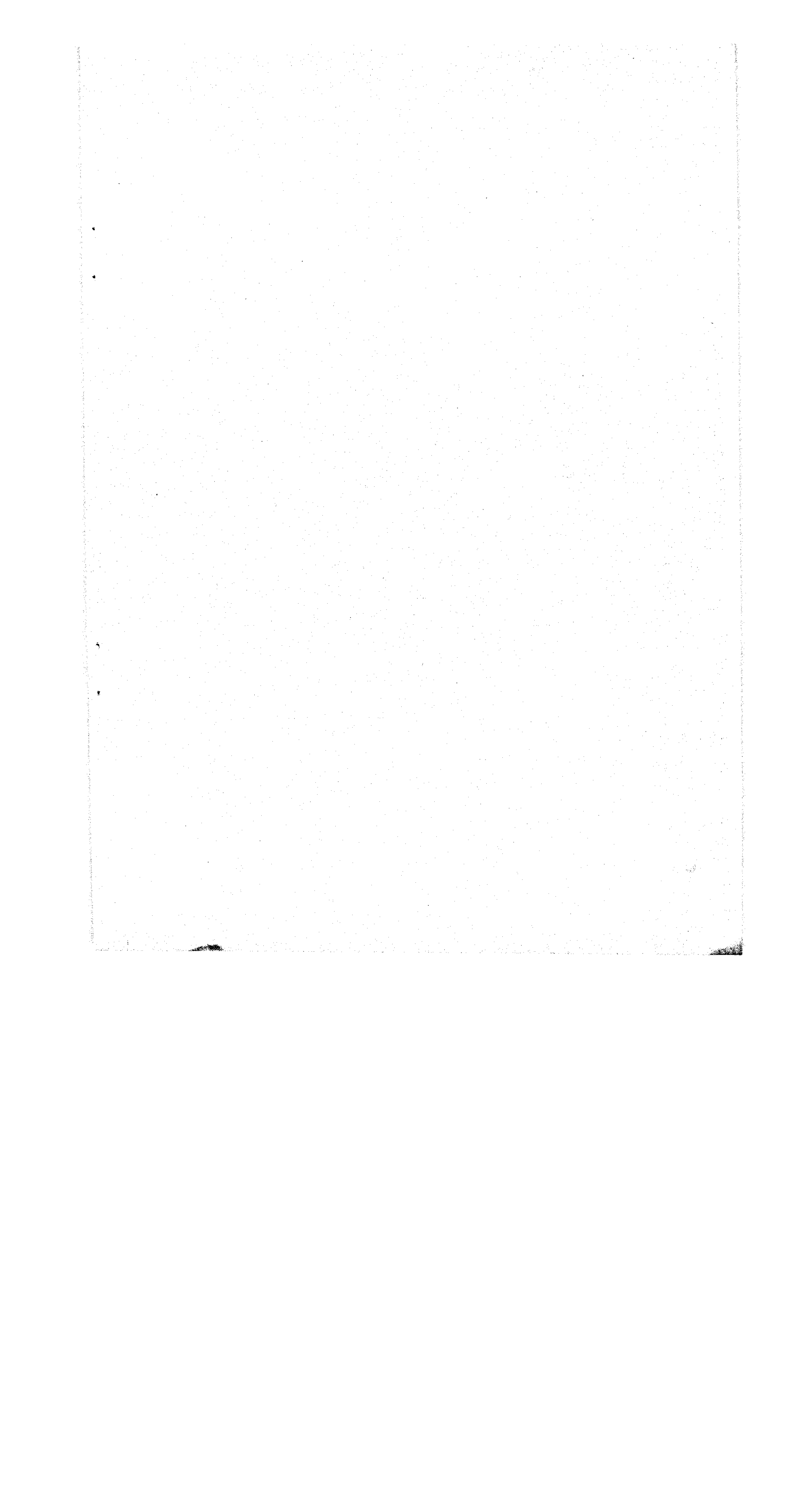
١- فقه السيرة د/ البوطى ص ١٠٢ .



الفصل الثامن

العقبات التى واجهت الدعوة فى مكة

الدفاع ضد الدعوة - تحدى الرسول لأهل مكة - موقف الإسلام
من المستضعفين - عقاب الله للمستهزئين - عدم اليأس من تبليغ
الدعوة - دعوة الرسول لأبى جهل - الرسول يهدد أبا جهل -
عصمة محمد ﷺ - مطالب المكيين - الجواب



العقبات التى واجهت الدعوة .. فى مكة :

قال العليم الخبير :

« إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولاتطع منهم أثما أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا .. »[1] .

إن الإسلام عقيدة قلوب ، ومنهج تربية لهذه القلوب ، والعاطفة الكريمة تهذب صاحبها ، وتنفع من يوجهها إليه من إخوانه ..

وفى هذه الآيات الأربع تكمن حقيقة كبيرة عن الدعوة الإيمانية . حقيقة ينبغى أن يعيشها الدعاة إلى الله طويلا ، وأن يتفهموها بعمق ..

لقد واجه الرسول ﷺ المشركين بالدعوة إلى الله وحده ، ولم تكن هذه المواجهة فى نفوسهم مجرد عقيدة ، وإنما الملابسات والغموض التى كانت تلف حياتهم هى التى كانت تقود إلى تلك المعارضة العنيدة مثل :

أ- المكانة الاجتماعية .

ب- الاعتزاز بالقيم السائدة فى البيئة .

جـ- صور الحياة الجاهلية ، ومتاعها ولذائذها وشهواتها .

د- الإلف والعادة في اتخاذ نمط من الحياة فى الفهم لتراث الآباء والأجداد .

هـ- التشبث بالقديم مهما كان مجانبا للصواب .

كل هذه القيود ، وما يتعلق بها ، كانت قائمة فى وجه الدعوة منذ فجرها الأول ، وهى قائمة وتقوم فى وجه الدعوة فى كل أرض وفى كل جيل ...

فعلى الدعاة إلى دين الله فى كل أرض ، وفى أى زمان أن يعوا تماما الدروس المستفادة من مواقف رسول الله ﷺ ..

١- سورة الإنسان : ٢٣ - ٢٦ .

لقد تلقى رسول الله ﷺ التكليف من ربه لينذر ، وقيل له : « يا أيها المدثر قم فأنذر » .

فلما أن نهض بالتكليف واجهته تلك العوامل والأسباب لأن القوم وجدوا فى الدعوة الجديدة ما يثير فى نفوسهم التشبث بما هم عليه ، ويقودهم إلى العناد الشديد ، ثم إلى الدفاع المستميت عن معتقداتهم ، وأوضاعهم ، ومكانتهم ومصالحهم . ومألوف حياتهم ولذائذهم ، وشهواتهم(1) ... إلخ .

من صور الدفاع ضد الدعوة :

أولا : بدأ الإيذاء للفئة المؤمنة التى استجابت للدعوة الاسلامية ومحاولة فتنتها عن عقيدتها بالتعذيب والتهديد .

ثانيا : تشويه هذه الدعوة ، وإثارة الغبار حولها وحول نبيها ﷺ ، بشتى التهم والأساليب ... لانصراف الناس عنها .

ثالثا : محاولة إغراء صاحب الدعوة بطرق شتى لصرفه عن تبليغ ما أمر به ..

رابعا : التهديد والوعيد عن طريق عمه ، أو الانتقام من أصحابه وكلها عقبات ظهرت من نفوس وضيعة لعرقلة مسيرة الدعوة ونجاح أهدافها(2) ومثل هذه الوسائل قد يتعرض لها اليوم صاحب الدعوة إلى الله فى كل أرض وفى كل جيل !

وتتضمن هذه الآيات الكريمة دلالات ذات هدف وتوجيه :

الدلالة الأولى :

أن مصدر التكليف بهذه الدعوة هو الله فهو سبحانه مصدرها الوحيد ، ... ثم إن الله الذى نزل هذا القرآن ، وكلف بهذه الدعوة لن يتركها . ولن يترك الداعى إليها ، وهو كلفه ، وهو نزل القرآن عليه .

1- راجع الظلال سورة الإنسان .

الدلالة الثانية :

« فاصبر لحكم ربك . ولاتطع منهم آثما أو كفورا » .

إن الأمور تجرى بقدر الله ، وهو يمهل الباطل ، ويملى للشر ، ويطيل أمد المحنة على المؤمنين ابتلاء وتمحيصا ... « أحب الناس أن تتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »[1] .

ومن ثم قال الله لرسوله :

« فاصبر لحكم ربك » اصبر على الأذى والفتنة .. اصبر ولاتستمع لما يعرضونه من المصالحة والالتقاء فى منتصف الطريق على حساب العقيدة : « ولاتطع منهم آثما أو كفورا » فإنه لا لقاء بينك وبينهم للهوة التى تفصل بين منهجك ومنهجهم . والصبر شاق ولابد من الزاد والمدد المعين فقال له :

« واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » .

هذا هو الزاد ذكر لله فى الصباح والمساء وسجود له سبحانه بالليل ، إنه الاتصال الدائم بالمصدر الذى نزل عليك القرآن ، وكلفك الدعوة ، الاتصال به : ذكر وعبادة وتسبيح .. ليلا طويلا .. فالطريق طويل ، والعبء ثقيل ، ولابد من الزاد الكثير ، والمدد الكبير .

الدلالة الثالثة :

بما أن التكليف بهذه الدعوة إنما نزل من عند الله ، وهو صاحبها ، فإن الحق الذى نزلت به لايمكن مزجه بالباطل الذى يدعو إليه الآثمون الكفرة ...

فالصبر حتى يأتى الله بحكمه ، والاستمداد من الله ، والاستعانة بالدعاء والتسبيح ليلا طويلا هو الزاد الطويل الطريق[2] ..

١- العنكبوت : ٢ ، ٣ .

٢- سورة الإنسان .

تحدى رسول الله (١) لأهل مكة :

لقد ظل موقف الدعوة الإسلامية منذ بزغ فجرها فى مكة موقفا إيجابيا ، فصمدت أمام أسلحة سادة قريش ، وأصحاب المصالح ، صمودا شهد له التايخ بالعظمة والفخار ، فها هى الفئة المؤمنة تقف أمام أسلحة التهكم والاستهزاء التى شهروها فى وجهها ، صامدة غير مبالية ، ولا خائفة .

يقول ابن اسحاق :

« إن قريشا اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله ﷺ ، ومن أسلم معه منهم ، فاغروا برسول الله ﷺ سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر ، والكهانة والجنون » .

وسئل ابن العاص عن أكثر ما رأى قريشا وقد أصابت من رسول الله ﷺ ؟ فقال :

« حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا :

ما رأينا مثل ماصبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط : سفه أحلامنا ، وشتم أباءنا ، وعاب ديننا ، وفرّق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم .. فبينما هم فى ذلك ، إذا طلع رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مَرَّ بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه - أى طعنوا فيه - ببعض القول ، قال :

فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ ، قال : ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ، ثم قال :

« أتسمعون يامعشر قريش ، أما والذي نَفْسِي بيده لقدجئتكم بالذبح » .

قال : فأخذت القوم كلمته ، حتى مامنهمْ رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع

حتى أن أشدهم فيه وَصَاةً ، قبل ذلك لَيَرْفؤه[1] بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم فوالله ماكنت جهولا ، قال فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغداة اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم ، فتلاوموا ...

فبيناهم فى ذلك طلع رسول الله ﷺ ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون :

أنت الذى تقول كذا وكذا ، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله ﷺ : « نعم أنا الذى أقول ذلك » .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه ، قال : فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه دونه ، وهو يقول :

أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط[2] .

لقد تمادى الظالمون من أهل مكة فى غيهم ووضعوا العقبة تلو الأخرى فاستخدموا :

أ- سلاح التهكم على مبادئ الدعوة الجديدة لتنفر الناس منها ، ولاسيما من كانوا غير خاضعين لسلطان طبقة السادة .

ب- سلاح البطش بكل من يستجيب لهذه الدعوة من طبقة العبيد والمستضعفين من مواطنى مكة أو رعاياها ..

جـ- سلاح التصدى للدعوة حتى تعوق سيرها ، ولايستفحل خطرها .

د- سلاح المساومة طمعا فى أن يكف محمد ﷺ عن دعوته فيستريحوا وتطمئن

١- يهدئه ويسكنه.

٢- السيرة لابن هشام : ٣١٠/١/٣١١ .

قلوبهم[1] .

هذا بالإضافة إلى أسلحة أخرى شهرتها قريش فى وجه الدعوة كالحرب النفسية منذ فجرها حتى فتح مكة ، ولئن كان فرعون بمفرده استخف قومه فأطاعوه ، فقد كان فى مواجهة الدعوة .. فراعنة استخفوا أقوامهم فأطاعوهم ، والقرآن الكريم يسوق لنا صورة حوار لما سيحدث بين السادة والعبيد ، أو المستكبرين والمستضعفين فى كل زمان ومكان ليتضح أن عذر المستضعفين مرفوض ، ثم ليوجهنا نحن المسلمين وجهة صحيحة فى قضية العبودية أو **موقف القرآن من المستضعفين والمستكبرين :**

« وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنامن عذاب الله من شئ ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص »[2] .

ويقص القرآن الكريم هذا الحوار بين المستضعفين والمستكبرين :

« يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين .

قال الذين استكبرو للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين .

وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعلمون »[3] .

إن المستضفين كثرة ، والطواغيت المتكبرين قلة ، فمن ذا الذى يخضع الكثرة للقلة؟

١- حياة محمد ﷺ ص ١٨٤ ، والهجرة .. ص ١٢٨ .

٢- إبراهيم : ٢١ .

٣- سبأ : ٣١ - ٣٣ .

إنما هو : ضعف الروح فى الكثرة ، وسقوط الهمة فيهم ، وقلة النخوة لديهم ، والتنازل عن كرامتهم ، التى وهبها الله للإنسان .

إن المستكبرين المتسلطين لايملكون إذلال الجماهير إلا برغبتهم ....

إن الذل لاينشأ إلا عن قابلية للذل فى نفوس الأذلاء ... وهذه القابلية هى التى يعتمد عليها الطغاة المستكبرون ، والأذلاء هنا على مسرح الآخرة فى ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم :

« إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ ؟ ؟ » .

وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم[1] ؟!

ويظل المستضعفون المتخاذلون يلقون بالتبعة على المستكبرين ، حتى يضيق بهم المستكبرون ؛ فهم فى البلاء سواء ، وعندئذ يردون عليهم باستنكار ، يجبهونهم بالسب الغليظ :

« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟

بل كنتم مجرمين » .

لقد تشجع المستضعفون إذن لكن متى ؟ يوم القيامة يوم تسقط القيم الكاذبة والتكبر الزائف .

« قال الذين استضعفوا للذين استكبرو : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا » .

ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء ، أن هذا الحوار اليائس لاينفع هؤلاء ، فلكل جريمته وإثمه . المستكبرون عليهم وزرهم ، وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم ، والمستضعفون

١- راجع الظلال : ص ٢٠٤٦ .

١- راجع الظلال : ص ٢٠٤٦ .

عليهم وزرهم ، فهم مسئولون عن اتباعهم للطغاة .. لقد كرمهم الله بالإدراك والحرية فعطلوا الإدراك ، وباعو الحرية ، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولا ... فاستحقوا العذاب ...(١)

« وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ »(٢) .

وقبل أن يسدل الستار تطالعنا سورة غافر بحال الضعفاء والمستكبرين أين ؟ فى النار : الضعفاء والمستكبرون معاً !! ونسمع الاحتجاج من الطرفين « وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟ »(٣) .

إن الضعفاء إذن فى النار مع الذين استكبروا . لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولا وإمعات .. لقد منحهم الله الكرامة .. لكنهم تنازلوا عنها ، وساروا وراء الكبراء والملأ والحاشية لم يقولوا لهم : لا ، ولم يفكروا فيم هم منساقون إليه .. ولما يشتد التثريب والعتاب من المستضعفين يضيق المستكبرون بهم ذرعاً ، فيجيبونهم فى ضيق واستكبار :

« قال الذين استكبروا : إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد » .

إنا كل فى هذا الكرب والضيق سواء ، فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعفاء سواء؟

« وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب » .

إنهم جميعاً يستشفعون حراس جهنم ليدعوا ربهم ، وفى رجاء يكشف عن شدة البلاء ، ولكن خزنة جهنم لايستجيبون لضراعتهم ، بل يقولون لهم فى تأنيب :

١- الظلال : ٢٩٠٩/٥ .

٢- سبأ : ٣٣ .

٣- غافر : ٤٧ .

« .. أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى » .

فعندئذ ينفض خزنة جهنم أيديهم منهم ساخرين مستهزئين بهم قائلين : « قالوا : فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

أى : لايبلغ ولايصل ، ولاينتهى إلى جواب . إنما هو الإهمال والإزدراء للكبراء والضعفاء على حد سواء(١).

فهل نتدبر حقا هذه الآيات ونجريها على قلوبنا مرة أخرى حتى لانقع فيما وقع فيه الضعفاء والكبراء ؟

« وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبرا : إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟

قال الذين استكبروا : إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباده .

وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوم من العذاب قالوا : أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى .

قالوا :فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال »(٢) .

فهل ترك الله سبحانه المستهزئين برسوله ؟ كلا ، بل عاقب أشدهم بأساً ، وجرأة على رسول الله ﷺ :

عقاب الله للمستهزئين برسوله ﷺ :

لم يكد رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة فى مكة حتى أنبرى له أعداء من مختلف الطبقات يهاجمون الحق ، ولايخضعون له ، لايهتدون ببرهان ، ولايقنعون بحجة ولامعجزة وكان أشدهم على رسول الله ﷺ من عظمائهم خمسة نفر كانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم ، وهم :

١- راجع الظلال : ٣٠٨٤/٥ .

٢- غافر : ٤٧ - ٥٠ .

١- الأسود بن المطلب بن أسد ، أبو زمعة ، وهو من بنى أسد بن عبد العُزّى بن قصى ابن كلاب .

دعا عليه النبى ﷺ ، لما كان يلحقه من أذاه ، واستهزائه به ، فقال : « اللهم أعْم بصره وأثكله ولده » .

٢- الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف ابن زهرة من بنى زهرة بن كلاب .

٣- الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، من بنى مخزوم بن يقظة ابن مرة .

٤- العاص بن وائل بن هشام ، من بنى سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب .

٥- الحرث بن الطُّلاطِلة من بنى خزاعة ، وهو والد مالك أحد المستهزئين بالنبى ﷺ .

قال ابن اسحاق : والطلاطلة : أمه [1] .

فلما تمادوْا فى الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى :

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهْزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون »[2] .

قال ابن اسحاق : إن جبريل - عليه السلام - أتى رسول الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت فقام ، وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه فمر به : الأسود بن المطلب ، فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعمى ، ووجعت عينه ، فجعل يضرب برأسه الجدار . ومر به : الأسود بن عبد يغوث .

فاشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه حَبَنًا[3] .

ومر به : الوليد بن المغيرة ، فأشار إلى إثر جُرْح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه

١- راجع السيرة لابن هشام : ٢/١٦ .

٢- الحجر : ٩٤ - ٩٦ .

٣- الَحبن : داء فى البطن ينتفخ منه ويعظم فيرم ، وحبُن المفعول : عظم بطنه بالماء الأصفر ، فهو أحبن ، المرأة حبناء .

قبل ذلك بسنين ، وهو يجر إزاره كبرا واختيالا .

وذلك أنه مر برجل من خزاعة ، وهو يريش نَبْلاً له ، فتعلق سَهْم من نبله بإزاره فخدش فى رجله ذلك الخدش ، وليس بشئ فانتقص[1] به فقتله .

ومر به : العاص بن وائل ، فأشار إلى أخمص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف فربض بن على شِبْرِقة[2] ، فدخلت فى أخمص رجله شوكة فقتلته .

ومر به : الحرث ابن الطُّلاطلة ، فأشار إلى رأسه فامتخط قيحا فقتله .

قال القسطلانى :

« ويقال : أكل حوتا مملوحا فمازال يشرب حتى انْقَدّ بطنه ، وقيل : أخذه الماء الأصفر فى بطنه حتى خرج خرؤه من فيه فمات » ا .هـ[3]

أخرج محمد بن اسحاق بسنده إلى ابن عباس قال : كان رأسهم : الوليد بن المغيرة ، وهو الذى جمعهم[4] .

وقوله سبحانه : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمدك ربك وكن من الساجدين »[5] .

١- انتفض الجرح : تجدد بعد ما دمل وبرئ .

٢- شبرقة : نبات حجازى ذو شوك يقال له : الضريع ، وفى المواهب : « فدخلت فيه شوكة من رطب الضريع » .

٣- السيرة لابن هشام : ١٧/٢ .

٤- راجع تفسير ابن كثير : ٥٦٠/٢ ط الحلبى ، والقرطبى : ٣٦٧٨/٤ .

٥- الحجر : ٩٧ ، ٩٨ .

أى وإنا لنعلم يامحمد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض فلا يهيدنك ذلك ، ولا يثنينك عن إبلاغك عن رسالة الله ودعوته ، وتوكل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم ، فاشتغل بذكر الله وتحميده ، وتسبيحه وعبادته ، التى هى الصلاة ، ولهذا قال :

« فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين »(١) .

١- تفسير ابن كثير : ٢/٥٦٠ .

عدم اليأس من تبليغ الدعوة .. :

لم ييأس رسول الله ﷺ من تبليغ دعوة الله بالرغم من العقبات التى وضعت فى طريقه ومن تشبث الكفار بباطلهم ، وصلابتهم فى الضلال ، بل ظل يواصل العمل الدءوب ، دون ملل أو فتور ، ولو أصابه ضجر أو فتور لظن الكفار أنهم على الحق ..

ولو تعطلت الرسالة لكان فى ذلك هزيمة للحق أمام الباطل ، وقد ألزم الله عز شأنه أن يحق الحق ويبطل الباطل ، ولو طال الأمد على الفساد والمفسدين والأدلة كثيرة وواضحة :

انتصار دين الإسلام منذ فجر دعوته وقيام رايته خفاقة على الرغم من محاولات الكفار أن ينكسوها ، ويطمسوا معالم الحق الأبلج ، وعاش وسيعيش ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ويظهر دينه الحق على الدين كله ولو كره المشركون .

لقد صدق محمد ﷺ فى دعوته ، وصبر أمام جحافل المكذبين ، والمستهزئين والغافلين ، والقرآن يشد من أزره حينا ويترفق به حينا آخر :

يقول سبحانه :

« يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر »(١) .

« إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم »(٢) .

وقد كان ﷺ يغلب رجاءه فيهم ، ويجنح دائما إلى الرحمة لقوله سبحانه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »(٣) .

أن المصلحين فى عهد موسى عليه السلام كانوا يقولون للداعين إلى الإيمان :

١- المائدة : ٤١ .

٢- يونس : ٩٦ ، ٩٧ .

٣- الأنبياء : ١٠٧ .

« لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا »(١) .

فيرد الدعاة عليهم قائلين :

« معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون »(١) . أى أننا نقوم بواجبنا ترضية لله عز شأنه ، وطمعا فى تحقق الإيمان بسبب دعوتنا .

ومع هذا الإشفاق من جانب محمد ﷺ على قومه وعشيرته ، لم يزدهم هذا الإشفاق إلا تبجحا ، وتمنوا أن لو كانت هذه الرسالة نزلت على رجل من القريتين عظيم أحدهما : حبيب بن عمرو الثقفى من الطائف ، والآخر : الوليد بن المغيرة من مكة وهما من رؤوس الكفر والطغيان .

ويقص الله مقالتهم « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتن عظيم » فيرد الله عليهم :

« أهم يقسمون رحمة بك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات »(٢) .

والمعنى : هل هؤلاء السفهاء المتهافتون .. يملكون تقسيم رحمة الله بين عباده ؟ وهل الرسالة من شئونهم التى يتطاولون اليها ؟ نحن قسمنا حظوظهم بحكمتنا وجعلنا بينهم تفاوتا فى دنياهم .. لكن غاب عن عقولهم السادرة فى كبريائها أن الرسالة ليست مطمع الأنظار ، ولامما يدرك بالتمنى ، والمحاولات ، كما أنها لاتورث .. وإنما هى فضل يصطفى الله له من يشاء من عباده(٣) .. فـ« الله أعلم حيث يجعل رسالته »(٤) .

١- الأعراف ١٦٤ .

٢- الزخرف : ٣٢ .

٣- الوحى الى الرسول ﷺ ص ١١٢ ومابعدها .

٤- الأنعام : ١٢٤ .

دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل للأسلام :

١- روى الإمام البيهقى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ - رأى أبا جهل يمشى يصحبه المغيرة بن شعبة :

« فقال رسول الله - ﷺ - لأبى جهل :

يا أبا الحكم ، هلم الى الله وإلى رسوله ، أدعوك الى الله فقال أبو جهل :

يامحمد ، هل أنت منته عن سب آلهتنا ، هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت ، فو الله لو أنى أعلم أن ماتقول حق لاتبعتك » .

رسول الله ﷺ يهدد أبا جهل :

٢- روى أحمد والترمذى والنسائى وابن جرير - وهذا لفظه - من طريق داود بن هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس - رضى الله عنهم - قال :

« كان رسول الله - ﷺ - يصلى عند المقام ، فمر به أبو جهل ابن هشام ، فقال :

يامحمد ، ألم أنهك عن هذا .. ؟ وتوعده ، فأغلظ له رسول الله - ﷺ - وانتهره ، فقال : يامحمد ، بأى شئ تهددنى ؟ أما - والله - إنى لأكثر هذا الوادى ناديا .

فأنزل الله ، « فليدع ناديه . سندع الزبانية » .

وأورد الإمام الطبرى - بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنهم - قال : قال أبو جهل : لئن عاد محمد يصلى عند المقام لأقتلنه .

فأنزل الله - عز وجل :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق - حتى بلغ هذه الآية :

(لنسفعا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه سندع الزبانية)[١] .

١- المرجع السابق .

والآيات من سورة العلق ، وصدرها أول ما أنزل[1] ..وختامها شاهد للصلاة من قديم حيث يقول المولى سبحانه : « كلا لاتطعه واسجد واقترب » .

عصمة محمد ﷺ فى دعوته :

خاطب الله سبحانه رسوله محمدا ﷺ فى القرآن الكريم بلفظ النبوة أو الرسالة ، حتى تكرر ذلك نحو مائتى مرة ..

وهذه خصوصية لمحمد ﷺ من بين إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما قال سبحانه : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض »[2] .

إنهم كلهم رسل الله ، فهم حقيقيون بأن يتبعوا أو يتقدى بهداهم ، وان امتاز بعضهم على بعض بما شاء الله من الخصائص فى أنفسهم وفى شرائعهم وأممهم[3] .

والمتفحص عند تلاوة القرآن يجد النداء على أسمائهم مجردة ، فإذا جاء ذكر محمد ﷺ خاطبة بالنبوة أو الرسالة ، أو بالصفة التى يكون عليها كقوله سبحانه :

« يا أيها المزمل »[4] .

« يأأيها المدثر »[5] .

وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

« لقد فضلنا بعض النبيين على بعض .. »[6] .

١- مما ينبغى الإحاطة به أن الآية من كتاب الله العزيز ، أو الآيات يمكن أن تنزل أكثر من مرة لسبب أو أكثر ، وانظر - مثلا - لذلك « سورة النصر » .
راجع مجلة الأزهر جـ ٧ رجب ١٤٠٦ هـ .

٢- البقرة من الآية : ٢٥٣ .

٣- تفسير المنار : ١١/٤ .

٤- المزمل : ١ .

٥- المدثر : ١ .

٦- الإسراء : من الآية : ٥٥ .

وخطاب الله لمحمد ﷺ بالنبوة أو الرسالة يفيد تأكيد نبوته ، ورسالته وتأييده فى دعوته ، وكان من هذا النداء قوله سبحانه :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لايهدى القوم الكافرين »(١) .

فقد أفاد هذه الآية الكريمة مايلى :-

ا- الأمر للنبى ﷺ بتبليغ الوحى إلى الناس سواء كان هذا الوحى قرآنا أم سنة .

ب- تحذير النبى ﷺ من إهمال التبليغ « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » .

جـ- عصمة الله عز وجل لمحمد ﷺ من الناس وفى هذا امتنان على الرسول بأنه فى كنف الله ، وعلى عينه ، وفى حماية الله من الناس .

ولقد قام رسول الله ﷺ بتبليغ الدعوة ، بكل إخلاص ، فلم يتكاسل أو يتهاون بل أدى رسالته فى أمانة ، وعلى أكمل وجه .

الدليل : شهادة القرآن نفسه بذلك فى أكثر من آية يقول سبحانه : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلاتخشوهم واخشون » .

أى قد خاب أمل الكفار فى التغلب على الاسلام ، فلا تتوجسوا خوفا من هذا .. والذين يعصم الله رسوله منهم هم الكافرون هم الخصوم .

وغير خاف أن الجن هم الشياطين الذين كانت خصومة أبيهم إبليس لآدم وبنيه أسبق جريمة فى صفحة التاريخ القديم(٢) .

فالشياطين هم النافثون لروح الشر عند الغواة الأشرار من الناس ، فلماذا تكون العصمة للرسول من الكافرين ، ولاتكون من الجن وهم أولياء الكافرين ؟

١- المائدة : ٧٦ .

٢- انشر للمؤلف : الفرق .. فى الميزان .

والحق أن العصمة كانت من الجن ، ومن الإنس جميعا .

وإنما ذكر الله الناس لأنهم حبائل الشيطان .. والكافرون بالذات هم المخالب التى ينشبها الشياطين فى خواطر الإنسان للإيقاع بنا فى مساقط الرذيلة .

وقوله سبحانه :

« وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا »[1] .

« وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون »[2] .

فبماذا تحققت عصمة الرسول ﷺ ؟

كانت عصمته سياجا كاملا لشخصه من القتل .. وحفاظا له فى رسالته من الزيغ عن الحق ، وكانت حفاظا لشريعته من التبديل والتحريف[3] .

وكان صمود رسول الله ﷺ فى الدعوة، مثار حيرة شديدة مما جعل المكيين يفتشون ، ويفكرون ، بكل الطرق للوصول الى أمر يتغلبون به على رسول الله ﷺ ، أو يثنون عزمه عن هدفه ، ومن محاولتهم تلك ماعرضوه على رسول الله ﷺ .

أخرج ابن جريرة بسنده : عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبا سفيان ابن حرب ، ورجلا من بنى عبد الدار ، وأبا البخترى أخا بنى أسد ، والأسود بن المطلب ابن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل ابن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ونبيها ، ومنبها ابنى الحجاج السهميين اجتمعوا ، أو من اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض :

١- الأنعام : ١١٢ .

٢- الأنعام : ١٢١ .

٣- راجع الوحى إلى الرسول محمد ﷺ ص ٩٩ ومابعدها .

ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك . فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بدء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم ، فقالوا يامحمد :

إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله مانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقى من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن الرئى – فربما كان ذلك بذلنا أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال رسول الله ﷺ : « مابى ماتقولون ، ماجئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » أو كما قال رسول الله ﷺ تسليما ثم انتقلوا إلى أمر آخر إذ طلبوا منه خوارق مادية .

الخوارق المادة التى طلبها الكفار تحديا : قالوا : يامحمد فإن كنت غير قابل منا ماعرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادا ولا أقل مالا ولا أشد عيشا منا فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام

والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب فإنه كان شيخا صدوقا فتسألهم عما تقول حق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ماسألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولا كما تقول فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله بما بعثنى به فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تدروه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى «وبينكم » فقالوا : فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكا يصدقك لما تقول ويراجعنا عنك وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك تبتغى فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل ما أنا بالذى يسأل ربه هذا ومابعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا فإن تقبلوا ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » قالوا : فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال لهم رسول الله ﷺ : « ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك » .

فقالوا يامحمد أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك مانطلب فيقدم إليك ويعلمك ماتراجعنا به ويخبرك ماهو صانع فى ذلك بنا إذا لم نقبلْ منك ماجئتنا به ، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وإنا والله لانؤمن بالرحمن أبدا فقد أعذرنا إليك يامحمد أما والله لانتركك ومافعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا ، وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله : وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا . فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم ، وقام معه عبد الله ابن أبى أمية ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب فقال : يامحمد عرض عليك قومك ماعرضوا فلم تقبله منهم ، ثم

سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ، ثم سألوك أن تعجل لهم ماتخوفهم به من العذاب فوالله ، لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى معك بصحيفة منشورة ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول وأيم الله لوفعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ ، وأنصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفا لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم أياه .

وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائى عن ابن اسحق حدثنى بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير ، وعكرمة عن ابن عباس فذكر مثله سواء .

لماذا لم يجبهم الله عز وجل إلى ماطلبوا ؟

الجواب :

لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادا لأجيبوا إليه ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرا وعنادا ومن ثم قيل لرسول الله ﷺ : إن شئت أعطيناهم ماسألوا فإن كفروا عذبتهم عذابا لاأعذبه أحدا من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال :-

« بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة »[1] .

ولقد ذكر الله سبحانه الخوارق .. التى طلبها الكفار فى القرآن الكريم بقوله :-

ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك

١- تفسير ابن كثير حـ ٣ ص ٦٢ ، ٦٣ .

حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ..»[1] .

وهكذا قصر إدراكهم عن التطلع الى آفاق الإعجاز القرآنية ، فراحوا يطلبون تلك الخوارق المادية ، ويتعنتون فى اقتراحاتهم الدالة على الطفولة العقلية ، أو يتبجحون فى حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج لم ينفعهم تصريف القرآن للأمثال والتنويع فيها لعرض حقائقه فى أساليب شتى تناسب شتى العقول والمشاعر ، وشتى الأجيال والأطوار . « فأبى أكثر الناس إلا كفورا » وعلقوا إيمانهم بالرسول – ﷺ – بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا : أو بأن تكون له جنة من نخيل وعنب يفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو أن يأخذهم بعذاب من السماء ، فيسقطها عليهم قطعا كما أنذرهم أن يكون ذلك يوم القيامة ، أو أن يأتى بالله والملائكة قبيلا يناصره ويدفع عنه كما يفعلون هم فى قبائلهم ، أو أن يكون له بيت من المعادن الثمينة . أو أن يرقى فى السماء . ولايكفى أن يعرج إليها وهم ينظرونه ، بل لابد أن يعود إليهم ومعه كتاب محبر يقرأونه ، وتبدو طفولة الإدراك والتصور فى هذه المقترحات الساذجة .

والذى يجمع فى تصورهم بين هذه المقترحات كلها هو أنها خوارق . فإذا جاءهم بها نظروا فى الإيمان له والتصديق به ، وغفلوا عن الخارقة الباقية فى القرآن ، وهم يعجزون عن الأتيان بمثله فى نظمه ومعناه ومنهجه ولكنهم لايلمسون هذا الإعجاز بحواسهم فيطلبون ماتدركه الحواس !! فأدب الرسالة وأدراك حكمة الله فى تدبيره يمنعان الرسول أن أن يقترح على ربه مالم يصرح له به .. « قل : سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ »[2] .

ثم يوضح المولى عز وجل السبب فى عدم نزول الخوارق على رسول الله ﷺ

١– الإسراء : ٨٩ – ٩٣ .

٢– الإسراء : ٩٣ ، وانظر الظلال : ٢٢٥٠/٤ .

فيقول :-

« وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا »[1].

وفى تفسير هذه الآية الكريمة ما أخرجه ابن كثير فى تفسيره بسنده[2] عن سعيد ابن جبير قال : المشركون : يامحمد إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحيى الموتى ، فإن سرك أن نؤمن بك ونصدقك فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهبا فأوحى الله إليه :

إنى قد سمعت الذى قالوا فإن شئت أن نفعل الذى قالوا ، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب ، فإنه ليس بعد نزول الآية .. التى طلبوها مناظرة ، وإن شئت أن نستأنى بقومك استأنيت بهم .

قال : « يارب استأن بهم » وكذا قال قتادة وابن جريج وغيرهما .

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس ، قال :

سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا فقيل له : إن شئت أن نستأنى بهم وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا ، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الامم . قال « لا ، بل استأن بهم » . رواه النسائى .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس أيضا ، قال :

قالت قريش للنبى ﷺ ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك قال : « وتفعلون ؟» قالوا : نعم ، قال : فدعا فأتاه جبريل ، فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام

١- الإسراء : ٥٩ .

٢- جـ ٣ ص ٤٧ .

، ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة .

فقال : « بل باب التوبة والرحمة » .

وأخرج الحافظ أبو يعلى فى مسنده عن أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت : سمعت الزبير يقول لما نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » .

صاح رسول الله ﷺ على أبى قبيس « ياآل عبد مناف إنى نذير » .

فجاءته قريش فحذرهم وأنذرهم فقالوا : تزعم أنك نبى يوحى إليك ، وإن سليمان سخر له الريح ، والجبال ، وإن موسى سخر له البحر ، وإن عيسى كان يحى الموتى ؟ فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال ، ويفجر لنا الأرض أنهارا فتتخذ محارث فنزرع ونأكل ، وإلا فادع الله أن يحيى لنا موتانا لنكلمهم ، ويكلمونا ، وإلا فادع الله أن يصير لنا هذه الصخرة التى تحتك ذهبا فننحت منها ، وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف فإنك تزعم أنك كهيئتهم .

قال : فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحى ، فلما سرى عنه قال :

« والذى نفسى بيده لقد أعطانى ماسألتم ولو شئت لكان ، ولكنه خيرنى بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم ، وبين أن يكلكم إلى مااخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة ، فلا يؤمن منكم أحد ، فاخترت باب الرحمة ، فيؤمن مؤمنكم ، وأخبرنى أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه يعذبكم عذابا لايعذبه أحدا من العالمين » .

فنزل قول الله عز وجل :

» وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » . صدق الله العظيم .

قال قتادة :

إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون ،

ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضى الله عنه ، فقال :

ياأيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه .

وروى أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرات فقال عمر :

أحدثتم ، والله لئن عادت لأفعلن ، ولأفعلن .

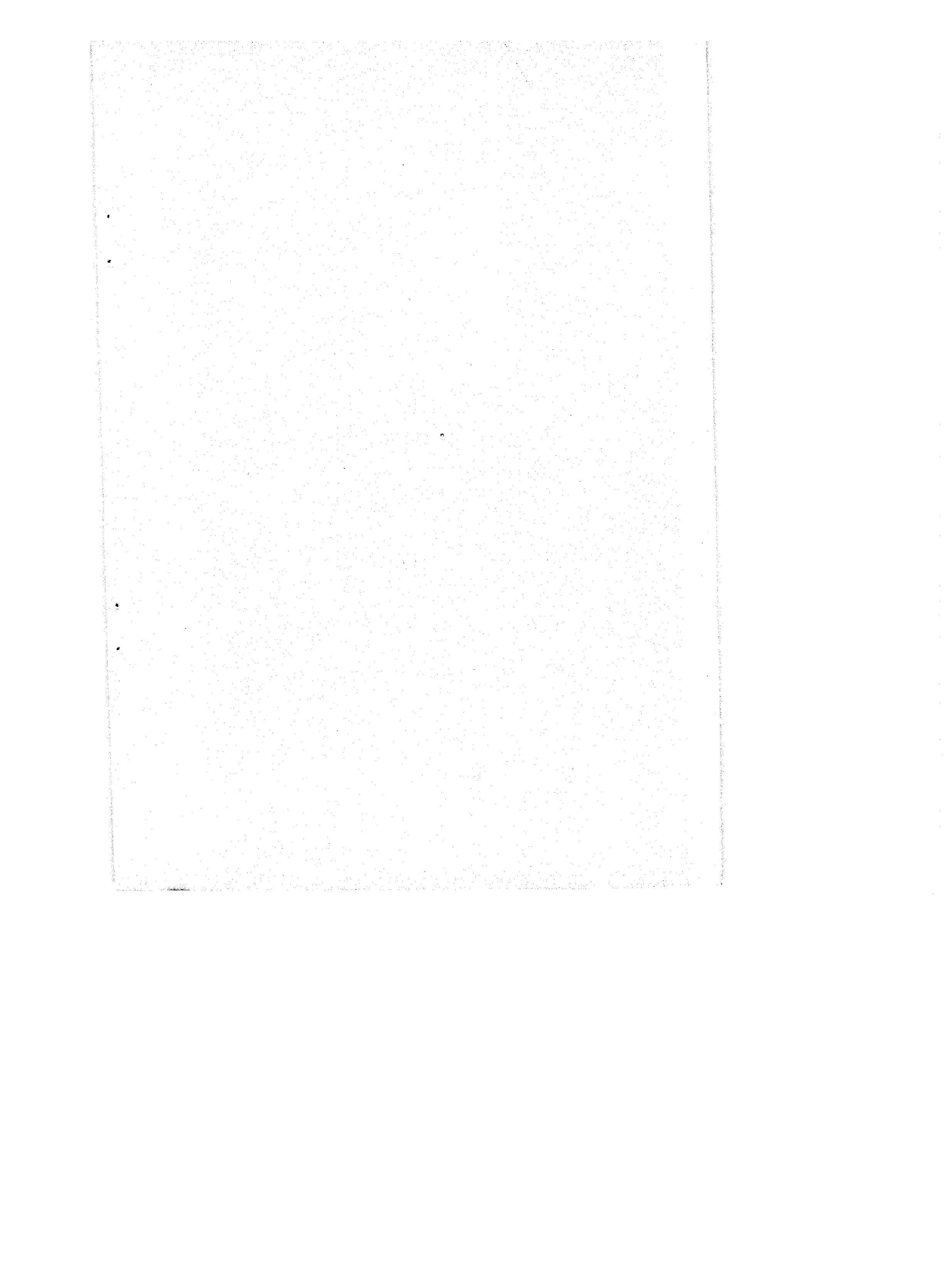
وقال رسول الله ﷺ :

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وإنهما لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره - ثم قال :

يا أمة محمد والله ماأحد أغير من الله أن يزنى عبده ، أو تزنى أمته ، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا »[1] .

بهذا الأسلوب الحكيم عالج رسول الله ﷺ ، مطالب أهل مكة ، كما حرص على علاج أدواء الجاهلية فيها ، بل والقضاء عليها فكيف تم له ذلك ؟

١- متفق عليه ، واستدل به الحافظ ابن كثير فى تفسيره ٤٨/٤ .



الفصل التاسع

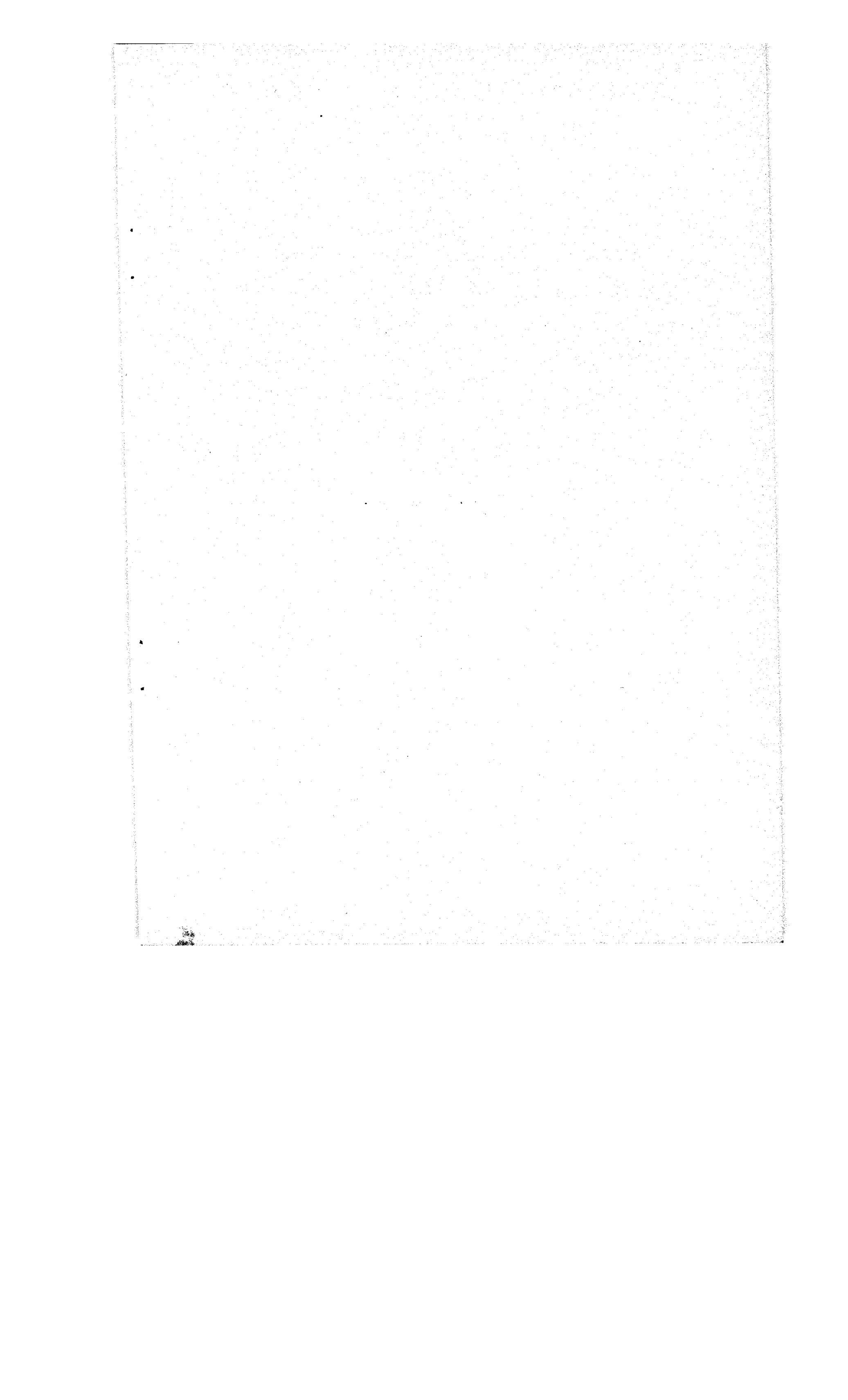
منهج رسول الله ﷺ فى علاج أدواء الجاهلية

الأصل الأول : ما يختص بعلاج الوثنية .

أصل كلمة الدهريين – أساس فكر الدهريين – أضواء الخالقية – شبهة الدهرية – القرآن يفند شبهة الدهرية –

الأصل الثانى : عجزهم عن تصور قيم الرجال –

الأصل الثالث : علاج حسية حظوظ النفس – خطؤهم فى تصور الوحى والملائكة .



منهج رسول الله ﷺ فى علاج أدواء الجاهلية :

يتلخص هذا العلاج كما يقول الأستاذ البهى الخولى رحمه الله - فى أربعة أصول :

الأصل الأول : ما يختص بعلاج الوثنية ، وما يتعلق بها .

الأصل الثانى : ما يختص بعجزهم عن تبين الحق الذى تتميز به حقائق الحياة ، وتدرك به قيم الرجال والأعمال .

الأصل الثالث : ما يختص بفساد الذوق ، إذ تعلقوا بحسية المتاع ، والاقتناء أو الادخار .

الأصل الرابع : ما يختص بعجزهم عن إدراك الحقائق المجردة الذى ترتب عليه تصورهم الخاطئ للملائكة وعجزهم عن فهم الوحى والرسالة .

ولتوضيح هذه الأصول أنه ربما يبدو للناظرين أن الكون ليس فيه إلا الحقائق المحسة مثل الأجرام ، وألوانها .. كالجبال ، والأنهار ، والأناسى .. الخ ، والكواكب ، والأقمار ، والشموس وما تحويه السماء من أجرام .. والواقع أن الكون كما يتضمن حقائق المحسات يتضمن كذلك حقائق معنوية ، لا تنفصل عن الحقائق المحسة ، بل هى متصلة بها أوهى بعض مقوماتها ... ومن ثم فالمادة تتكون فى رأى العقل من :

(أ) عناصر حسية معروفة .

(ب) دقائق رياضية يلتحم بها بناء المادة ، وتتماسك ذراتها .

(جـ) حقائق عقلية يبصرها الفكر فى المادة بلا أدنى شك ، وأولى هذه الحقائق أن تلك المادة مخلوقة ، لم تخلق نفسها ، ولم تخلق من غير شىء بل خلقها خالق ولابد .

وقد سبق القول فى أن الإدراك الحسى يبصر ما يختص به ، ولاسيما أجرام الأشياء بالضرورة ، أما الحقائق الفكرية فلا يبصرها الفكر فى المادة إلا إذا توفرت له

الظروف والأسباب الضرورية لرؤيتها .

وعلى هذا ندرك أن أدواء الجاهلية ترجع فى جملتها وتفصيلها إلى أن الإنسانية كلها بما فيهم العرب كانت تواجه الكون بالإدراك الحسى وحده ، فغاب عنها من حقائقه ما غاب .. وعلى هذا الأساس نعرض معالجة رسول الله ﷺ لأدواء الجاهلية ، بل لأدواء البشرية كافة فى كل عصر ومصر ، وفى كل زمان ومكان كما يلى :

الأصل الأول : علاج الوثنية[1] ، وما يتعلق بها ويتصل من عبادة الأصنام[2] ، أما ما يتصل بها ويتعلق ، فأهمه الشرك ، وتعدد الآلهة والأنصاب والأزلام ، وعبادة الآباء ، والدهرية[3] ، والفرق بين الشرك ، والوثنية أن الوثنية قد تكون عبادة للوثن خاصة .

١- الوثنية نسبة إلى الوثن ، وهو تمثال يعبد سواء أكان من خشب أم حجر أم نحاس ، أم فضة ، أم غير ذلك ، والوثنى : من يتدين بعبادة الوثن ، يقال : رجل وثنى ، وأمرأة وثنية ، وقوم وثنيون ، ونساء وثنيات ، والوثنية : مذهب عبدة الأوثان . المعجم الوسيط : مادة وثن .

٢- الضم : تمثال من حجر أو خشب أو معدن كانوا يزعمون أن عبادته تقربهم إلى الله (ج) أصنام وفى التنزيل العزيز « فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم » . المعجم الوسيط مادة : صَنَمَت .

٣- الدهرى رجل دَهرى ملحد لايؤمن بالآخرة ، يقول ببقاء الدهر . المعجم الوسيط مادةَ : دهر وقد حكى عنهم القرآن قولهم : « وقالوا : ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » الجاثية : ٢٤ .

أصل الكلمة : لما كانت هذه الطائفة تنفى كل موجود سوى المادة والماديات ، وأن وصف الوجود مختص بما يُدرك بالحواس الخمس لا يتناول شيئا وراءه ، عرفت هذه الطائفة بالماديين ، ولما سئلوا عن منشأ الاختلاف فى صور المواد وخواصها والتنوع الواقع فى آثارها . نسبه الأقدمون منهم إلى طبيعتها .

واسم الطبيعة فى اللغة الفرنسية (ناتور) وفى الانكليزية (نيشر) ولهذا اشتهرت هذه الطائفة عند العرب بالطبيعيين . وعند الفرنساويين باسم (نتور اليسم أو مانيير اليسم) .

الأول من حيث هى طبيعية ، والثانى من حيث هى : مادية .

وطائفة النيشرية تسعى لتقرير الاشتراك فى المشتهيات ، ومحو حدود الإمتياز ، ودرس رسوم الاختصاص ك حتى لايعلو أحد عن أحد ، ولا يرتفع شخص عن غيره فى شئ ما .. فإذا ظفرت بنجاح سعيها ولاق هذا الفكر الخبيث بعقول البشر مالت النفوس إلى الأخذ بالأسهل .. فلا تجد من يتجشم مشاق الأعمال الصعبة ، ولا من يتعاطى الحرف الخسيسة طلبا للمساواة فى الرفعة ، فإن حصل ذلك أختل نظام المعيشة ، وتعطلت المعاملات .. وأفضى إلى التدهور والهلاك . =

أما الشرك : فمنه أن يكون الوثن شريكا لله فى العبادة على نحو ما قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . الزمر ٣ .

= وهذه الطائفة (الدهريين) أو الطبيعيين ، كلما ظهرت فى أمة أفسدت أخلاقها ، وأوقعت الخلل فى عقولها ، وتخطفت قلوب آحادها بأنواع من الحيل ، وألوان من التلبيس حتى تصبح تلك الأمة وقد ضعف أساسها ، وتفطر بناؤها ، واغتالها رذائل الأخلاق من الأثرة وعبادة الشهوات والجرأة على أرتكاب الخيانات ، ولايزال الفساد يتغلغل فى أحشائها حتى تضمحل ويمحى أسمها من صفحة الوجود ، أو تضرب عليها الذلة ويخلد أبناؤها فى الفقر والعبودية .

أساس فكر الدهريين (الطبيعيين) : إنكار حقيقة الألوهية ، والتركيز على نشر الدعوة إلى الشهوة العارمة والأنانية المفرطة بين بنى البشر حتى لا ترى الإنسانية خيراً ولا المجتمعات رقيا .

لقد تبين أن أول تعاليم النيشريين (الدهريين) إبطال الاعتقاد بالله عز وشأنه ، والاعتقاد بالحياة الأبدية الآخرة . وهما أساس كل دين .. ومن مفاسدهم قولهم ، إن الحياء من ضعف النفس ، ونقصها ، فإذا قويت النفوس ، وتم كمالها لم يغلبها الحياء فى عمل ما كائنا ما كان ، فمن الواجب الطبيعى فى زعمهم أن [illegible] الإنسان فى معالجة هذا الضعف (الحياء) ليفوز بكمال القوة (قلة الحياء) وبهذه الدسيسة يد[illegible]ون بين الإنسان والهمل ويمزجونه بالهامجات من النَّعم ، ويقرنون بين حاله وتصرفه وبين حال [illegible] والأنعام من إباحة كل عمل والاشتراك فى كل شهوة ويهونون عليه اتيان ما يأتيه فى [illegible] .

ولا يخفى على كل ذى [illegible] أن الأمانة والصدق منشأهما فى النفس أمران الإيمان بيوم الجزاء وملكة الحياء .

فهؤلاء القوم هم الساعون فى نسف بناء الإنسانية وتذرية فى ذيول السافيات يطلبون ضعضعة أركان المدنية وفساد الأخلاق البشرية ، ويقوضون بذلك ما رفعه العلم وشادته المعرفة فيهلكون الأمم بإطفاء حرارة الغيرة ، وإخماد ريح الحمية .

إن هؤلاء حقاهم :

جراثيم اللؤم والخيانة ،

وأرومات الرذيلة والدناءة ،

وأحلاس الخسة والنذالة ،

وإعلام الكذب والافتراء ،

ودعاة الحيوانية العجماء محبتهم كيد ، وصحبتهم صيد ، وتوددهم مكر ، ومواصلتهم غدر ، صداقتهم خيانة ، ودعوتهم للإنسانية حياله ، ودعوتهم للعلوم شرك ومكيدة . يخونون الأمانة ولايحفظون السر ، ويبيعون الصق الناس بهم بأدنى مشتهياتهم .

عبيد البطون ، وأسراء الشهوات ، لايستنكفون من الدنيه إذا أعقبتها عطية ولا يخجلون من الفضيحة إذا أتبعتها رضيخة لا علم عندهم بالوقار ولا إحساس لهم بالعار ، ولم يبلغهم عن شرف النفس خبر مخبر ، ولا وصل إليهم عن الهمة عبارة معبر ، أو تفسير مفسر ، الابن فيهم لا يأمن أباه ، والبنت لا أمان لها من كليهما نعم أى حد تقف دونة حركات طبع الطبيعيين ؟ . =

والأنصاب : حجارة كانت تنصب ، وتعبد من دون الله ، والفرق بينها وبين الأصنام : أن الأصنام مصورة منقوشة ، والأنصاب[1] حجارة غفل .

وكانت العرب تذبح لتلك الأزلام ، ويعدونه قربة ، وقد حرم الله ذلك بقوله : « وما ذبح على النصب » و« على » فى الآية الكريمة بمعنى اللام أى وما ذبح للنصب تقربا إليها .

والأزلام : جمع زلم وهو عود قصير وكانت ثلاثه أزلام كتب على أحدها : أمرنى ربى و كتب على الثانى : نهانى ربى ، والثالث : غفل ، فإذا وجدوا فعل شئ وضعوها في وعاء وضربوا ، فإن خرج الأمر المراد خضعوا ، ووافقوا على ذلك ، وإن خرج الناهى تجنبوا الأمر المراد ، وإن خرج الغفل أجالوها أى أعادوها « ثانية » . وذلك هو « الاستقسام » بالأزلام الذى حرمه الله بقوله : « وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق »[2] .

ومعنى الاستقسام : طلب معرفة ماقسم لهم مما لم يقسم بواسطة الأزلام .

ويؤخذ مما سبق :

أ- أن عبادة الأصنام لا تتعلق بغريزة من غرائز الإنسان التى يقوم بها وجوده ، أو التى يطمح بها إلى المال ، أو لذات الحس ، أو العلو فى الأرض بجاه أو قوة ، أو منصب مثلا ..

ب- أن تلك العبادة ليست حقيقة علمية مشتقة من واقع الكون يتمسك بها العقلاء لاقتناعهم بصدقها ، أى ليس لها مكان فى العقل يصعب زحزحتها عنه إلا بأدلة

= ولا ينجو من الوقوع فى حبائل هؤلاء إلا بمعرفة الدين الحق الذى هو السبب فى سعادة المجموع والفرد ، فالدين قوام الأمم ، وبه فلاحها ، وفيه سعادتها وعليه مدارها .

وصدق الله العظيم إذ يقول : « فَبشّر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » . الزمر : ١٧ ، ١٨ ، وراجع للشيخ جمال الدين الأفغانى : الرد على الدهريين . رسالة نقلها من الفارسية إلى العربية الإمام محمد عبده . ١٩٨٣ .

١- النصب : مايقام من بناء ذكرى لشخص ما . المعجم الوسيط . مادة : نصب .

٢- المائدة : ٣ .

وبراهين إن أجدت الأدلة والبراهين .. إنما هى أوهام تستند الى مجرد متابعة الآباء الأولين حيث بدالهم أن يرمزوا لمعنى أو شخص أو نحوه إبرازا أو تخليدا لذكراه على ما هو مذكور فى تاريخ الوثنيات والعبادات القديمة .

ومما لا ريب فيه أن الرسول ﷺ ، قد أعده الله وأقامه على فطرته المدركة على نهج الخالقية يدرك أن تلك الأنواء لا وجود لها فى الوعى إلا بغياب منطق الخالقية فى الذهن ، وأن مهمته ﷺ بإزائها هى تنبيه العقل الإنسانى ليتولى اختصاصه أو وظيفته فى رؤية الكون وحقائقه « كما هى » ، أو أن سبيله إلى ذلك هو منهج :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

وفى سبيل القضاء على هؤلاء الشركاء لم يدخل رسول الله ﷺ معهم فى جدل ، بل شرع يوجه الخطاب مباشرة إلى حاسة السببية فى العقل أى إلى فطرة الخالقية فيهم ، وشأن تلك الفطرة كشأن أى حاسة تدرك ما يعرض لها على ما هو عليه دون دخل لإرادة صاحبها ، كما تدرك العين العادية لون الشئ الذى يعرض لها دون توقف على أذن صاحبها ، فناقشهم فى حظ الأوثان من تلك الخالقية ، أو الإيجابية فلا تجد السببية العقلية فيما تخاطب به ، أو يوجه إليها من سند لذلك الحظ فى قليل ولا كثير ، وهذا ماقصة القرآن الكريم :

« قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السماوات ؟ »(1) .

والخطاب موجة إلى الخاصية التى ترى كل شئ يقع عليه الحس هذا الشئ لم يخلق نفسه فضلا عن عجزه المطلق عن خلق سواه ، وإنه لا بد له من خالق لديها والحالة كذلك إلا الاعتراف بسلبية – عجز – تلك الأوثان ، والإ قرار بأن ليس لها من الأمر شئ .

1– فاطر : 40 .

ثم يسوق رسول الله ﷺ السؤال تلو السؤال كما جاء فى القرآن :

« هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ »[1] .

إنه سؤال يحاصر سامعيه ، ويأخذ عليهم طريق الجدل فلا يجدون فى أعماقهم إلا الإجابة الفورية التى ألقتها عليهم فطرة السببية وهى إجابة تعنى السلب بأقوى حقيقة .

ثم يقرر ﷺ هذه الحقيقة التى نزلت من عند الله :

« والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئاوهم يخلقون »[2] .

فلا يملكون لأنفسهم شيئا أمام هذا التقرير إلا التسليم .

وما أحكم من أن يسوق عجائب الخلق رفيقها وجليلها معجزة مثيرة للمشاعر بفعل الخالق[3] ، ثم يسأل :

« أإله مع الله ؟ » .

فلا يكون لدى الوجدان المنفعل بمشهد الخالقية إلا النفى .

تدبّر هذه الآيات المحكمات ، وهى تقرر حقائق لا يثبت أمامها الإنكار أو الجحود ؛ لأنها تخاطب الفطرة السليمة ، فلا يسعها إلا التسليم اقرأ قوله سبحانه :

« أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ؟ .

أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين[4] » .

ويتجلى منطق الخالقية إزاء تلك المشاهد ، فتزيح الأوثان من الأذهان ليحل محلها

١- يونس : ٣٤ .
٢- النحل : ٢٠ .
٣- مذكرة فى الدعوة : ص ٢٥ .
٤- النمل : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ .

التسليم المصحوب بالمكابرة الذليلة :

« ما نعبهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[1] .

وهذا هو الجدل الحق الموصل إلى محاصرة الخصم حتى التسليم ، ولو كان مصحوبا بالكبرياء المترنحة ، ثم انظر إلى هذا السؤال التقريرى الذى استخدمه رسول الله ﷺ من القرآن الكريم :

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ؟ ليقولن الله فأنى يؤفكون »[2] .

« ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ؟ ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون »[3] .

ولا يستطيع الباحث أن يمضى فى التحليل والاستيعاب فى هذا الصدد ، إنما تكفى الإشارة ، وعلى من يريد المزيد فأمامه القرآن الكريم ينهل منه ما يشاء ، ويهمنا فى هذا المقام أن القرآن جاء ليقرر مبدأ الخالقية ..

لأنها الحقيقة الأولى التى يستقيم بها تفكير الناس ، وإدراكهم للحقائق وأداء التكاليف ، وتقويم الأعمال وتبين غاية الحياة فتكون العزة فى الدنيا والفوز فى الآخرة[4] .

أضواء الخالقية :

وعلى أى حال فقد كان صلب منهجه ﷺ بإزاء الوثنيه هو إقامة عقل الإنسان على سمته ، وعلى أصول الهيئة المدركة التى فطرها الله عليها وأساس ذلك تنبيه حاسة الخالقية فى أذهان أشد الناس عنادا .. وقد رأينا طرفا من أسلوب القرآن فى تنبيه الخالقية إذ ظل يدور حول مكان الوثنية المزعوم فى الذهن ويسلط أضواء الخالقية حتى

١- الزمر : ٣ .
٢- العنكبوت : ٦١ .
٣- العنكبوت : ٦٣ .
٤- راجع مذكرة فى الدعوة ص ٢٩ .

تبدد الوهم .. ولم يبق إلا الكبر والحسد والحقد فى أذهان المخالفين ، فلما زالت دواعى المكابرة تولواهم بأيديهم كسر الأصنام ، حتى أن هندا بنت عيينة زوجة أبى سفيان بن حرب آكلة كبد حمزة يوم غزوة أحد كانت تمسك صنمها بإحدى يديها ، وتضربه بالقدوم باليد الأخرى وهى تقول له :

كنا منك وفى غرور !!

وبهذا المنهج الحكيم الذى به سقطت الوثنية ، لانجد مبررا لمناقشة كيفية سقوط الشرك ، والأنصاب والأزلام ؛ لأنها كلها أوهام من واد واحد لا وجود لها إلا فى ظلمة العقل حين يغيب عنه ضوء الخالقية الكاشف فإذا أسفر الضوء تبينوا ما تبينت هند أنهم كانوا فى غرور[١] .

عبادة الآباء ، وسبق المسمى على الاسم :

الهدف منها متابعة الأبناء علي مارسمه الأباء من تعظيم الأصنام واعتبارها آلهة وقد حكى القرآن فى ذلك قولهم :

« إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون »[٢] .

وقد كان من الممكن الاكتفاء فى إبطال هذا بسلطان الخالقية الذى تقدم ، ولكن القرآن واجهه مواجهة خاصة ، حجة عقلية حاسمة من أصل الوضع اللغوى فلم يستطيعوا لها ردا ولو ردوا لسجله القرآن قال عز جاهه :

« أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان .. »[٣] .

١- مذكرة فى الدعوة : ٢٦ .
٢- الزخرف : ٢٢ .
٣- النجم : ١٩ - ٢٣ .

وذلك أن من سنة العقل فى الوضع اللغوى أنه لايضع أسما إلا لشئ وقع عليه حسه يتضمن من الخصائص والصفات والمزايا ، ما يجعل له معنى فى العقل وصورة فى الضمير ، فإذا تم ذلك وضع الإنسان له اسما ، فيكون المسمى سابقا له فى الوجود على الاسم ، ويكون الاسم مجرد رمز لفظى للدلالة على حقيقة المسمى ، فإذا عرضت ذات المسمى على الإنسان ذكر الاسم .. وإذا ذكر الاسم قلت صورته فى الذهن والضمير بما لها من حقيقة ، قال الزمخشرى[1] رحمه الله فى قوله تعالى :

« وعلم آدم الأسماء كلها »[2] .

أى أسماء المسميات فحذف المضاف إليه لكونه معلوما مدلولا عليه بذكر الأسماء ؛ لأن الاسم لابد له من مسمى ، والأصل : وعلم آدم مسميات الأسماء ، إلى أن يقول : « علمه أحوالها ، ومايتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية » فالله تعالى ركب فى آدم من ملكات الفهم والبيان مابه يفهم حقيقة كل ما حوله ، ويعبر عنها بالألفاظ والأسماء المناسبة ... ومعلوم أن كل ما هو مقرر لآدم عليه السلام من مزايا العقل والبيان فهو مقرر لأبنائه فى كل زمان ومكان .

إذا تقرر هذا الذى ذكرناه . وهو مسلم به فى الفطرة تبين أن تسمية حجر - لايضر ولاينفع - بالإله لاتقوم على سنة العقل فى الاستعمال اللغوى ، إذ لايمكن لعاقل أن يقوله إنهم تقديرا لهذا الحجر أو ذاك أنه من العجائب والخوارق والتأثير فى حياة الناس ومصائرهم ماحملهم على أن يطلقوا عليه وصف الإله .. وما أحكم ما جاء فى القرآن المدنى وهو يدعوهم إلى تلك السنة العقلية الفطرية بقوله : « وجعلوا لله شركاء قل سموهم »[3] .

١- تفسير القرآن الكريم : ١/ ٥٠ ط الأولى ١٣٤٣ هـ .

٢- البقرة : ٣١ .

٣- الرعد : ٣٣ .

فهل المعنى هنا ذكر الأسماء ؟ كلا ؛ لأن الأسماء معلومة ، وهى اللات والعزى وغيرها ، بل المعنى : اذكروا من حقائق ألوهية تلك الأصنام وخصائصها الذاتية الإيجابية ما حملكم أن تدّعوا لها الألوهية ونعوتها ، وما أبلغ نسق الآية وبين إعجازها إذ يقول :

« وجعلوا لله شركاء !! قل سموهم ؟ أم تنبئونه بما لايعلم فى الأرض أم بظاهر من القول ؟ .. »[1] .

ومن إعجاز القرآن أن يحس المرء عجزه عن التعليق فى بعض المواطن إزاء ما يبدو له من سطوة الحجة ، وعلو المدركة ، وفطرية المنطق ، وغزارة المعنى فلندع القارئ الكريم يجيل قلبه فى النسق الرائع ويتمثل كيف بنى خطابه على ما يعلمون ، ويعلم كل إنسان من سنة العقل فى وضع الأسماء مسميات بقوله : « سموهم» فإذا عجزوا عن بيان مزايا المسمى ومنافعه وصفاته فهى أسماء لا يعلم الله لها مسمى فى الأرض أى لا وجود لمسمياتها إذ قد سموها شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة أو اعتبار معنى .

فإذا عدنا بعد هذا الاستطراد إلى قوله تعالى :

« إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

بدا لنا من سطوع الحجة ، وفطرية الفطن مالا يملك معه العقل سبيلا إلا التسليم بما تقرر الآية[2] .

شبهة الدهرية :

الدهرية قوم ملاحدة لايؤمنون بالآخرة ويقولون ببقاء الدهر ، ويظنون أن ظواهر الحياة والموت تمضى علوا بلا مقدِّر ، وما يغيب الناس عن هذه الحياة إلا مرور الزمان ، وقد جاء فى ذلك قوله تعالى :

١- الرعد : ٣٣ .

٢- مذكرة فى الدعوة : ص ٢٧ والآية من سورة النجم : ٢٣ .

« وقالوا : إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر »[1] .

وليس وراء الدهر من فاعل ، ولا وراء الحياة الدنيا من حياة .

وفى مجادلة القرآن الكريم لهذه الشبهة الكاذبة لم يخرج عن نطاق الخالقية ، فيركز على إحدى مقتضياتها وهو جانب لم نتعرض له من قبل ، ذلك أن مقتضى الشئ أنه مخلوق ، وأن له نقطة بدء ، أو بداءة فى وجوده الحسى ، ولم يكن قبلها شيئا مذكورا :

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا »[2] .

ولذا نجد الخالق سبحانه ينبه الأذهان فى الخالقية إلى تلك البداء بمثل قوله :

« الله يبدأ الخلق ثم يعيده »[3] .

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده »[4] .

« قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده »[5] .

« إنه يبدأ الخلق ثم يعيده »[6] .

فإن التركيز على تلك البداءة يبرز للعقل أن لكل شئ أولية ، وأن تلك الأولية مسبوقة بعدم لامحالة ، وأن أزلية المادة مهما توغلت فى القدم فهى مسبوقة بعدم ومن ثم لامجال للدهر أو للزمن فى تحديد بدء خلق أى شئ .

ومن الجدير بالملاحظة فى فطرة العقل أن الشئ المعدوم لايتعلق به زمن ما ولا يعقل أن يكون ذلك المعدوم الذى لانتصور له وجودا ، موضوعا للتاريخ على أى وجه ، فإذا وجد شئ لحظ العقل فيه ملازمة الزمن له منذ لحظة بدئه .. ولا يستطيع العقل أن يرى الشئ دون أن يرى الزمن الذى يلابسه دون غيره ، ولا أن يتصور زمن شئ ما منفصلا عنه .

١- الجاثية: ٢٤ راجع ص ٢١٠ هامش: ٣

٢- الدهر : ١.

٣- الروم : ١ .

٤- الروم : ٢٧ .

٥- يونس : ٣٤ .

٦- يونس : ٤ .

مثال ذلك أن المشى وزمنه متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر بحال .. ولكل كائن حى زمنه ، الذى يلابسه دون غيره ، ولا ينفك عنه حتى إذا انتهى وجوده الحسى انتهت رابطة التلازم بينهما ، كما تنتهى رابطة التلازم بين عناصره ، وذراته حيث لا سلطان للعقل على ماوراء ذلك .

فإذا كان الزمن بهذه المثابة فهو مجرد ظرف يحتوى الإنسان ، ولا يتصور أنه له بذلك فعل فى إهلاك صاحبه(١) .

القرآن ينفد شبهة الدهرية :

وأما الدهر بمعنى الأيام والليالى .. ومرور الزمن ، فإن شهود الكون بخاصة الخالقية يحسم وهم إيجابيته ، ويقرر سلبيته ونفيه بلا أدنى لبس كما يقررها لكل ظواهر الكون إذ لاشئ فى الكون إلا وهو حادث أوجده محدث .

ويستمر القرآن فى مطاردة شبهة الدهرية مفندا إياها إذ بعد أن يجعل أساس المعرفة مباشرة العقل لمهمته فى الأفق الذى تتبينه حاسة الخالقية يتعرض لظاهرتى الليل والنهار من زاوية أنهما طرفان يقبل كل منهما بلون من المنافع الاقتصادية والمعنوية ، فيقول سبحانه :

« وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا »(٢) .

فإن فى بدهية العقل أن الظرف ليس فاعلا فى الشئ بحال ، وهذا التقرير كفيل بإبطال فاعلية الدهر ، ولكن الحق سبحانه مبالغة فى استيفاء نظر الخالقية يعرضها على أنهما من مظاهر فضله ، وأثار رحمته فقال :

« ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله »(٣) .

١- مذكرة فى الدعوة : ٢٨ .

٢- النبأ : ١٠ ، ١١ .

٣- القصص : ٧٣ .

فهنا تقرير تام للحقيقة التى لايمارى فيها عقل ، ومن خلال هذا التقرير يشهد العقل عناية الخالق بنا إلى جانب مايشهد من سالبية الكون ، وإيجابية الخالق ، وانظر فى قوله تعالى :

« وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا »[1] .

« وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه »[2] .

« ومن أياته الليل والنهار والشمس والقمر .. »[3] .

« ومن أياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله »[4] .

« وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة .. »[5] .

أى يخلف كل منهما الأخر « لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا »[5] .

ففى هذه الأيات الكريمة ، وغيرها تثقيف للعقل بإرشاده إلى منافع الليل ، والنهار بما لله فيها من فضل ورحمة ، وذلك كله يبدو فى نطاق نظر الخالقية التى لاتشهد سوى إيجابية الخالق وسلبية المخلوق ...

فإذا ما استعرضنا لوحات اليوم ، والشهر ، والسنة ، التى يترسب من مفهومها ومجموعها فى أذهان الناس معنى الدهر ، والتى يجعلون لمرورها الدائب أثره فى الإفناء إلى جانب أثره في التطوير والتغيير ...

فوحدات اليوم والشهر والسنة ماهى إلا عناوين لظواهر مقترنة بحركة الشمس والقمر[6] يعلم ذلك ، ولايجادل فيه أحد فى القديم أو الحديث يقول الحق تبارك وتعالى :

١- الفرقان : ٤٧ .

٢- الأنعام : ٦٠ .

٣- فصلت : ٣٧ .

٤- الروم : ٢٣ .

٥- الفرقان : ٦٢ .

٦- مذكرة فى الدعوة ص ٢٩ .

« وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار »(١) .

ومعلوم أنه لو لم تكن الحركات لما عرف الناس تلك الوحدات الزمنية التى يتعاملون بها اليوم .

والله سبحانه يوجه الأنظار والأذهان إلى شئ من هذا المعنى المحسوس بقوله :

« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ .

قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟ »(٢) .

وفى منطق هذه فتراضات والتساؤلات لايتصور الذهن إلا أن الشمس والقمر منقمعان فى قدرة الخالق ليس لأحدهما قدرة ، أو اختيار ما فى شئ إلا أنهما مسخران بلا أدنى إدراك منهما للإرادة أو الاختيار .. وإذا كان هذا شأن الشمس والقمر من السلب ، فأحرى أن يكون هو شأن ما ترتب عليهما من ليل ونهار ...

والملاحظ فى دورة الهلال أنه يبدأ هكذا ، ثم يكبر حتى تراه بالوجه الذى نسميه بالتربيع الأول ، ثم يكبر حتى يواجهنا بدرا ، ثم يتضاءل حتى يعود إلى التربيع الثانى .. الهلال الأخير .. ثم المحاق ، ثم يبدأ دورة جديدة يتكرر فيهما مامضى . وهكذا ، وكانت العرب تعرف هذا وأكثر منه بلامراء ... والقرآن يعطينا مثلا آخر بقوله : « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا »(٣) .

وكانت العرب تعرف من الحسبان أنه الحساب ، والعدد وذلك فضل الحكيم الخبير حين يخاطب العقول بالأسلوب الذى ترى به الأشياء « كما هى » .

١- إبراهيم : ٣٣ .
٢- القصص : ٧١ ، ٧٢ .
٣- الأنعام : ٩٦ .

وقوله : « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » أن العرب كانت تعرف من الحسبان أنه الحساب والعدد ...

وكذلك خاطبهم بقوله :

« وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب »[1] .

ولم يجدوا فى ورود الخطاب بهذا الأسلوب إلا أنه يلخص لهم تجاربهم التى حصلت من ملاحظة رصد الفلك فى آماد سابقة ... ولم تكن قضية الدهرية موضوعا لعلاج ما[2] .

ومما يبدد شبهة الدهرية وأوهامهم : أن هناك علما يسمى بعلم الفلك يقوم برصد بروج الشمس وما يتصل بها من حساب لضبط السنة الشمسية ، كما أن البرج يحدد علامات فى السماء تنتقل الشمس بينها ، ولولا حركة الشمس لما كان فى حسبان أحد رصد برج أو اشتغال بتنظيم وحدة زمنية اسمها السنة تشتمل على اثنى عشرة وحدة قمرية ، وهذا كله اجراء تنظيمى اصطلاحى صرف لايتضمن إحياء لشئ أو إماتة له[2] .

وقد خاطب القرآن الكريم البشر بهذه الحقيقة فقال :

« ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين »[3] .

وقوله سبحانه :

« تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا »[4] .

وقوله « والسماء ذات البروج »[5] .

١- يونس : ٥ .

٢- مذكرة فى الدعوة ص ٣٠ .

٣- الحجر : ١٦ .

٤- الفرقان : ٦١ .

٥- البروج : ١ .

كما خاطبهم بما تشهده أبصارهم من تنقل الشمس بقوله :

« وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى إجل مسمى »(١) .

فالبروج مخلوقة ، وهى مضافة ، إلى السماء ، والشمس مخلوقة مسخرة تجرى بحسبان وذلك مما يفيد أنها لاتتحرك إلا بمحرك يحركها .

ولقد وقع الخطاب لدى السامعين له موقع التسليم والإذعان ، ولم تنشأ فى عقولهم لدى سماعه أى رغبة فى معارضته .

وبهذا كله يتبدد وهم الدهرية وشبهتهم بفضل الحكيم الخبير إذ يخاطب العقول بالأسلوب الذى ترى به الأشياء كما هى أسلوب الخالقية ؛ لأن الأشياء كما هى ليست إلا أنها :

« مخلوقة لخالق »(٢) .

الأصل الثانى : علاج عجزهم عن تصور قيم الرجال والأعمال :

ومن مظاهر هذا الأصل :

أولا : مظهر العجز ، ويتمثل فى :

أ- قياسهم الشخصى : بشارات مظهرية شكلية كقوة البدن وحدة البيان كمن مدح قبيلة كبيرة فقال :

كأنك أيها المعطى لسانا ... وجسما من بنى عبد المدان

ولم تكن تلك آفتهم وحدهم ، فقد سبقهم قول فرعون لموسى - عليه السلام :

« أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولايكاد يبين ؟ »(٣)

ب- قياسهم الشخصى بأمور إضافية ليست ذاتية فيه مثل الجاه والثروة و المركز

١- الرعد : ٢.

٢- مذكرة الدعوة .

٣- الزخرف : ٥٢ .

الاجتماعى وقبيلته وأسرته التى تؤيه ، وقد أوقعهم قياسهم الخاطئ فى رسول الله ﷺ أذ قالوا :

« لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ »[1] .

ثانيا : تمسكهم بالوثنية وما يتصل بها كانت مجرد وهم عاشوا فيها فلما جاء القرآن سلط عليها حاسة الخالقية فبدد هذا الوهم من العقول أمام رؤيتها الكاشفة ... ، ثم يلفت نظرهم لفته فاحصة على الكون من حولهم مستخدمين فى ذلك عقولهم مفكرين فى صنعة الكون من حولهم ، لأن الفكر هو وسيلة تحصيل الزاد من المعرفة ، إذ أن عمل الفكر مرتبة تالية لنظر الخالقية ، لذا أراد الله لهم أن يرتقوا من نظر الخالقية إلى نظر « الكيف »[2] الذى جاء فى مثل قوله تعالى :

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج »[3] .

وتأمل الاستفهام هنا تجده يفيد الحال والصفة ، كما يفيد التعجب ، فلا جدال فى أنه ما من إنسان تظهر له عجائب السماء إلا ويأخذه جلالها ، وروعة صنعها ، فيزدهم فى عقلة أكثر من علامة للاستفهام والتعجب ثم يسأل كيف هذا ؟ ومحل السؤال والنظر هو موضوع التفكر هو :

« صنع الله » حيث تظهر معالم ذلك الصنع فى :

الاتقان ، والخيرية ، والحكمة .

ثالثا : آثار صفات العلم ، والحكمة ، والقدرة ، والعظمة ، والكرم والود ، والرحمة ، والبر إلى ماله تعالى من صفات الجلال والجمال كل هذه الصفات يشهد آثارها الفكر ، ويتقلب فى معرض تلك الآثار ، فيستنير الضمير بأصدق المعرفة ، ويسعد

١- الزخرف : ٣١ .

٢- مذكرة فى الدعوة : ٣٢ .

٣- ق : ٦ .

بأصدق وجدانات العزة والغنى .

ويستطيع الإنسان أن يميز ما هو أدنى وما هو خير .

ويكون تفاوت الناس مبنيا على ماحصل كل منهم من زاد المعرفة والقيم لا بمقياس المظهر والشكل ...

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[1] .

فتتجدد مقاييس الأعمال فهى صورة لما فى الضمائر ، فتكون قيمة أى عمل معتبرة بالقيم التى يمثلها[2] .

الأصل الثالث : علاج حسية حظوظ النفس :

وتشتمل على :

١- الترف فى المطاعم والمظاهر ، اللهو والنساء كلها شهوات تبعد الإنسان عن ربه وتشغله عن خالقه .

يقول الله سبحانه : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون »[3] .

ب- الحرص على اقتناء عرض ، وهنا تكون مواجهة القرآن فيقول :

« وتحبون المال حبا جما »[4] ويسوق الوعيد الشديد لمن :

« جمع مالاً وعدده »[5] .

جـ- خلو منهجهم فى الأخذ والعطاء من أى عوض روحى كما أشار بذلك قوله سبحانه : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدرك ما العقبة ، فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى

١- الحجرات : ١٣ .

٢- مذكرة فى الدعوة : ٣٢ .

٣- سبأ : ٣٤ .

٤- الفجر : ٢٠ .

٥- الهمزة : ٢ .

مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة »[1] .

وقوله سبحانه :

« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون »[2] .

٢- كان لخلو منهجهم فى الأخذ والعطاء والمبادلة من أى عوض روحى دليل على الإدراك الحسى البحت ، وهذا يدل على تخلف الإنسان فى نظرته عن مدارك الإلهام والمعرفة ... وقد عوض القرآن لذلك ... فعمد إلى قانون المعاوضة وقانون المعاوضة هو : إرادة الله محورا لأنانية الفرد ، فلا يبذل مالا أو جهدا، أو عرضا ما إلا فى مقابل عوض أو أجر ينظر فيه رجحان مصلحته ... تلحظ ذلك فى الحياة ، فإذا ظهر للشخص أن تجربته مع الفاكهى، أو الجزار مثلا كانت مجزية اغتبط ، وإذا تبين غبن الخباز له مثلا تضايق ، والضيق هنا عامل بغيض ، دخل عليه ليذيقه ما يخالف فطرته ، ومخالفة الفطرة مصدر شقوة الإنسان ... لكن الحق تعالى أراد الإنسان لما هو أعلى .. ليحدد همة الإنسان من أفق الحس إلى أفضل القيم وخير الزاد .. ومن ثم جاء الإسلام بالمناهج التى تهذب عقل الإنسان فى تطلعاته ، وتعالجه من آفاته الحسية .

وقد نبه الإسلام إلى ذلك القانون ، ليعرف كل إنسان إلى أن له فى مقابل قيم الحس قيما روحية فجاءت حاسة الخالقية وحاسة الفكر لتثير فيه عوامل التفكير الهادى إلى التثقيف النافع المفيد كما تزوده من زاد المعرفة بالله تعالى[3] .

الأصل الرابع : خطؤهم فى تصور الوحى والملائكة :

١- عند مبعث محمد ﷺ لم يكن العرب ينكرون الملائكة أو الجن ، ولكن معارفهم عنها كانت مشوشة ، إذ كانت أفهامهم تذهب إلى تصورات منتزعة من تصوراتهم لعالمنا

١- البلد : ١١ - ١٦ .

٢- يونس : ٥٨ .

٣- انظر : مذكرة فى الدعوة : ص ٣٤ .

الحسى ، فكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله ، وقد رد عليهم القرآن هذه التصورات الواهمة الكاذبة فقال : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ »(١) .

« إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى »(٢).

وفى إنكارهم للرسالة قالوا :

« أبعث الله بشرا رسولا »(٣).

« لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ؟ »(٤) .

« لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا ؟ »(٥) .

إلى غير ذلك من الآيات التى رد بها القرآن على هذه الأخطاء لكى يصححوها .

٢- حواس الإنسان لا تدرك الحقائق الروحية ، فإن الذى يقرر فى الذهن من حقائق الحس مخالفة كل المخالفة للحقائق الورحية ، لأن حقائق الحس ذات قوام مادى يبصره الإنسان ويلمسه بيده ، ويدركه بسائر حواسه .. أما الحقائق الروحية فليس لها قوام مادى بته بالغا مابلغ من الصغر ، ولذلك لاتدركه حواس الإنسان بحال(٦) .

وترتب على ذلك أن استطاع الإنسان دراسة الكائنات المحسة ، وتحليلها إل الذرة فما دونها ، لمباشرة حواسه إياها فعرف عناصرها وخصائصها ، وصفاتها ، كما ميز ألوانها وأجناسها ، وأنواعها ، وغدا كلامه عنها هو تقرير واقعها المشهود ، أو المتعرض للحواس .

أما الكائنات الروحية التى لاتبلغها الحواس فإن الإنسان عجز عن دراستها ، ولا سبيل له إطلاقا أن يستقل بمعرفة أى شئ عنها ولا أن يصفها أو يجرى عليها الأحكام ،

١- النجم : ٢١ .
٢- النجم : ٢٧ .
٣- الإسراء : ٩٤ .
٤- هود : ١٢ .
٥- الفرقان : ٧ .
٦- انظر مذكرة فى الدعوة ص ٣٥ .

أو الخواص المحسة ، كما لايستطيع أن يتصور لها هيئة ما ، فإنه قد جاء هذه الحياة وصفحة ذهنه خالية من أى تصور لشئ ، فلما تفاعل مع كائنات الكون طبعت الكائنات صورها على أشرطة ذهنه التى لانهاية لها ، فإذا ماحاول أن يتصور الكائنات الروحية ذهب مذاهب شتى وكلها خطأ فى خطأ ، لأنها لاتقع فى ضمن تفاعله الحسى مع الكون .

فإذا أبى له وهمه إلا أن يتصور لها هيئة ، فلن يظفر إلا بصورة ملفقة انتزعها الوهم من خزانة تصوراته للأشياء المحسة حافلة بما لايحصى لها عدداً[1] من الصور .

ومن تخيلات الوهم لدى العرب أنه لما نزل قوله تعالى :

« عليها تسعة عشر »[2] .

أى النار ، قال أبو جهل كما صور له ذهنه : إنهم تسعة عشر حارسا مثلنا .. أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ؟

والخطأ هنا واضح نتج عن تصوره أن الملائكة تحمل صفات البشر ، فقوتهم تشبههم ، وإن تفاوتت فى الطاقة وهيئتهم كهيئة البشر ، وإن كان لم يرها ولم يدخل القرآن فى جدل ما لتصحيح هذا الوهم بل أشار إلى شأن العقل ، وموقفه من الحقائق الظاهرة الباطنة ..

فقال سبحانه :

« وما جعلنا أصحاب النار ألا ملائكة »[3] . والعقل لاشك يرى أن الملائكة تغاير البشر ، ومن ثم لم يرد لهم تعقيب على ذلك بلجاجة أو مكابرة[4] .

٣- زعموا أن الملائكة إناث !! ماذا كان رد القرآن ؟

١- نظر مذكرة فى الدعوة : ص ٣٦ .

٢- المدثر : ٢٩ .

٣- المدثر من الآية : ٣١ .

٤- راجع مذكرة فى الدعوة ص ٣٧ .

لم يزد على أن أبطل هذا الزعم ، ثم ردهم إلى منهج العقل فى تحصيل المعرفة بطريق الحواس ، فما وقعت عليه الحواس وأدركة العقل فهو فى متناول تفكيرهم ، وما لاتناله الحواس فلا سبيل للعقل إليه بحال ، وكان رد القرآن على هذه الشبهة بقوله : «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا ! أشهدوا خلقهم ؟ »(١) .

وإن الإنسان ليستولى على عقله العجب بذلك الإعجاز الذى يستنبطه الحس فلا يحير جوابا ، ولايسعه إلا أن يدع عالم الغيب للغيب ، وعالم الشهادة للشهادة .

٤- وفى معرض الرد على قول أبى جهل ومن لف لفه يقول القرآن :

« وما يعلم جنود ربك إلا هو »(٢) .

أى وما يعلم حقيقتها ، وماهيتها إلا هو تعالى .

٥- ويستمر الرد حتى تزول الشبهة من أذهان المخاطبين - زمن الرسالة - وكل من يتأتى منه الخطاب إلى قيام الساعة ، فى كل شبهة تقع فى نفوسهم من أمر الرسالة ، فيأتى حلها فى ضوء منهج القرآن ، ومن ثم قال سبحانه :

« قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا »(٣) .

ولو نزل ملك ، لظل الاعتراض قائما : ملك ونحن بشر ؟

إن جدل الإنسان ومطالبه لاينتهيان ، ولا تستقيم له قناته حتى يلقم الجواب .

الحاسم فى قوله تعالى : « ....وكان الإنسان أكثر شئ جدلا »(٤) .

١- الزخرف : ١٩ .

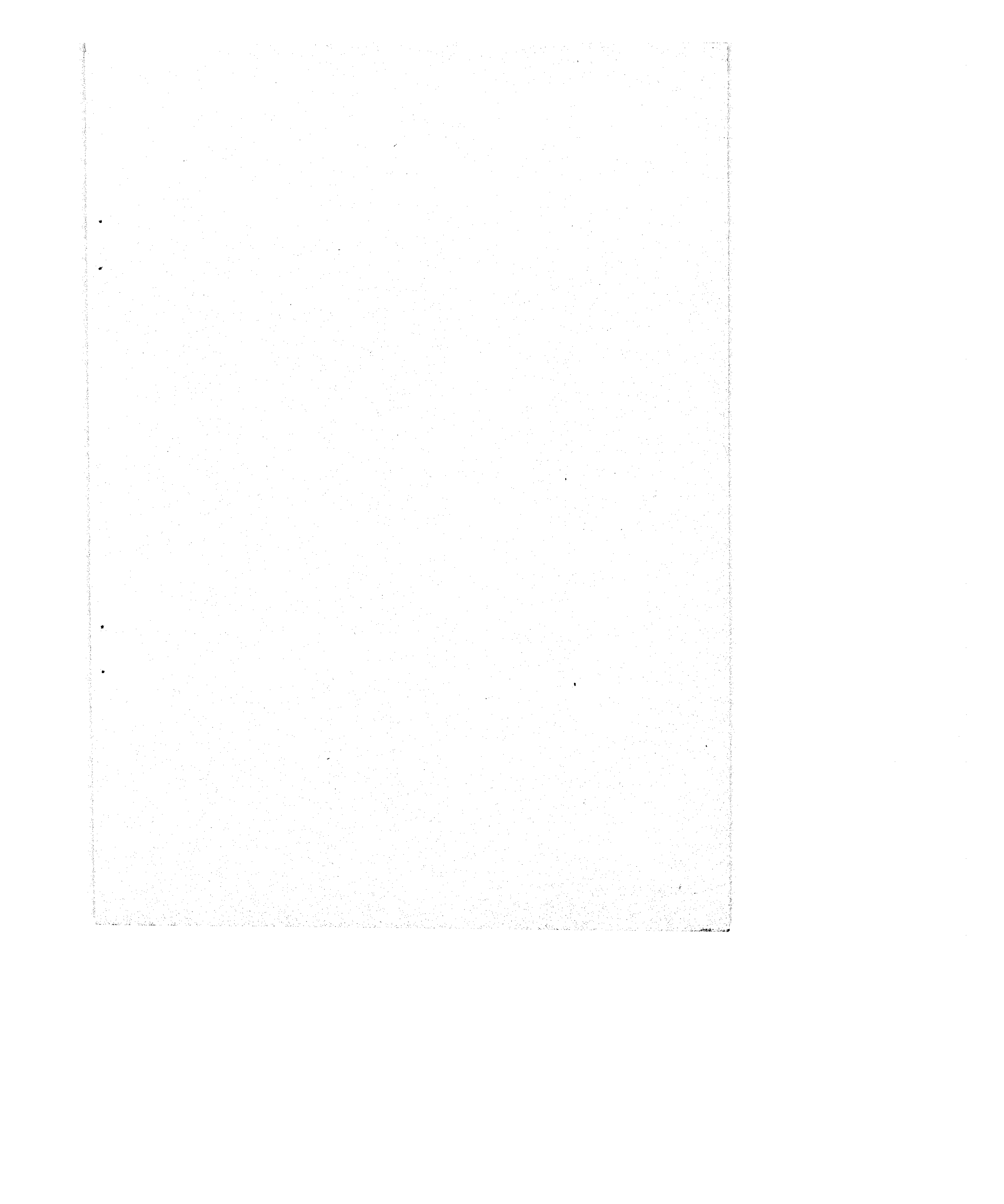
٢- المدثر : من الآية : ٣١ .

٣- الإسراء : ٩٥ .

٤- الكهف : ٥٤ .

الفصل العاشر

خروج الرسول ﷺ إلى الطائف أشد يوم على الرسول - الرسول يدخل مكة فى جوار المطعم - دعوة الرسول للقبائل أسفرت عن رافضة - مشترطة متأنية - عبر واعتذار - وتعليق .



منهج الرسول ﷺ فى أهل الطائف

ثم دخوله مكة فى جوار المطعم بن عدى :

لقى النبى ﷺ بعد موت أبى طالب شرا ، ونالت منه قريش مالم تكن تنال منه فى حياة عمه ، فخرج إلى الطائف ، وحده ماشيا على قول ، وعلى قول آخر أن زيد بن حارثه كان معه[1] ، يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، وقبولهم دعوته ، فلما انتهى إلى الطائف قصد إلى نفر من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرافهم وهم :

عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب أبناء رجل واحد هو :

عمرو بن عوف ... فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلمهم بما جاء به من نصرته على الإسلام ، والقيام على من خالفه من قومه .

فقال أحدهم : هو يمرط[2] .

ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك !

وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ماينبغى لى أن أكلمك .

فقام رسول الله ﷺ من عندهم ، وقد يئس من خبر ثقيف .

وقد قال لهم : إذ فعلتم مافعلتم فاكتموا علىّ – أى عنى – وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومة . فأقام بالطائف عشرة إيام ، وقيل شهرا ، لايدع أحدا من أشرافهم إلا جاء إليه وكلمه ، فلم يجيبوه بل خافوا على أحداثهم[3] منه .

١- الطبقات : ٢١١/١ .

٢- يمزق .

٣- جمع حدث وهو صغير السن ، والحِدْثان : أول الشباب . المعجم الوسيط مادة : حدث .

فقالوا : يامحمد أخرج من بلدنا ، وأغروا به سفهاءهم ، وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ، وهذا لايتأتى من كرام إلى ضيف وإنما هذه سفاهة ، وعدم اكتراث بالعواقب .

قال ابن عقبة : وقفوا صفَّين على جانبي الطريق فلما مر رسول الله ﷺ بين الصفين جعل لايرفع رجليه ولايضعهما الا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه .

زاد سليمان التيمى : أنه ﷺ كان إذا أزلقته[1] الحجارة يقعد الى الأرض فيأخذون بعضديه ، ويقيمونه ، فإذا مشىْ رجموه وهم يضحكون .

قال ابن سعد : وزيد بن حارثة رضى الله عنه ، يقيه بنفسه حتى لقد شج فى رأسه شجاجا[2] .

قال ابن عقبة :

فخلص منهم ورجلاه تسيلان دَماً ، فعمد إلى الحائط من حوائطهم فاستظل فى ظل حُبْلة[3] منه وهو مكروب موجع ، وإذا فى الحائط : عتبة وشيبة ابنا ببيعة ، فلما رآهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله ﷺ ، فلما اطمأن فى ظل الحبلة قال :

كما روى الطبرانى برجال ثقات عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم أتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال :

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلي من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكنْ بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ،

١- أى أسرعت إليه من يدى الرماة .

٢- طبقات ابن سعد :١/١٤٢ .

٣- الحبْلة : ثمرة فصيلة القطانية ، كالفول والعدس ، والحبْلة : الكرم . المعجم الوسيط مادة : حبله .

أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحلّ على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولاحول ولاقوة إلا بك »[1] .

فلما رآه ابنا ربيعة ومالقى من الكرب تحركت له رحمهما فَدَعَوَا غلاما لهما يقال له : عداس فقالا له : خذ هذا القطف من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ، ثم أذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ، ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ، ثم قال له : كل ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال :

بسم الله ثم أكل .

فنظر عداس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال رسول الله ﷺ : ومن أى البلاد أنت ياعداس ومادينك ؟

قال نصرانى : من نينوى ، فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال له عداس : ومايدريك مايونس بن متى ؟ والله لقد خرجت من نينوى وما فيها عشرة يعرفون مايونس بن متى فمن أين عرفت أنت يونس بن متى ؟ وأنت أمى وفى أمة أمية ؟

قال رسول الله ﷺ : « ذاك أخى كان نبيا وأنا نبى » .

فاكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه ، فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟

قال : ياسيدى ما فى الأرض خير من هذا الرجل ، لقد أعلمنى بأمر لم يعلمه إلا نبى قال : ويحك ، ياعداس لايصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .

فانصرف رسول الله ﷺ عنهم وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة

١- سبل الهدى والرشاد : ص ٢ ، ص ٥٧٧ ، والسيرة لاهشام : ٢/٣٠ ، وقوله ﷺ : « لك االعتبى » أى : الرضى .

واحدة[1] .

أشد يوم على رسول الله ﷺ :

روى الإمام أحمد ، والإمام البخارى فى تاريخه .

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من يوم أحد ؟

فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشدُّ مالقيت منهم يومُ العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ماأردت ، فانطلقت على وجهى وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى ، وقال : إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال ، فتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم على ، ثم قال : يامحمد إن الله قد سمع قول قومك ، وأنا ملك الجبال قد بعثنى الله عز وجل لتأمرنى بما شئت أن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل ولا يشرك به شيئا[2] .

صدق من سماك رءوف رحيم .

رسول الله ﷺ يدخل مكة فى جوار المطعم بن عدى :

ذكر الأموى ، وابن هشام أن رسول الله ﷺ لما انصرف عن أهل الطائف ولم يجيبوه إلى مادعاهم إليه من تصديقه ونصرته أقام بنخلة اياما ، ولما أراد الرجوع إلى مكة قال له زيد بن حارثة رضى الله عنه :

كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟

١- سبل الهدى والرشاد : ٥٧٨/٢ ، والسيرة لابن هشام : ٣٠/٢ .

٢- المسند : ٣٣٥/٤ ، وصحيح البخارى كتاب الجهاد حديث رقم ١١١ والبخارى فى تاريخة .

فقال : يازيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله مظهر دينه ، ثم أنتهى إلى حراء وبعث : عبد الله بن أريقط إلى الأخنس بن شريف ليجيره فقال : أنا حليف ، والحليف لايجير على الصريح ، فبعث إلى سهيل بن عمرو ، فقال :

إن بنى عامر بن لؤى لاتجير على بنى كعب فبعث إلى المطعم بن عدى ، فإجابه إلى ذلك وقال :

نعم ، قل له فليأت فرجع إليه ، فأخبره ، فدخل رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة ، فلما أصبح خرج المطعم بن عدى ، وقد لبَس سلاحه هو وبنوه ستة أو سبعة ، فقالوا لرسول الله ﷺ : طف ، واحتبوا بحمائل سيوفهم بالمطاف ، فأقبل أبو سفيان إلى المطعم بن عدى فقال : أمجير أم تابع ؟ قال بل مجير . قال : إذن لاتخفر ، قد أجرنا من أجرت .

فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوْفَه ، فلما انصرف إلى بيته انصرفوا معه ، فذهب أبو سفيان إلى مجلسه[1].

وفى رواية لابن سعد : أن المطعم بن عدى : دعا بنيه ، وقومه فقال : تلبسوا السلاح ؛ فإنى قد أجرت محمدا ، فدخل رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم ابن عدى على راحلته فنادى :

يامعشر قريش ، إنى قد أجرت محمداً فلا يهجْه أحد منكم ، فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، والمطعم بن عدى وولده مطيفون[2] به .

فمكث رسول الله ﷺ أياما ثم أذن له الله عز وجل فى الهجرة ، فلما هاجر رسول الله ﷺ ، توفى المطعم بن عدى بعده .

١- سبل الهدى والرشاد : ٥٧٦/٢ .

٢- الطبقات : ١٤٢/١ .

وساق ابن الجوزى سؤالا وجيها وأجاب عنه فقال :

ربما عرض للحد عارض فقال : ماوجه احتياج رسول الله ﷺ إلى أن يدخل فى خفارة كافر ، وأن يقول فى المواسم : من يؤوينى حتى أبلغ رسالة ربى ؟

فيقال له : إن الإله القادر لايفعل شيئا إلا لحكمة ، فإذا خفيت حكمة فعله علينا وجب علينا التسليم ، وما جرى لرسول الله ﷺ ، إنما صدر عن الحكيم الذى أقام قوانين الكليات وأدار الأفلاك ، وأجرى المياه والرياح ، وكل ذلك بتدبير الحكيم القادر ، فإذا رأينا رسول الله ﷺ يشد الحجر من الجوع ، ويقهر ، ويؤذى ، علمنا أن تحت ذلك حِكَما إن تلمحنا بعضها لاحت من خلال سجف البلاء حكمتاه :

إحداهما : اختبار المبتلى ، ليسكن قلبه إلى الرضا بالبلاء فيؤدى القلب ماكلف من ذلك .

أخراهما : أن ثبوت الشبهة فى خلال الحجج ليثاب المجتهد فى دفع الشبهة[1] .

جوار المطعم بن عدى وأثره فى الدعوة :

دخل رسول الله ﷺ إذن مكة مَرْجِعهُ من الطائف فى جوار[2] المطعم بن عدى بن نوفل ابن عبد مناف ، وكان جوارا كريما غير مشروط ، وَفّى به المطعم حتى غلبته قريش عليه .

وإذا قلنا : إن جوار المطعم « كان جوارا كريما غير مشروط » .. فإن أحدا من قريس لم يستطع أن يؤذى رسول الله ﷺ أثناء ذلك الجوار على الرغم من حقدهم عليه وغيظهم منه ﷺ ، إلا ماكان من عمه أبى لهب .

روى الإمام أحمد رضى الله عنه بسنده إلى أبى الزناد قال :

---

(١) الوفا : لابن الجوزى : ٢١٦/١ .

(٢) الجوار فى اللغة : العهد والأمان ، ولما جاء الإسلام وجد الجوار سياسة مقررة مأخوذ بها : تجيز بها المرأة والرجل والجماعة ، والقبيلة على وفاء كريم ، فأقره .

« أخبرنى رجل يقال له : ربيعة بن عبّاد الديل - وكان جاهليا فأسلم - قال : رأيت رسول الله ﷺ فى الجاهلية فى « سوق ذى المجاز وهو يقول: يا أيها الناس قولوا :

« لا إله إلا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابىء كاذب ، يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب » .

فأما ما رواه البيهقى « رضى الله عنه » عن نفس الحادثة ، وفيها : « فإذا هو أبو جهل » لكن أبا جهل لم يكن ليغامر بإخفار جوار المطعم بهذه الجرأة والحمق مثيرا لأحد بطون قريش ، فأما ماكان بين رسول الله ﷺ وعمه ، فعذر المطعم فيه واضح .

ورواية الإمام أحمد تؤكدها رواية لابن اسحاق رضى الله عنهما .

أما الجوار الذى دخل عليه الشرط : فهو جوار ابن الدغنة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو جوار لم يطلبه أبو بكر ، إنما ساقه ابن الدغنة من عند نفسه حيث التقى بأبى بكر مهاجرا ، فقال : « ارجع فإنك فى جوارى » دون أن يلحق قوله هذا بشرط . فلما ضاقت قريش بصلاة أبى بكر وقراءته حملت على ابن الدغنة ، فذهب إلى أبى بكر يشترط ، فقال له : ياأبا بكر ، إنى لم « أجرك » لتؤذى قومك ، وقد كرهوا مكانك الذى أنت به ، وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .

فقال أبو بكر فى شمَم الكريم وعفته : أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله !

فأسرع ابن الدّغنة يتلقفها كأنما يخشى أن يتردد فيها الصديق ، فقال : فارْدد على جوارى ولم يكتف ابن الدغنة بذلك فذهب يستعدى قريشا على الصديق . يقول فى نواديها ، يامعشر قريش ، إن ابن أبى قحافة قد رد على جوارى ، فشأنكم بصاحبكم .

أى افعلوا به ماشئتم !

وليست تلك خلة كريم .

استقبل رسول الله ﷺ فى جوار المطعم العمل للدعوة فكانت حينئذ :

أ- فى غير قريش التى منعته عن تبليغ كلام ربه فتُركت إلى حين .

ب- وهدفت إلى طلب جوار ينتقل به رسول الله ﷺ إلى أرض تنطلق منها الدعوة حرة دون قيد ولا إكراه .

وخير ما يتمم هذا الهدف أن (يُؤمنَ) بالدعوة (أهل هذا الجوار) .

ونؤكد أن استهداف القبائل حينئذ ليس معناه أن هذه القبائل كانت من قبل ساقطة من حساب الدعوة .. كلا ، بل إنها لتدعى إلى الإسلام منذ الجهر بالدعوة ، أى من قبل ذلك بسبع سنين[1] - على الأقل - لكن الجديد : هو طلب الجوار منها ، أى دخولها طورا جديدا تتحمل فيه كفالة الدعوة والقيام بشأنها : فإنه ﷺ أخفى دعوته ثلاث سنين ، ثم أعلن بها فى الرابعة مبتدئا طور الدعوة الجهرية التى استمرت بمكة عشر سنين لم يترك خلالها شخصيات كبيرة توافى مكة ، أو معتمرين يفدون إليها فى رجب أو حجيج يأتيها بموسم الحج إلا كان له ﷺ فيهم دعوة بجانب دعوته عليه الصلاة والسلام لقومه .

فكان عليه الصلاة والسلام يتبع الحجيج فى منازلهم بمنى ، وعرفة وغيرها يسأل عن القبائل قبيلة قبيلة ، ويسأل عن منازلهم ويأتى إليهم فى أسواق المواسم : عُكاظ ،

١- القول بسبع سنين :نظرا لأن هذا الوضع الأخير استمر ثلاث سنين كانت نهايتها اتفاق عليه الصلاة والسلام مع الأنصار : قبيلتى الأوس ، والخزرج ، اللتين وفقهما الله سبحانه إلى الايمان ، وقبول هذا الجوار وتلك الكفالة ، وهذه الثلاث هى : ختام السنوات العشر للجهر بالدعوة أنتقل بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينه المنورة راجع : جوار المطعم بن عدى د/ على الخطيب مجلة الأزهر حـ ١٠ ص١٢٧٨ سنة ١٤٠٨ هجرية .

ومجنة ، وذى المجاز[1] : فقد كانت العرب عند ما تحج تقيم بعكاظ ، حتى نهاية العشرين من ذى القعدة ، ثم تنتقل إلى « مجنة » عقب فض عكاظ فتقيم حتى نهاية ذى القعدة ، ثم تنطلق إلى « ذى المجاز » .

ومن الطبيعى أن يكون أقرب إلى عرفة ، إذ بينهم وبين أن يقفوا بعرفة أيام معدودة ، فيقيمون بتلك السوق الأخيرة حتى الثامن من ذى الحجة ، وهو يوم التروية .

وفى كل هذه الأماكن كان يطرقهم رسول الله ﷺ داعيا عاماً بعد عام حتى إذا وقعت حادثة الطائف ، خلص رسول الله ﷺ لدعوة القبائل . هذه القبائل التى لم يكن الحال بينها سهلا مرضيا[2] .

يقول الإمام الزهرى رضى الله عنه :

« فكان رسول الله ﷺ فى تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب فى كل موسم ، ويكلم كل شريف قوم ، لايسألهم مع ذلك إلا أن يؤوده ويمنعوه ويقول : لا أكره أحدا منكم على شئ ، مَنْ رضى منكم بالذى أدعوه إليه فذلك ، ومن كره لم أكرهه ،

١- عكاظ سوق كانت تقوم بأرض تعرف الآن (بالقانس) وهى موضع سوق عكاظ .

فأما مِجَنة : فموضع قرب مكة على أميال منها قرب جبل جنوب مكة يقال له « الأسفل » يقع بمر الظهران ، وكانت مجنة سوقا لكنانة بأرضها .

وذو المجاز : أقرب إلى عرفة ، وهى سوق يحدها أكثر العلماء بأنها على فرسخ من عرفة بناحية (كبكب) وهو جبل بعرفات ، ونقل الزبيدى قولا آخر : أنها كانت بمنى ، وليس من شك أن تجمع الحجيج بهذه السوق ، وفى النهاية من موسم للحج ، من شأنه أن يمد السوق فتتبع لتمتد إلى « منى » وسمى ذا المجاز لأن إجازة الحاج كانت منه » .

راجع السيرة الحلبية : ٢/ ٩٠

وانظر المعجم الوسيط فى أقية الفرسخ : الفرسخ ، الميل الذراع ، وانظر لسعيد الأفغوانى أسواق العرب ، والألوسى : بلوغ الأرب : ١/ ٢٦٦ - ٢٦٩ ، ومجلة الأزهر : جوار المطعم بن عدى . الجزء العاشر شوال ١٤٠٨هـ ص ١٢٧٦ وما بعدها . وهامش ٣ من ص ١٢٧٨ .

٢- مجلة الأزهر مرجع سابق .

وإنما أريد أن تحرزونى فيما يراد لى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى ، وحتى يقضى الله لى ولمن صحبنى بما شاء ..

فلم يقبله أحد منهم ، ومايأتى أحداً من تلك القبائل الاقال :

قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلا يصلحنا ، وقد أفسد قومه ولفظوه »[1] .

وقد استقصى الإمام محمد بن عمر الواقدى الأمر فقص خبر القبائل واحدة واحدة ، فذكر عرضه عليه الصلاة والسلام نفسه على :

بنى عامر ، وغسان ، وبنى فزارة ، وبنى مرة ، وبنى حنيفة ، وبنى سُليم ، وبنى عبس ، وبنى نضر بن هوازن ، وبنى ثعلبة بن عكابة ، كندة وكلب ، وبني الحارث بن كعب ، وبنى عذُرة ، وقيس بن الحطيم وغيرهم .

على أن هذه الجولات ، وإن كانت فى جملتها لم تأت بطائل إلا أنها خاطبت – أو كادت – رءوس العرب جميعا ، فإن هذه القبائل جمعت بين جنوب الجزيرة وشمالها ، وأوساطها وجيوبها جميعا ، ورأى أشراف هذه القبائل رسول الله ﷺ ، وخاطبوه ونقلوا عنه وتحدثوا بأمره ، ومنهم من أسْقِطَ فى يده حين عاد إلى موطنه من الجزيرة دون أن يُجير رسول الله ﷺ .

ففى النهاية من أحد هذه المواسم الأخيرة وقد صدر الناس إلى ديارهم رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد أدركه السن حتى لايقدر أن يوافى المواسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه سألهم عما كان فى موسمهم فقالوا : جاءنا فتى من قريش ، ثم أحدُ بنى عبد المطلب يزعم أنه نبى يدعونا إلى أن (نمنعه) ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا .

١– سيرة ابن كثير : ١٥٨/٢ ، والسيرة الحلبية : ٥/٢٠ ، ومجلة الأزهر : جوار المطعم بن عدى ط شوال ١٤٠٨هـ .

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال :

يابنى عامر . هل لها من تلاف[1] ؟ هل لِذناباها[2] من مطلب ؟ والذى نفس (فلان) بيده ما تقولها[3] إسماعيلى قط ، وإنها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم ؟

وفى الحديث الشريف إخبار عن هذه الفترة ، روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه :

كلٌ بسنده إلى جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال :

كان النبى ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف ، فيقول :

« هل من رجل يحملنى إلى قومه ؛ فإن قريشًا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى ، عز وجل »[4] .

أسفرت دعوة النبى ﷺ القبائل عن ثلاث :-

أولا : رافضة : وأسوؤها ثقيفُ وبنو حنيفة . أهل اليمامة قوم مسيلمة الكذاب ، فعن عبد الله بن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ أتى بنى حنيفة فى منازلهم فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه فلم يك أحد من العرب أقبح ردا عليه منهم[5] .

وقد سبق الحديث عن ثقيف وموقفها .

ثانيا : أو مشترطة : ومنها بنو عامر ، وكندة .

فقد طرق رسول الله ﷺ منازل كندة فى الموسم ، وكانوا من اليمن من بنى عمرو بن معاوية ، فقال لهم رسول الله ﷺ :

١- تدارك .

٢- الدنابى : مَنْبِت ذنب الطائر .. يريد : أهذا أمر ولّى فلا يدركه أحد .. تحسراً منه مافات قومه .

٣- أى : ما ادعاها .

٤- الحديث بلفظ الإمام أحمد المسند : ٣/٣٩٠ الميمنية ، وانظر لأبى داود : كتاب السنة ، باب فى القرآن ، وانظر مقدمة ابن ماجة نهاية الباب ١٣ رضى الله عنهم أجمعين .

٥- مجلة الأزهر . مرجع سابق .

... هل لكم إلى خير ؟ قالوا : وما هو ؟

قال : تشهـدون أن لا إله إلا الله ، وتقيمون الصلاة ، وتؤمنون بما جاء من عند الله .

قالت كندة : إن ظفرت تجعلْ لنا الملك من بعدك ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : إن الملك لله يجعله حيث يشاء .

فقالوا : لاحاجة لنا فيما جئتنا به .. أجئتنا لتصدنا عن آلهتنا ، وننابذ العرب ، ألحق بقومك فلا حاجة لنا بك .

ومثل ذلك قالت بنو عامر : أرأيت ، إن نحن تابعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من يخالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

قال عليه والصلاة والسلام : الأمر لله يضعه حيث يشاء . قالوا : أفنهدف نحورنا للعرب ، دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ! لاحاجة لنا بأمرك(1) .

ثالثا : أو متأنية :

وأعلى أولئك أدبا بنو شيبان بن ثعلبة ، وكانوا وفدا كبيرا حضر الموسم يضم : مفروق بن عمرو ، وهانئ بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك .

حل بهم رسول الله ﷺ ، وبصحبته أبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما قدّم أبو بكر النبىَّ ﷺ إليهم فالتفت إليه مفروق فقال : إلام تدعو يا أخا قريش ؟ فقال ﷺ :

أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأنى رسول الله ، وأن تؤونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به ، فإن قريشا قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد .

١- السيرة لابن هشام : ٣٣/٢ .

ثم تلا عليه الصلاة والسلام مختارات من الكتاب العزيز ، فتلا :

« قل تعالوا أتْلُ ماحرم ربكم عليكم » .. إلى قول سبحانه : « ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون[1] » .

ثم تلا قوله تعالى :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »[2] .

قال مفروق : إذا انتهى ﷺ من الآيات الأولى :

... والله ، ماهذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه ، فلما سمع الآية الأخيرة قال : « دعوتَ ، والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك » .

وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام هانئ فقال :

وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

فقال هانئ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، وصدَّقتُ قولك ، وإنى أرى إن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر ، لم نتفكر فى أمرك ، وننظر فى عاقبة ما تدعوا إليه زلة فى الرأى وطيشة فى العقل وقلة نظر فى العاقبة ، وإن من ورائنا قوما نكره أن نعقد عليهم عقدا ، ولكن ترجعُ ونرجع وتنظر وننظر . وكان على ذلك رأى القوم[3] .

رفض بنو شيبان فى تلك الجلسة اعتناق الإسلام على نحو ما رأينا دون أن يؤذوا

١- الأنعام : ١٥١ - ١٥٣ .

٢- النحل : ٩٠ .

٣- مجلة الأزهر : مرجع سابق .

رسول الله ﷺ ، وقد علم مما سبق أن الرسول ﷺ لما أمره ربه عز وجل أن يعرض نفسه على قبائل العرب كان يقول :

« لاأكره أحدا منكم على شئ ، من رضى منكم بالذى أدعوه إليه فذلك ، ومن كره لم أُكْرِهْه إنما أريد أن تحرزونى فيما يراد لى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى » .

فكان طبيعيا إذا أن يكون حديث بين رسول الله ﷺ ، وبنى شيبان خاصاب « جوار » .. فماذا كان أمره .. ؟ .. إنه لذو شأن ، وأثر على مجريات الدعوة فى مكة .

تأسيس مملكتى الحيرة والغساسنة :

كانت جزيرة العرب تقع بين أعظم دولتين فى العالم : فارس شرقا ، والرومان غربا وقد حاول الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لغزوهم وسلبهم . ولكنهم عدلوا عن ذلك لما يستلزمه فتح جزيرة صحراوية من ضحايا فى الأنفس والأموال لامحل لبذلها .

لهذا رأى الفرس والروم أن خير وسيلة لدفع شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة[1] على أن يقروا فى التخوم[2] ، يزرعون ويتحضرون ، ثم يكوِّنون (Buffer Stare) أية مملكة حاجزة بينهم وبين قبائل البدو والعصابات المتعددة فى جزيرة العرب ، فتكونت إمارة الحيرة على تخوم الفرس ، وإمارة الغساسنة على تخوم الروم »[3] .

كان بنو شيبان من الشمال المتاخم لملكة الفرس ، وواضح أن المملكة العربية فى

١- أى القبائل العربية المجاورة لحدود الدولة من جهة الجزيرة العربية .

٢- التخم : بزنه حبك : الحدود الفاصلة بين أرضين ج : تخوم .

٣- د/ محمد محمد مصطفى النجار : تاريخ العرب قبل الأسلام ص ٣٧ نقلا عن مجلة الأزهر الجزء العاشر : شوال ١٤٠٨هـ من مقال : جوار المطعم بن عدى .

هذا الجزء خاضعة للنفوذ الفارسي ، وإن بدت ذات سيادة ، ولم تكن المملكة العربية وحدها - هي الخاضعة لهذا النفوذ ، فإن من جاورها من قبائل يسرى عليهم نفس النفوذ فعليهم ما على مملكة الحيرة من التزام .. وكان من هذه القبائل .. بنو شيبان :

ففي شأن الجوار قال المثنى محدثا رسول الله ﷺ عن منازل قومه في الشمال :

« إنا إنما نزلنا بين صَرَيَيْن[1] : أحدهما : اليمامة ، والآخر : السَّماوه .

فقال رسول الله ﷺ : وماهذان الصَّرَيان ؟

قال المثنى : أما أحدهما فطفوف[2] البَرّ وأرض العرب ، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى : أن لانحدث حدثا ، ولانؤوي محدثا .

ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما تكرهه الملوك .

فأما ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذرة مقبول .

وأما ما كان مما يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول فإن أردت أن (ننصرك) و (نمنعك) مما يلي العرب فعلنا » .

فالقوم هنا يعرضوه ابتداء جواراً لرسول الله ﷺ مشروطا بحمايته فقط من جهة أرض العرب ، فأما من جهة أرض فارس فلا قوة لهم بها حسب ماقبلوه من شروط « كسرى » .

ولا يغيب عن مسلم مدى كراهية (كسرى) لدعوة محمد ﷺ .

١- تثنية : صَرَى : كل ماء مجتمع ، وفي مجمع البلدان مايشير إلى علاقة بين السماوة وأم النعمان بن المنذر قال : السماوة ماءة بالبادية ، وكانت أم النعمان سميت بها فكان اسمها : فسمتها العرب ماء السماء .

٢- الطف : ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق .. والطف : الجانب أيضا .

« فقال رسول الله ﷺ :

ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق ، إنه لايقوم بدين الله إلا من أحاطه من جميع جوانبه » . وبشرهم رسول الله ﷺ بالنصرة على فارس ، وانصرف .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه :

« ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال :

يا على ، أية أخلاق للعرب كانت فى الجاهلية ، ما أشرفها ! بها يتحاجزون فى الحياة الدنيا »[1] .

فى أثناء ذلك .. ومن بعد الطائف .. وعلى مدى السنوات الثلاثة الأخيرة لرسول الله ﷺ وحين كان يلتقى بالقبائل .. فى أثناء ذلك كله كان النصر يدب دبيبا تسرى نبضاته فى خفاء وصدق .

ففى موسم السنة الثامنة من الإعلان بالدعوة التقى رسول الله ﷺ بالعقبة بستة رجال ، أو ثمانية من قبيلة الخزرج سكان يثرب فآمنوا به وصدقوه ، وفى العام الثانى صاروا اثنى عشر رجالا منهم : اثنان من الأوس قبلوا منه عهدة الإيمان بشروطها عند العقبة أيضا ، وفى العام العاشر ، وعند العقبة كانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتان : منهم أحد عشر رجلا من الأوس آمنوا به وعزروه ونصروه وأقاموا معه عهدة « جوار » تام ، هاجت لها قريش كأنما مسها شيطان فأخفرت جوار المطعم ، واجتمعت تتآمر على قتل رسول الله ﷺ وغُلِبَ المطعم على أمره حتى كان ولده جبير[2] بن مطعم شريكا مع بقية من تربصوا لقتله ﷺ ليلة الهجرة [3] .

١- راجع لابن كثير السيرة : ١٦٦/٢ ، والسيرة الحلبية : ٢/٤-٥ .
٢- جبير هذا أسلم بعد الحديبية وحسن اسلامه .
٣- مجلة الأزهر مرجع سابق .

عبرة واعتذار:

إما العبرة فتتمثل فى :

أ- أن على الداعى إلى الإسلام ألاييأس مهما لقى فى سبيل عمله فإن الحق مهما طال الزمن لابد أن ينتصر فلقد بذل الرسول صلى الله عليه وسلم كل وقته وراحته فى سبيل نجاح الدعوة وقد طمأنه الله بالنصر فقال سبحانه :

« كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »[1] .

ب- اهتمام الناس بهذه الدعوة جعل القاصى والدانى يسأل عنها ، وعن أهدافها .

جـ- حرص الرسول ﷺ على معرفة من يخاطبة ويدعوه إلى الله ، ومنهم عداس فلما أن علم بدينه أخبره الدليل على نبوته وأنه أخ ليونس بن متى (عليه السلام) فاكب عليه عداس يقبل رأسه ويديه ورجليه ، وشهد له بالنبوة ، والغلبة حتى قال لسيديه : (عتبة وشيبة) .

لما أرادا الخروج إلى بدر – فيما بعد – وأمراه بالخروج معهما قال لهما :

قتال ذلك الرجل الذى رأيت فى حائطكما تريدان ؟

فو الله ما تقوم له الجبال[2] .

أما الاعتذار فموقف عداس :

كان صنيع عداس اعتذار صريح لرسول الله ﷺ عما فعله أولئك السفهاء ، ولقد صور هذا المشهد تصويرا دقيقا الرافعى رحمة الله عليه فقال :

« يا عجبا لرموز القدر فى القصة ! أى قصة الطائف » .

١- المجادلة : ٢١ .

٢- سبيل الهدى والرشاد .. : ٥٧٨/٢ .

لقد أسرع الخير والكرامة والإجلال ، فاقبلت تعتذر عن الشر والسفاهة والطيش ، وجاءت القبلات بعد كلمات العداوة .

وكان ابنا ربيعة من ألد أعداء الإسلام ، وممن مشوا إلى أبى طالب عم النبى ﷺ من أشراف قريش يسألونه أن يكف عنهم أو يخلى بينهم وبينه ، أو ينازلوه وإياه حتى يهلك أحد الفريقين ، فانقلبت الغريزة الوحشية إلى معناها الإنسانى الذى جاء به هذا الدين ؛ لأن المستقبل الدينى للفكر لا للغريزة .

وجاءت النصرانية تعانق الإسلام وتعزه ، إذ الدين الصحيح من الدين الصحيح كالأخ من أخيه ، غير أن نسب الأخوة الدم ، ونسب الدين العقل .

ثم أتم القدر رمزه فى هذه القصة بقطف العنب سائغا عذبا مملوءا حلاوة فباسم الله كان قطف العنب رمزا لهذا العنقود الإسلامى العظيم الذى امتلأ حبا ، كل حبة فيه مملكة »[1] .

د- دخل رسول الله ﷺ مكة - مسقط رأسه - فى جوار المطعم بن عدى ، ويظل حافظا للمطعم هذه اليد التى امتدت له فى أحرج ساعات الضيق .. حتى إذا كانت موقعة بدر وأسر من أسر قال رسول الله ﷺ :

« لو كان المطعم بن عدى حيا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى - يعنى أسارى بدر - لأطلقتهم له »[2] .

وتعليقا على ماسبق :

ا- أن هذه الأعمال التى قام بها رسول الله ﷺ جزء من أعماله التبليغية إلى الناس ، ولقد علَّمنا النبى ﷺ القيام بالعبادات بالوسيلة التطبيقية ، فقال : « صلوا

١- وحى القلم : ٢ جـ٢ / ٣٠ .

٢- السيرة لابن كثير : ٢/١٥٤ .

كما رأيتمونى أصلى » وقال :

« خذوا عنى مناسككم » .

وليبين أن الصبر ومصارعة الشدائد من أهم مبادئ الإسلام التى بعث بها إلى الناس كافة وليحتسبوا كل فعلهم عند الله تعالى .

ب- رحمة رسول الله ﷺ بقومه فرغم هذه المحنة التى نزلت به فى الطائف ، ونزول جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ : إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .

فقال رسول الله ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا » .

أما شكواه ﷺ إلى الله عز شأنه ، فهى تحمل معنى التعبد والضراعة ، والتذلل له سبحانه فالمحن هى التى تقود صاحبها نحو الله لا أن تنسيه إياه سبحانه .

حـ- النفس البشرية مهما تسامت فهى لاتتجاوز دائرة بشريتها على كل حال ، والبشر مجبول فى أصل فطرته على الإحساس والشعور ، الشعور بلذة النعيم ، والشعور بألم العذاب ، وهو يركن إلى الأول ويفزع من الثانى .

ورسول الله ﷺ كان يوطن نفسه لتلقى أنواع الضر والعذاب فى سبيل ربه فهو مع ذلك بشر يتألم للضر ، ويستريح للنعيم .

د- ما فعله زيد بن حارثة رضى الله عنه من وقاية للرسول ﷺ بنفسه من حجارة السفهاء حتى أصابه شج فى رأسه نموذج للمسلم الغيور المحافظ على الدعوة وصاحبها .. وهذا معناه ألا نضن بأنفسنا عن سبيل الدعوة التى جاهد فيها رسول الله ﷺ ، فيكون هناك من يدافعون عن الدعاة الذين هم قادة الدعوة فى كل زمان(١) .

هـ- ما حدث لرسول الله ﷺ فى قصة الطائف ، وما عانه فى نفسه لم يزعزع

١- انظر فقة السيرة د/ البوطى ص ١١٠ ، ١١٢ .

ثقته فى الله عز وجل ، ولم يجعله يبتعد عن الله قيد أنملة ، وهذا واضح من جوابه ﷺ على سؤال زيد بن حارثة رضى الله عنه حين سأله متعجبا : كيف تعود يارسول الله إلى مكة وهم أخرجوك ؟ فكانت الإجابة ماقاله ﷺ :

« يازيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه » .

إنه يقين النبوة ، وتنفيذ أوامر الله عز وجل .

و- أما الجوار فهو أنواع :

١- جوار غير مشروط كجوار المطعم بن عدى لرسول الله ﷺ .

٢- جوار دخل عليه شرط كجوار ابن الدغنة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه .

٣- جوار مشروط ابتداء : وهو جوار قبائل بنى شيبان فى الشمال .

ى- أسفرت رحلة الطائف عن العوامل التالية :

١- وجدت رءوس الوثنية أكثر من عامل ليبرروا به إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم أو إيذاء أصحابه رضى الله عنهم .

٢- حين خرج رسول الله ﷺ من مكة لم يكن له جوار ... ليدخل فيه متى شاء .

٣- لم يكن الإذن بالهجرة لرسول الله ﷺ قد جاءه بعد ، وإلا فما كان أيسر عليه أن ينتقل من (نخلة[1]) حيث لامطارد ولا مطالب .

٤- كان لابد له ﷺ أن يعود إلى مكة ، ولكن كيف يدخلها ، ورءوس الوثنية لاتريده .

٥- كان لابد من طلب مجير ليتمكن من دخول مكة . فكان المطعم بن عدى حقا لقد كان الجوار خيرا ظهر أثره فى نصرة الدعوة والهجرة معا .

١- بلدة قريبة من الطائف .

الفصل الحادى عشر

منزلة الجوار وأثره فى الدعوة

رسول الله فى جوار أبى لهب !

الجوار فى الإسلام – بشائر انفراج الأزمة

منهج الرسول فى بيعتى العقبة :الأولى والثانية

الجوار المتبادل – أهمية الجوار فى دعوة الاسلام – لماذا لم يكتب الرسول كتابا بينه وبين الأنصار ؟

الإسراء والمعراج – تدرج الدعوة فى البلاغ إلى الناس – حفظ الدين وعصمته

رسول الله ﷺ فى جوار أبى لهب ! :

أحقاً رسول الله ﷺ فى جوار أبى لهب ؟ نعم ، هذا ماذكره أقطاب أهل السير :

الحافظ بن أبى الفرج الجوزى ،

والحافظ ابن كثير القرشى ،

ومحمد بن سعد صاحب الطبقات ،

والعلامة : برهان الدين الحلبى فى موسوعته « السيرة الحلبية » .

هؤلاء سجلوا : جوار أبى لهب .

فإذا تساءل البعض : لماذا أغفل بعض مؤرخى السيرة الشريفة جوار أبى لهب فلم يذكره ؟

والجواب فيما يبدو والله أعلم أن هذا الاغفال مرده إلى أحد أمور ثلاثة ذكرها الدكتور على الخطيب بقوله ؟

أ- إما لما فى بعض نصوصه من معارضة لما هو معروف من أمر « أهل الفترة » .

ب- وإما لأنه لم يكن ذا قيمة تذكر فى الدفع عن رسول الله ﷺ .

جـ- وإما فى تطبيق « منهج الحديث الشريف » على هذا « الحدث التاريخى » فأدى ذلك إلى إنكاره فنفيه .

وإذا كان إختلاف المناهج من « فن » إلى « فن » أمرا مقررا فإن استخدام بعضها مكان بعض أمر مرفوض ، ونحن إلى جانب ذلك نقول :

إننا إذا طرحنا من نصوص جوار أبى لهب مايتعارض والعلم بأهل الفترة سنخلص إلى الجوار لإبى لهب ، تستطيع قريش بما عرفت عن أبى لهب أن تصرفه عنه(١) .

ولما أنتهى جوار أبى لهب ، عاد « الأذى » سيرته الأولى لرسول الله ﷺ بل اشتد وتمادى على أعنف مايكون تدفعه « روح الاشتفاء » فى نفوس الوثنيين من قريش ، وقد حملت فى أمشاجها حقد السنين التى لم تستطع قريش أن تنال فيها من رسول الله ﷺ منذ جهر بالدعوة ، فانطلقت فى إيذائها كأنما تريد أن تستعيض مافاتها من أذى وأضعافه مضاعفة ، وحدا لهذه الرغبة فى نفوس القوم شعورهم أن أحدا من بنى هاشم أو المطلب لن يتقدم ليجير رسول الله ﷺ .

وخيل إليها غرورها أنها تستطيع أن تفعل برسول الله ﷺ ماتريد .

١- الجوار بعد أبى طالب : مجلة الأزهر الجزء التاسع رمضان ١٤٠٨هـ .

وترك رسول الله ﷺ قريشا لاشتفائها ، فقد رفع الله سبحانه عنه عِبْئَها إلى حين ؛ فإن الإسلام لم يكن دعوة تخصها ، وإنما هو دين أرسل به رسول الله ﷺ للناس أجمعين :

« لأنذركم به ومن بلغ »[1] فأمام رسول الله ﷺ الدعوة العامة وهو ﷺ مسئول عنها .

قال الإمام الحسن بن محمد النيسابورى فى تفسير قوله تعالى : « فتول عنهم فما أنت بملوم »[2] .

« فتول عنهم ؛ فإن تكذيبهم لا يوجب ترك الدعوة العامة .

فما انت بملوم على إعراضك عنهم بعد التبليغ ؛ لأنك قد بذلت مجهودك واستفرغت وسعك » .

وإذا كان رسول الله ﷺ منذ بدأ بالدعوة يبثها فى قريش ، وفى غير قريش من عرب وغيرهم ، فإنه – باستثناء قريش إلى حين – قد خلصت الدعوة إلى غيرهم ممن يرد مكة من حجيج ومعتمرين ، وممن يمر بها مُصعداً إلى الشام ، أو نازحاً إلى اليمن ، كذلك خلصت إلى ما قَرُبَ منها من بلد أو دار . لكن كان لابد من جوار ! فقد كان « الجوار – كما نقول بلغة عصرنا – الغطاء الذى يتحرك به رسول الله – ﷺ – آمنا ويتنقل فى ظله حيث شاء ، فليس ممكنا من حيث العرف والواقع أن ينطلق رسول الله – ﷺ – إلى موطن قبيلة ليدعو أفرادها إلى الإسلام دون أن يكون له « جوار » من سادتها يسمح له بما يريد . وأختار – عليه الصلاة والسلام – الطائف ليلقى فيها كلمة الله . وكان طبيعيا أن يلجأ إلى سادتها من ثقيف فى طلب الجوار فقد كانوا أقرب إلى

١- الأنعام : ١٩ .

٢- الذاريات : ٥٤ .

مكة مركز الدعوة وكان له - ﷺ - فيهم خؤولة ، فأرتحل إلى الطائف فى شوال من السنة العاشرة من النبوة(1) .

الجوار فى الإسلام

رأينا : كيف صاحب « الجوار » الدعوة ؛ بل كيف احتواها فعملت فى إطاره على مراحلها المختلفة منذ بدأ - عليه الصلاة والسلام - الدعوة الجهرية .

لقد كان « الجوار » فى كُلِّ درعَ الدعوة وغطاءها .

وهو درع وغطاء كشفت عنه « السيرة النبوية الشريفة » بكل وضوح فلا غرو أن يكون وَضْعُهُ درسا للدعاة .

ثم استقر الأمر :

فصار « الجوار » واحدا من معالم السياسة الخارجية فى الإسلام ، ذلك أنه « عهد » ينتظم فى سلك ما للدولة من حق فى إبرام العهود المختلفة التى تهدف - جميعا - إلى مافيه نفع للمسلمين ورفعة شأنهم أمنا وعيشا ودفاعا .

والجوار - دون شك - جامع لكثير من مكارم الأخلاق ؛ فإنه يعنى حماية إنسان - أو جماعة - نفساً وعرضا وأهلا ومالا .

ثم هو - من بعد - ضرورة تواجه الدولة فى شئون لا تجد بداً من إمضائها . ثم هو - فى مقدمة ذلك كله - واحد من سبل الدعوة إلى الله - تعالى - وتيسير بلاغها للناس(2) .

1- الحلبية ١ / ٣٥٣ باب ذكر خروج النبى - ﷺ - إلى الطائف ، مجلة الأزهر : الجوار بعد أبى طالب .

2- مجلة الأزهر : العدد الخامس . جمادى الأولى ١٤٠٩هـ .

بشائر انفراج الأزمة ومنهج الرسول مع وفود بيعتى العقبة:

جاء انفراج الأزمة على يد نفر من سكان يثرب : من الأوس والخزرج مجاورين لليهود ، وكان كثيرا ما يقع بين الطائفتين حروب ، وكان اليهود يتوعدونهم بأن نبيا مبعوث فى هذا الزمن ، ويقولون : إنا سنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، وكان هؤلاء النفر قد عزموا التوجه إلى مكة للحج ، وفى مكة وجدوا بغيتهم ، فقد رأى الأنصار رسول الله ﷺ ، يدعو الناس إلى الله تعالى ، ورأوا فيه أمارات الصدق ظاهرة عليه قالوا :

والله هذا الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه .

قال ابن اسحاق : فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله ﷺ فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا .

فلما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم :

« من أنتم ؟ » قالوا : نفر من الخزرج ، قال : « أمن موالى يَهُود ؟ » قالوا : نعم ، قال : « أفلا تجلسون أكلمكم ؟ » قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .... فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلَّمُوا والله إنه للنَّبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنّكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن :

أ- صدقوه ،

ب- قبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام ،

جـ- قالول له - مؤكدين على صدقهم -: إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم ، وعسَى أن يجمعهم الله بك ،

د - سندعوا قومنا الى أمرك ، ونعرض عليهم هذا الدين الذى أجبناك إليه ، فإن يجمعهم الله على هذا الدين ، فلا رجل أعز منك .

هـ- ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد أمنوا وصدقوا .

وكان من هؤلاء النفر : تيم الله ، وأسعد بن زرارة ، وعوف بن الحرث ، وعفراء بنت عبيد ، ورافع بن مالك ، وقطبة ابن عامر ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله[١] .

ويقول ابن سعد[٢] أن النبى ﷺ بعد أن عرض عليهم الإسلام فأسلموا طلب منهم قائلا :

أ- تمنعون لى ظهرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟

ب- فقالوا : نحن مجتهدون لله ولرسوله .

بيعة العقبة الأولى :

ذاع أمر الإسلام فى المدينة بعد هذا اللقاء المبارك ، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الانصار اثنا عشر رجلا[٣] ، فلقُوهُ بالعقبة ، وهى العقبة الأولى فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء .

(أى على نمطها فى الشروط التى بايع عليها النساء) أى لم يبايعهم على الحرب والجهاد ، وكانت بيعة النساء ثانى يوم الفتح على جبل الصفا بعد ما فرغ من بيعة الرجال[٤] ، وكان منهم :

١- السيرة لابن هشام : ٢/ ٣٨ ، ٣٩ .

٢- الطبقات : (١٤٧/١) .

٣- وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، ومعاذ وأخوه ، ورافع بن مالك ، وذكوان بن عبد قيس ، وذكوان مهاجرى أنصارى قدم على رسول الله ﷺ فى مكة وآمن به ، ثم بقى حتى هاجر إلى المدينة ، وراجع بقية الأسماء فى السيرة لابن هشام : ٢/٤٠ .

٤- كانت بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية ، فلم تشتمل على الحرب والجهاد قال عز شأنه « يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ، ولايسرقن ، ولايزنين ، ولا يقتلن أولادهن ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولايعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » المتحنة : ١٢ .

أسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التيهان .

قال ابن اسحاق : رواية عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفرض علينا الحرب على :

أ- أن لانشرك بالله شيئا ،

ب- ولانسرق ،

جـ- ولانزنى ،

د- ولانقتل ،

هـ- ولانأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ،

و- ولانعصيه فى معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل : إن شاء غفر ، وإن شاء عذب[1] .

وفى رواية ابن اسحاق عن الزهرى :

« وإن غشيتم من ذلك شيئاً ، فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب ، وإن شاء غفر[2] » .

ولما أنصرف القوم عائدين إلى المدينة بعث رسول الله ﷺ معهم : مصعب بن عمير رضى الله عنه :

وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين فكان يسمى مصعب بالمدينة المقرئ ، وكان نزوله على أسعد بن زرارة رضى الله عنه .

١- السيرة لابن هشام : ٤٠/٢ .

٢- البخارى : كتاب أحاديث الأنبياء باب وفود الأنصار ، وبيعة العقبة ، ومسلم : كتاب الحدود .

الخلاصة :

نستخلس من بيعة العقبة الأولى مايلى :

أ- بدأت الأزمة تنفرج ، وبدأ فى الأفق علامات نصر الدعوة .. ، وأن لأيام المعاناة ، أن تتحسن ، وثمرة الصبر والمثابرة تؤتى أكلها ، وبدأ زرع الدعوة يستوى على سوقه ليعطى للمسلمين البشرى والأمل .

ب- حرص النبى ﷺ على دعوة قومه ، وتقديم الأدلة تلو الأدلة على صدقه ، وصدق رسالته ، ولكن قومه أداروا له ظهورهم ، بل عاندوه ، واعتدوا عليه .

جـ- حرصه على ﷺ على هداية الناس ، فكان يعرض نفسه على القبائل الوافدة إلى مكة ، كدلال يدلهم على الخير ، ويدعوهم إلى بضاعة الدين وكنز التوحيد .

روى الإمام أحمد ، وأصحاب السنن ، والحاكم ، وصححه أن الرسول الله ﷺ : كان يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول :

« هل من رجل يحملنى إلى قومه ، فإن قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى »[1] .

د- تمهيد الله عز شأنه للدعوة الإسلامية فى المدينة التى كان أهلها خليطا من السكان الأصليين وهم :

العرب المشركون ،

واليهود المهاجرون إليها من أطراف الجزيرة ..

وانقسم العرب المشركون إلى قبيلتى : الأوس ، والخزرج .

واليهود يشكلون قبائل ثلاث :

بنى قريظة ، وبنى النضير ، وبنى قينقاع .

١- فتح البارى : ١٥٦/٧ ، وزاد المعاد : ٥٠/٢ ، والفتح الربانى فى ترتيب مسند الإمام أحمد : ٢٦٩/٢٠ .

واستطاع اليهود بسياستهم الملتوية أن يزرعوا الضغائن بين قبيلتى الأوس والخزرج ، فراح العرب يأكل بعضهم بعضا فى حروب طاحنه متلاحقة ، ويقول محمد ابن عبد الوهاب :

أن الحرب لبثت بينهم مائة وعشرين سنه[1] .

هـ- وصل الأمر بين الأوس والخزرج إلى أن حالف الأوس بنى قريظة ، وحالف الخزرج بنى النضير وبنى قينقاع .

و- وكانت آخر موقعة بينهم موقعة « بعاث » قبل الهجرة بسنوات قليلة ، وكان يوما عظيما مات فيه أكثر رؤسائهم .

ز- كان كلما وقع شئ بين العرب واليهود هدد اليهود العرب - فى يثرب - بأن نبيا قد أن أوان بعثته ، وأنهم سيكونون من أتباعه ، ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم مثل هذا الكلام جعل الأوس والخزرج يسرعون فى اتباع الدين الجديد الذى عرضه عليهم محمد ﷺ .

ح- كل ماحدث كان مما صنعه الله لرسوله ﷺ ، حتى يمهد بذلك لهجرته إلى المدينة ، حيث أقتضت حكمة الله أن تكون هى المنطلق للمدّ الإسلامى فى أرجاء الأرض كلها[2] .

١- مختصر سيرة الرسول . ص ١٢٤ .

٢- ابن القيم : زاد المعاد : ٢/٥٠ ط الحلبى .

بيعة العقبة الثانية :

هذه هى بيعة العقبة الكبرى ، إذ أن مصعب بن عمير رضى الله عنه لما رجع إلى مكة خرج معه المسلمون الذين آمنوا ، فوفدوا على رسول الله ﷺ، وواعدوه العقبة من أوسط أيام التشريق .

قال ابن اسحاق : رواية عن كعب بن مالك قال : فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها نمنا ، حتى إذا مضى ثلثُ الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى إجتمعنا فى الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان :

نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدى .

لقاء الرسول ﷺ بأهل العقبة يصحبه عمه العباس :

قال : فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه .

فكان أول المتحدثين : العباس بن عبد المطلب فقال :

يامعشر الخزرج : إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا .. وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ..

قال : فقلنا له : قد سمعنا ماقلت ، فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت قال : فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الأسلام ثم قال :

«أبايعكم على : أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم ، وأبناءكم » .

قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال :

نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا[1] .

فبايعنا يارسول الله فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الحلْقة[2] ، ورثناها كابرا عن كابر ، فاعترض القول والبراءُ يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان فقال : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا ، وإنا قاطعوها (يعنى اليهود) فهل عَسيْت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال « بل الدّم الدّم ، والهدمُ الهدمُ[3] ، أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » .

قال كعب : قال رسول الله ﷺ :

« اخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم » ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا : تسعةٌ من الخزرج ، وثلاثةٌ من الأوس .

فلما تخيرهم ، قال للنقباء :

أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى » .

يعنى المسلمين منهم قالوا : نعم .

أول من بسط يده لبيعة رسول الله ﷺ :

البراء بن معرور ، ثم بايع القوم كلهم بعد ذلك فلما بايعنا رسول الله ﷺ قال : « ارفَضوا إلى رحالكم » . أى تفرقو إلى رحالكم .

فقال العباس بن عبادة بن نضلة : والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل

١- يعنى النساء ، والمرأة يكنى عنها بالإزار .

٢- السلاح ، ومن أهل اللغة من يخصها بالدروع .

٣- قال السهيلى : « قال ابن قتيبة : كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار : دمى دمك ، وهدمى هدمك : أى ما هدمت من الدماء هدمته أنا ... راجع السيرة لابن هشام : ٢/٥٠ هامش ٣ .

منى بأسيافنا ، قال : فقال رسول الله ﷺ :

« لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم » .

فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا حتى أصبحنا ، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا فى منازلنا ، فقالوا : يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شئ ، وما علمناه وقد صدقوا لم يعلموه ، قال : وبعضنا ينظر إلى بعض »[1] .

قال : فانصرفوا عنه ، ونفر الناس من منى ، فتحرى القوم الخبر فوجدوه قد كان ، فخرجوا فى طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عباده بأذاخر[2] ، والمنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة بن كعب ، وكلاهما كان نقيبا ، فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه يضربونه انتقاما مما حدث .

شروط بيعة العقبة الآخرة :

قال ابن اسحاق : كان فى بيعة الحرب حين أذن الله لرسوله فى القتال شرط شرطه عليهم فى العقبة الأولى :

كانت الأولى على بيعة النساء ، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ فى الحرب ، فلما أذن له فيها ، وبايعهم رسول الله ﷺ فى العقبة الآخرة على حرب الأحمر والأسود أخذه لنفسه ، واشترط على القوم لربه وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة .

١- السيرة لابن هشام : ٥٧/٢ .

٢- اسم موضع قريب من مكة .

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه :

بايعنا رسول الله ﷺ على بيعه الحرب ، وكان عبادة من الاثنى عشر الذين بايعوا فى العقبة الأولى على بيعة النساء على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ، ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم(١) .

١- السيرة لابن هشام : ٦٣/٢ ، وكان عدد من شهد العقبة الآخرة ثلاثة وسبعون رجلا وأمرأتين ، وكان الرسول الله ﷺ لايصافح النساء ، إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررن قال : « اذهبن فقد بايعتكن » . المرجع نفسه :٧٤/٢ .

الجوار المتبادل

تأكد لقريش – بعد فوات الأوان – حصول رسول الله – ﷺ – على عَهْدٍ بـ « جوار » مع زعماء الأنصار من قبيلتى : الأوس والخزرج أهل « يثرب » صارتا به مسئولتين عن حماية رسول الله – ﷺ – وصحبه رضوان الله عليهم ولو أدى ذلك إلى « حرب الأحمر والأسود من الناس » .

وإنما تأكد ذلك لقريش – بعد فوات الأوان – بسبب أحكام التدبير لتلك الجلسة التى التقى فيها رسول الله – ﷺ – بالأنصار فقد حضر هؤلاء الموسم لايعلم مشركهم عن مسلمهم شيئا ، فلما حان اللقاء أنسل إليه المسلمون دون أن يشعر بهم أصحابُهم المشركون – ومضوا إلى « شعب العقبة » ، وهناك كان العباس بن عبد المطلب – وكان لازال مشركا – قد أحتاط لرسول الله – ﷺ – فأوقف عليا – رضى الله عنه – عيناً على رأس أحَدَىْ ممرّ الشعب ، وأوقف على الآخر أبا بكر – رضى الله عنه – فتأكد – بذلك – ألا يَخْلُصَ للقوم إلا من كان منهم . وكان العباس – إذا أرتفعت الأصوات – يقول – رضى الله عنه – أخفوا جرسكم[1] ، فإن علينا عيونا !

قال كعب بن مالك – يحدث عن تلك الليلة :– كما سبق –

« ... نمنا تلك الليلة مع قومنا – فى رحلنا – حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله – ﷺ – نتسلل تسلل القطا[2] مُستخفين حتى اجتمعنا – فى الشعب – عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسائنا »[3] .

وألقى – عز وجل – النوم على مشركى « يثرب » فلم يشعروا بتلك الجماعة من

١– صوتكم .

٢– نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء معروف بالخفه وعدم الجلبة .

٣– هما : أم عمارة : نسيبه بنت كعب من بنى مازن بن النجار ، وأسماء بنت عمرو بن عدى من بنى سلَمة .

صحبهم التى قضت ليلتها مع رسول الله - ﷺ - قال :

« فرجعنا - إلى مضاجعنا - فنمنا حتى أصبحنا ، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا فى منازلنا - كما تقدم -

وَعَمِيَتْ قريش عن الحقيقة فترة زمنية كانت كافية لينفر الكثير من الحجيج من « منى » إلى ديارهم ، ومنهم أهل يثرب ... خرجوا سالمين .... إلا واحدا هو موضوع دراسة « الجوار المتبادل » : سعد بن عبادة رضى الله عنه .

على أنه ينبغى إلقاء نظرة على تدبير قريش الرهيب الذى أتى عليه تماما هذ الحدث الأخير فجرده من أثره ومحتواه .

لقد نجحت قريش من قبل فى أن تغطى أرض الجزيرة بدعاية ضد رسول الله ﷺ - حسبك أن تقرأ عنها الخبر التالى لتعلم إلى أى مدى فازت قريش بإبعاد الناس عن محمد - ﷺ .

روى الإمام أحمد - بمسنده - فى هذا الشأن عن جابر - رضى الله عنه - روايتين لمضمون[1] واحد ساقه الإمام ابن كثير جامعا بينهما قال - رحمه الله :

مكث رسول الله - ﷺ - بمكة عشر سنين ، يتبع الناس فى منازلهم بعكاظ ومجَنَّة ، وفى المواسم ، يقول :

من يُؤْوينى ؟ من ينصرنى حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة ؟ فلا يجد أحدا يؤويه ، ولا ينصره حتى إن الرجل ليخرج من اليمن ، أو من مضر ، فيأتيه قومه ، وذوو رحمه فيقولون : احذر غلام قريش ، لايفتنك ويمضى (أى رسول الله - ﷺ -) بين رحالهم ، وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بعثنا الله إليه من « يثرب » فأويناه وصدقناه » .

إلى هذه الدرجة نجحت قريش فى إبعاد الناس عنه - عليه الصلاة والسلام -

---

١- أنظر « المسند » ٣/٣٢٢ ، ٣٣٩ - الميمنية .

حتى ليتلقى الركب تحذيرا من قبيلته قبل أن يتجه إلى الأرض الحرام ، فإذا حل فيها . ورأوا رسول الله - ﷺ - يسير بين مضاربهم داعيا إلى الله وحده أشار بعضهم إلى بعض للتعريف بشخصه تأكيداً للبعد عنه .

وكان فى نجاح البيعة تلك الليلة الخالدة إنهيار لتدبير قريش فقد وقع ما حذرت منه ، وضاع جهدها هباء ، وانتصر - عليه الصلاة والسلام - . وكان الحديث في تلك الليلة واضحا فاصلا حدد ما يريد رسول الله - ﷺ - قال أبو أمامة الأنصارى - رضى الله عنه - لرسول الله - ﷺ - « سل - يا محمد - لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم أخبرنا : مالنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك ؟

قال - ﷺ -

أسألكم لربى أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا .

وأسألكم - لنفسى وأصحابى - أن تؤْوُنَا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم .

قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

قال : لكم الجنة .

قالوا فلك ذلك .

قال جابر الأنصارى - رضى الله عنه - « فقمنا إليه فبايعناه » ومن عباراته - عليه الصلاة والسلام - بشأن هذه البيعة للأنصار - كلمات لم يتحدث بها رسول الله - ﷺ - لغير القوم - فيما أعلم ، فقد قال لهم :

« دمى ودمكم واحد ... وذمتى ذمتكم ... وأنا منكم وأنتم منى »[1] وياله من شرف !!

أهمية الجوار فى دعوة الاسلام :

كان لابد أن نبسط القول عن هذا « الجوار » نظرا إلى أنه « أهمُّ » عهد فى الإسلام ، أنطلقت بعده دعوة الإسلام إلى آفاق الأرض لايستطيع أن يصدها أحد ، ولقيمة هذا الجوار كان حَنَقُ قريش حين تأكدت الخبر فخرج رجالها يطاردون أهل « يثرب » فلم يدركوا منهم إلا اثنين من الخزرج هما : المنذر بن عمرو ، وسعد ابن عبادة – رضى الله عنهما .

فأما المنذر فأعجزهم مطاردةً فلم يدركوه ، ووقع سعد بأيديهم وكان منتظراً أن يُلِمَّ بسعد من العذاب ماتشتفى به قريش بعض الشئ لولا جوار تبادله مع رجال من قريش ، كان وقعه على نفوسهم أشد نكالا وأعظم ألما فقد كفهم عن الرجل فأبقى فى نفوسهم غصصا يجترونه غيظا وكمداً ؛ فابتلعت قريش غضبها لا عن حلم ، بل عن عجز كان ضريبة مباشرة لموجبات « الجوار » هذا « الجوار المتبادل » يقوم بين طرفين ليسا من وطن واحد مهما تباعدت بهما الديار – يتعهد فيه كل منهما بـ « جوار » أخيه وحمايته ، ودفع الظلم عنه وعمن يلوذ به من طرف أخيه . ويتم عقده على ذلك[2] .

وأما سعد بن عبادة رضى الله عنه ، فما أن وقع بأيدى القوم

حتى ربطوا يديه إلى عنقه بشراك رحله ، ثم أقبلوا به يضربونه ويجذبونه بجُمَّته حتى دخلوا به مكة ، وإنه لكذلك إذ رأى سهيل بن عمرو ، وكان وضيئا جميلا شعشاعا حلوا من الرجال ، فتوسم سعد فيه خيرا ، فإذا بسهيل يرفع يده فيلكمه لكمة شديدة .

١– أنظر الحلبية وابن كثير فى تلك البيعة .

٢– أنظر أفتتاحيتى مجلة الأزهر : المحرم وربيع الأول ١٤٠٨هـ والفرق بين الحلف والجوار : أن الحلف طرفاه متكافئان .

قال سعد : فقلت - فى نفسى :لا - والله - ماعندهم بعد هذا من خير ! وإنه لفى هذه البلوى قد نسى جواره إذ تقدم منه أبو البخْتَرِىّ بن هشام ، فقال له : ويحك ، أما بينك وبين أحدٍ من قريش « جوار » ولا « عهد » ؟ قال سعد : قلت : بلى ، والله ، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم تُجّارَهُ ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وللحارث ابن أمية ابن عبد شمس ... قال أبو البخترى : ويحك فاهتف باسم الرجلين ، واذكر ما بينك وبينهما .

قال سعد : ففعلت .

وانطلق أبو البخترى فوجد الرجلين بالكعبة ، فقال لهما :

إن رجلا من الخزرج الآن ليضرب بالأبطح ليهتف بكما ! قالا : من هو ؟

قال : سعد بن عبادة .

قالا : صدق ، والله ، أن كان ليجير لنا تُجّارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده .

فانطلقا إليه فخلصاه .

واضح مما سبق أن إعلان « الجوار » سبيل حاسم فى رفع الأذى .

وهذه صورة توضح أن الجوار يمنع الأذى :

تآخى أمية[1] بن خلف بن أبى صفوان - وهو من قريش - وسعد بن معاذ - رضى الله عنه - وهو من المدينة ، وكان إخاء قديما من قبل أن يسلم سعد - رضى الله عنه - وهو إخاء يستلزم فى مقدمة ما يستلزمه جوار كل منهما لأخيه ، فكان أمية إذا أرتحل شمالا فمر بالمدينة نزل على سعد ، كذلك كان سعد إذا إنطلق جنوبا فدخل مكة نزل على أمية ، فلما قدم رسول الله - ﷺ - مهاجراً ونزل المدينة ، أنطلق سعد إلى مكة معتمراً فنزل على أمية ، ولعلمه بالاحداث أراد ألا يحرج أمية فقال له :

١- ويكنى باسم ولده صفوان ، فيقال له : يا أبا صفوان .

أنظر لى ساعة خلوة لعلى أن أطوف بالبيت .

فقال أمية : ألا تنظر حتى يكون نصف النهار !

فخرجا قريبا من نصف النهار ، وأخذ سعد - رضى الله عنه - فى الطواف ، فإذا أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، من هذا معك ؟

قال أمية : هذا سعد .

فقال أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة أمنا وقد أويتم الصباة[1] وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ، أما - والله - لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما[2] .

بانتهاء هذا العرض للجوار المتبادل يتبين للقارئ أن الجوار المتبادل - فيما قدمنا من أحداث هو جوار « خارجي » يخالف ما قدمنا من جوار « داخلى » كجوار أبى طالب والمطعم بن عدى - وكلاهما من قريش - لرسول الله ﷺ وهو قرشى - عليه الصلاة والسلام.

تم كلا الجوارين « داخل القبيلة ».

لماذا لم يكتب رسول الله ﷺ كتابا بينه وبين الأنصار فى بيعتى العقبة كما لم يكتب كتابا بينه وبين المسلمين فى بيعة الرضوان ، على غرار كتاب المسلمين مع اليهود فى المدينة ؟

والجواب : أن الرسول ﷺ لما هاجر الى المدينة قام بأمرين لهما اهمية وأثر على المجتمع المدنى .

أولهما : أنه آخى بين المهاجرين والانصار حتى يطمئن على الموقف الداخلى

١- الخارجين على الدين ، يقصد المسلمين المهاجرين .

٢- فى بقية الخبر طرافة وجودة ، وبيان بإحدى معجزات النبى ﷺ . راجع مجلة الأزهر - الجوار المتبادل جـ ١ - المحرم ١٤٠٩هـ .

الجديد حتى أن التوارث كان يتم عن طريق هذا الإخاء فى ابتداء الإسلام ، بصرف النظر عن القرابة حتى نزل قول الله تعالى :

« وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من[1] المؤمنين والمهاجرين ..»

فتركوا التوارث بالإخاء الى القرابة تلبية لأحكام الله فى القرآن .

فالأخوة الحقيقية : أخوة العقيدة ، فهى الرباط المتين الذى يشد أواصر المجتمع ويقوم عليه بنيانه ويرتفع ، طبقها صاحب الدعوة ﷺ فى مكة ، فكان بلال الحبشى وعبيدة ابن الحارث أخوين ، وأبو بكر وعمر أخوين ، وحمزة بن عبد المطلب ومولى رسول الله ﷺ زيد بن حارثة أخوين ، ولم تغن القرابة من رسول الله ﷺ أبا لهب شيئا ، ونزل فى ذمه قرآن يتلى الى قيام الساعة ، وكأن تلك المؤاخاة بين أبناء القبيل الواحد كانت تمهيدا للمؤاخاة الكبرى التى ظهرت فى المدينة بين المهاجرين والأنصار ، والتى كانت النموذج الرائع لتطبيق الأخوة بين أفراد الأمة بشكل عملى ، وهو أمر لم يتحقق للناس ولن يتحقق إلا فى ظل الإسلام ، حيث لم يستغلها فريق على حساب فريق ، ولم تتخذ وسيلة أو ذريعة لتحقيق غاية فردية، بل لقيها كل فريق بالتضحية ، والتفانى والاخلاص .

فحين نجد موقف الإيثار عنه الأنصار ، يطالعنا موقف عزة النفس ، والتعفف لدى المهاجرين الأبرار ، فلله كم هى رائعة تلك الأخوة الإسلامية[2] .

ثانيهما : موادعة رسول الله ﷺ من بالمدينة من اليهود ، وكتب بذلك كتابا وأسلم

١- الأنفال : ٧٥ .

٢- راجع للحافظ أبى الفدا اسماعيل بن كثير : الفصول فى اختصار سيرة الرسول ﷺ ص ١٠٦ هامش : ١ . تحقيق : محمد العيد الخطراوى ، ومحيى الدين متو . ط الأولى ١٣٩٩ هـ .

حبرهم عبدُ الله بن سلام رضى الله عنه ، وكفر عامتهم ، وكانوا ثلاث قبائل :

بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة .

وكان دليل هذه الموادعة هذه الوثيقة ، أو الكتاب[1] الذى أبرم فى المدينة بين سكانها حتى يأمن كل منهم جانب الآخر .

أما لماذا لم يكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المسلمين فى المدينة ، أو بينه وبين الأنصار فى العقبة ، ولافى بيعة الرضوان[2] ، واكتفى فيها بالمبايعة ، وأخذ العهد ، بالمشافهة بينما نجده فى علاقاته مع اليهود والمشركين[3] لايكتفى بالمشافهة ، بل وثّقَ ذلك بالعهود الكتوبة المختومة .

ولعله ﷺ اعتمد فى العقبة والرضوان ، وأشباههما على ما كان يحسه فى نفوس أصحابه من أصالة إيمانية وعقيدة ثابتة ، واندفاع للتضحية فى سبيل هذا الدين الذى امتزجت به وجداناتهم ، وأشرقت به قلوبهم ، حتى أصبحو يرونه جزءاً من كيانهم وطريقا للحفاظ على وجودهم ، إذ الثبات فى العقيدة هو الدعامة المكينة فى ثبات الأخلاق .

قال العباس بن عبادة بن نَضْلة الأنصارى ليلة العقبة مخاطبا قومة :

« يامعشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا أُنهكت أموالكم معصيةً ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو

١- سوف أتكلم عن هذه الوثيقة إن شاء الله عند الحديث عن الدعوة المدنية فى جزء خاص .

٢- وهى التى نزل بشأنها قرآن يتلى إلى يوم تنويها بعظمتها .

٣- إشارة إلى الكتاب الذى عقده ﷺ بين المسلمين واليهود فى المدينة ، ومعاهدة الحديبية التى عقدها ﷺ مع مشركى مكة .

والله إن فعلتم خِزْيُ الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما ، دعوتموه إليه على نَهْكَة الأموال وقَتْل الأشراف فخذوه .

فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف فمالنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : « الجنة » .

قالوا : أبسط يدك فبسط يده فبايعوه .

أما اليهود والمشركون فإن قلوبهم كانت تتميز غيظا وتغلى حقدا على محمد وصحبه ولم يكن ليخفى عليه ماتنطوى عليه قلوبهم من بغضه وكراهيته .

فليس من الحكمة فى شئ أن يكتفى منهم بكلمة أو عهد شفهى ، بل الحكمة كل الحكمة أن تكتب الكتب وتُوَثّق المواثيق .

هذا علاوة على ماعُرف به اليهود من غدر وخيانة خبرها الأنصار منهم فى الجاهلية ، ونزل بها بعد ذلك القرآن ، وبرهنت عليها الحوادث فى غير ما وقعة من وقائع الإسلام .

يضاف إلى هذا أن تعامله ﷺ مع المشركين واليهود كان تعاملا مع أناس خارجين عن دائرة الإسلام والمسلمين ، وهذا يعطينا القدوة لما ينبغى أن يكون عليه التعامل بين الدولة الإسلامية ، وغيرها من الأمم المعادية الكافرة[1] .

وإذن لاينبغى أن تصدنا المحن والعقبات التى تكون فى طريق الدعوة الإسلامية عن السير ، وأن لاتبث فينا روح الدعة والكسل ، مادمنا نسير على هدى من الإيمان بالله وتوفيقه فمن استمد القوة من الله جدير أن لايعرف لليأس معنى ، لأنه على يقين

١- الفصول فى اختصار سيرة الرسول ﷺ ص ١٠٥ هامش ٣ .

من النصر فى النهاية[1] .

الإسراء المعراج :

أسبابهما :

أ- أراد الله عز وجل أن يسرى عن رسوله محمد ﷺ ، عقب وفاة عمه أبى طالب وزوجه السيدة خديجة رضى الله عنها . فى عام واحد .

ب- اشتد إيذاء الكفار ، وتنكر قومه له ، وتحريض السفهاء عليه.

فجاءت دعوة الله له إلى رحلة علوية قديسية « ليريه من آياته الكبرى » . لتغسل عنه كل هذه الأدران ويستمتع بملكوت الله ويشاهد ابتهاج السماوات والملائكة والأنبياء به فكانت رحلة الإسراء من المسجد الحرام ، إلى بيت المقدس ، ثم العروج من بيت المقدس إلى حيث توقف جبريل عليه السلام ، ليستأنف محمد ﷺ الرحلة إلى حيث يسمع صريف أقلام الملائكة .

وكانت رحلة مباركة حقا فقد فرض الله على رسوله وعلى أمته أعظم هدية علوية قدسية إنها « الصلاة » . راحة القلب والفؤاد .

وتتلخص هذه القصة المباركة فى أنه :

أسرى برسول الله ﷺ بروحه وجسده على الصحيح من قول الصحابة ، والعلماء من المسجد الحرام إلى المسجد المقدس ، راكبا البراق فى صحبة جبريل عليه والسلام فنزل ، ثم أم الأنبياء ببيت المقدس فصلى .

ثم عرج به تلك الليلة من هناك إلى السماء الدنيا ، ثم للتى تليها ، ثم الثالثة ، ثم التى تليها ، ثم الخامسة ثم التى تليها ، ثم السابعة ، ورأى الأنبياء فى السماوات على منازلهم ، ثم عرج به إلى سدرة المنتهى ، ورأى عندها جبريل على الصورة التى خلقه

١- فقه السيرة للدكتورة محمد سعيد البوطى : ١٠٩ ومابعدها .

الله عليها ، وفرض عليه الصلوات تلك الليلة .

واختلف العلماء : هل رأى ربه عز وجل أولا ؟ والتحقيق ماورد عن ابن عباس أنه قال :

رأى ربه ، وجاء فى رواية عنه : رآه بفؤاده .

وفى الصحيحين[1] : عن عائشة رضى الله عنها أنكرت ذلك على قائله ، وقالت هى وابن مسعود : إنما رأى جبريل .

وروى مسلم[2] فى صحيحه من حديث قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبى ذر أنه قال : سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنّى أراه » .

وفى رواية : « رأيت نورا فهذا الحديث كاف فى هذه المسألة .

قال ابن القيم رحمه الله : بعد أن ساق أقوال ابن عباس ، وعائشة ، وأبى ذر فى ثبوت الرؤية ونفيها ، وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمى اتفاق الصحابة على أنه لم يره .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وليس قول ابن عباس « أنه رآه » مناقضا لهذا ، ولا قوله « رآه بفؤاده » ، وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « رأيت ربى تبارك وتعالى .. » .

ولكن لم يكن هذا فى الإسراء ، ولكن كان فى المدينة ، لما احتُبس عنهم فى صلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة فى منامه .

١- البخارى : كتاب التفسير باب سورة النجم ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، ومسلم عن مسروق فى كتاب الإيمان ، باب معنى قول الله عز وجل « ولقد رآه نزلة أخرى » .

٢- كتاب الإيمان : باب فى قوله عليه السلام (نور أنى أراه ؟) .

وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله تعالى : وقال : نعم رآه حقا ؛ فإن رؤية الأنبياء حق ولابد ولكن لم يقل الإمام أحمد أنه رآه بعينى رأسه يقظة ، ومن حكى عنه ذلك فقدوهم عليه ، ولكن قال مرة : رآه ، ومرة قال : رآه بفؤاده .

فحكيت عنه روايتان ، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أن رآه بعينى رأسه ، ومن يراجع نصوص الإمام أحمد لايجد فيها ذلك[1].

ولما أصبح النبى ﷺ من نومه أخبرهم بما أراه الله من آياته الكبرى[2] ، فاشتد تكذيبهم له ، وأذاهم واستجراؤهم عليه .

منهج النبى ﷺ فى عرض نفسه على القبائل

شغل المكيون أنفسهم بحادثتى الإسراء والمعراج، وأخذوا يفكرون ويدبرون كيف يواجهون الموقف ؟ تركهم رسول الله ﷺ فى انشغالهم ، وفتح بابا آخر هو عرض الدعوة على القبائل أيام المواسم ويقول :

« مَنْ رجل يحملنى إلى قومه فيمنعنى حتى أبلغ رسالة ربى فإن قريشا قد منعُونى أن أبلغ رسالة ربى » .

ورواه أبو داود : كتاب السنة (باب فى القرآن) عن جابر بن عبد الله قال :

كان رسول الله ﷺ » يعرض نفسه على الناس فى الموقف فقال :

« ألا رجل يحملنى إلى قومه ، فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى »[3] .

هذا وعمه أبو لهب – لعنه الله – يقول للناس : لا تسمعوا منه فإنه كذاب ، فكان

١- راجع : زاد المعاد : ٢/١٥٤ ط .

٢- راجع تفسير ابن كثير أول سورة الأسراء .

٣- وأخرجه الترمذى فى باب ثواب القرآن : باب حرص النبى ﷺ على تبليغ القرآن ، ورجاله ثقات . راجع مجمع الزوائد : ٦/٣٥ ، ورواه ابن ماجه فى المقدمة باب فى ما أنكرت الجهمية . وراجع الفصول .. ص ٩٤ ومابعدها وهامش ١ من ص٩٥ .

أحياء العرب يتحامونه لمايسمعون من قريش عنه :

إنه كاذب ، إنه ساحر ، إنه كاهن ، إنه شاعر ، أكاذيب يقذفونه بها من تلقاء أنفسهم ، فكان يصغى إليهم من لاتمييز له من الأحياء ، فكان ﷺ يجعل ما يتقولونه عليه دبْر أذنه ، ثم ينطلق باحثا عن قلوب تقبل دعوة ربه ، أما الأولياء فإنهم إذا سمعوا كلامه وتفهموه شهدوا بأن ما يقولُه حق ، وأنهم مفترون عليه فيسلمون(1) .

منهج الدعوة .. فى البلاغ إلى الناس :

مرت الدعوة الإسلامية منذ فجرها فى مكة بمراتب زمنية ، طبقا لسنة الله تعالى فى تدريج تشريعاته السابقة زمنا بعد زمن .. وطبقا كذلك لسنته تعالى فى شريعة الإسلام .. إذ لم تكن دفعةً واحدة ، ولا كانت فى زمن محدود معين من أول الأمر ، وإنما عرفت مدتها بوفاة النبى ﷺ ، فتبين للمسلمين يومئذ أن زمنها قد تحدد ، وأيقنوا أن زمن الرسالة – بفترتيْها : المكية والمدنية – كان ثلاثا وعشرين سنة منذ بدأ الوحى إلى الوفاة(2) .

هذا : ومراتب الدعوة كانت خمسا كما يذكره ابن القيم(3) :

المرتبة الأولى : النبوة .

المرتبة الثانية : إنذار عشيرته الأقربين .

المرتبة الثالثة : إنذار قومه .

المرتبة الرابعة : إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله : وهم العرب قاطبة .

١– الفصول .. : ص ٩٥ .

٢– الشيخ عبد اللطيف السبكى : الوحى إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ص ٦٦ .

٣– زاد المعاد : ٢/٢٠ .

المرتبة الخامسة : إنذار جميع من بلغتهم الدعوة من الإنس ، والجن إلى آخر الدهر .

وعلى سبيل المثل : نزل الوحى أولا بسورة « أقرأ » فتحققت نبوته ورسالته على وجه اليقين ؛ لأن القرآن لاينزل الا للدعوة : وهى لا تكون لغير نبى مرسل ، خاصة بعد الإرهاصات[1] الأكيدة .

ثم نزل الوحى ثانيا بعد ذلك : « يأأيها المدثر ثم فأنذر » .

فكان ذلك مزيد إعلان وكشف لرسالة محمد ﷺ .. وكانت الدعوة فى هذا الحين سرا ، فأنزل الله عليه الوحى : « فاصدع بما تؤمر » وبذلك تطورت الدعوة إلى الجهر .. ثم نزل الوحى رابعا ، بقوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » .. ثم اتجهت الدعوة بأمر الله إلى مكة ومن حولها من القبائل ، ثم إلى جميع الإنس والجن ، والقرآن يشير إلى ذلك التدرج فى قوله تعالى : « لتنذر أم القرى ومن حولها » وقوله مرة ثانية عن القرآن : « لأنذركم به ومن بلغ » يعنى وأنذر به جميع من بلغته دعوتى إلى التوحيد والإسلام .. ومن هذا الإجمال نفهم أن الإسلام كان يبسط دعوته رويدا ، رويدا ، بلا إرهاق ، ولا عنف ، ولم يكن ينكمش أمام معارضيه ، بل كلما حاولوا اطفاء نوره أبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون[2] .

ولا يفهم من هذا التصوير أن رسالة النبى كانت بالتدريج يعنى تقع مجزأة ، بل القصد ترتيب التوجيهات التى تعلقت بها الدعوة ، لتقريبها إلى الأذهان كيف كان يدعو « هل دعا الناس دفعة واحدة ؟؟ أو تدرج فى خطابه للناس من الأقرب إلى القريب ثم إلى الجار ، ثم إلى البعيد ثم إلى الأبعد منه .. ؟؟

١- راجع فى هذا الموضوع : الوحى إلى الرسول محمد ﷺ ص ٣١ ومابعدها .
٢- الوحى إلى الرسول محمد ﷺ ص ٦٧ .

أما من حيث ثبوت نبوته ، ورسالته ، فكان أمرا مقطوعا به منذ نزل الوحى الأول ، كما ألمعنا ذلك من قبل « ومنذ تحققت له صفتا النبوة والرسالة ، صار القرآن يخاطبه بكل من الصفتين على التناوب » .

فإذا دققت النظر وجدت القرآن يصرح باسم محمد ثلاث مرات فقط :

أحداها : يقرن فيها بين اسمه الصريح ، وبين وصفه بالرسالة والنبوة فيقول تعالى:

« ماكن محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين »(١) .

ثاينها : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل »(٢) .

ثالثها : « محمد رسول الله »(٣) .

ففى هذه الآيات تسجيل النبوة والرسالة باسم محمد ﷺ ، فلا مندوحة من الإيمان بهذا(٤) .

وعلى هذا فأطوار الدعوة فى مكة زمنيا ثنتان :

أ- الدعوة وهى فى ظل العمل السرى ومدتها ثلاثة أعوام ..

ب- الدعوة فى ظل العمل الجهرى ومدتها عشرة أعوام(٥) ..

جـ- الدعوة المدنية ، ومدتها عشرة أعوام .. وسيأتى الحديث عنها إن شاء الله .

ومراحل تبليغ الدعوة أربعة وهى :

١- مرحلة واحدة فى دور العمل السرى وهى مرحلة إعداد :

القيادة وثلاث مراحل بعد قوله تعالى :-

١- الأحزاب : ٤٠ .

٢- آل عمران : ١٤٣ .

٣- الفتح : ٢٩ .

٤- الوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ص ٦٨ .

٥- تاريخ الطبرى : ٣١٨/٢ ، الكامل فى التاريخ ٦٠/٢ ، دلائل النبوة للبيهقى ٣٩٠/١ .

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » وهى :

٢- « وأنذر عشيرتك الأقربين » ..

٣- « لتنذر أم القرى ومن حولها » ..

٤- « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » .

ويلخص هذه المراحل الحديث الذى أورده شارح الشفاء[١] ، والذى قال فيه ﷺ :

« بعثت إلى الناس كافة :

فإن لم يستجيبوا لى فإلى العرب ..

فإن لم يستجيبوا لى فإلى قريش ..

فإن لم يستجيبوا لى فإلى بنى هاشم ..

فإن لم يستجيبوا لى فإلى وحدى .. »

ذكره السيوطى فى جامعه الصغير ..

ففى الحديث خمس دعوات : واحدة للناس كافة ، وواحدة للعرب ، وواحدة لقريش وواحدة لبنى هاشم ، وواحدة لذاته الشريفة ..

فإذا استثنينا الدعوة الأخيرة ؛ لأن الله تعالى فتح به لدينه فى كل صوب وحدب وانشرحت لدعوته العقول وآمنت بها القلوب ، وبقيت أربع دعوات للناس كافة ، وللعرب ، ولقريش ، ولبنى هاشم . وهذا التقسيم إذا أضيفت اليه النبوة يوافق ماورد فى زاد المعاد فى تقسيم الدعوة إلى خمس مراتب[٢] .

١- الشفاء شرح على القارى : ٣٠٠/١ ، وراجع السراج المنير : ١٤٣/٢ من حديث ابن سعد عن خالد ابن سعدان مرسلا . انظرى الدعوة الإسلامية فى عهد الملكى ص ٢٩٦ ، وأما الحديث عن الدعوة المدنية فسوف أفرد له جزءا خاصا إن شاء الله .

٢- راجع : الدعوة الاسلامية فى عهد الملكى .. ص ٢٩٦ ، ومابعدها .

حيث قال :

« فصل في ترتيب الدعوة ، ولها مراتب » :

المرتبة الأولى النبوة ..

المرتبة الثانية : إنذار عشيرته الأقربين ..

المرتبة الثالثة : إنذار قومه ..

المرتبة الرابعة : إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبلهم وهم العرب قاطبة ..

المرتبة الخامسة : إنذار جميع من بلغته من الجن والإنس إلى آخر الدهر ..[1] .

١- ابن القيم : زاد المعد : ٢٠/١ .

حفظ الدين وعصمته :

يراد بالدين هنا الإسلام لقوله سبحانه : « إن الدين عن الله الإسلام » .

وحفظه عصمته من الضياع ، أو الانحراف ، أو التبديل ، أو التغيير لقوله سبحانه :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(١) .

وهذه الآية الكريمة صريحة وواضحة الدلالة على شأن القرآن ، فإنه المراد بلفظ الذكر وهو بحق الذكر الحكيم ، وكما وصفه الله سبحانه بقوله مخاطبا رسوله ﷺ :

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون »(٢) .

وقول الكفار :

« يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون »(٣) .

وقول القرآن مخبرا عن الكافرين المكذبين به .. :

« إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(٤) .

وقد حفظ الله كتابه أى عصمه من كل مساس يرقى إليه أو يدنو منه .

فما معنى عصمة القرآن من كل مساس ؟

إن الجن كانت تدأب فى محاولات استراق السمع أثناء مناجاة الملائكة أو يكون لهم نزول بالوحى إلى رسول ، وإلى محمد ﷺ بالذات كما قالوا :

١- الحجر : ٩ .

٢- النحل : ٤٤ .

٣- الحجر : ٦ .

٤- فصلت : ٤١ ، ٤٢ .

« وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع »(١) .

فلما حيل بينهم وبين ذلك تعجبوا ، وعلموا أن أمراً ما قد حدث حتى قالوا :

« فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا »(٢).

ثم اظهروا جهلهم وعدم معرفتهم بالغيب فقالوا :

« وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم رشدا ؟ »(٣) .

ولما كانت قريش يشغلها شاغل ذو بال من الغيظ لنزول الوحى بالقرآن على محمد ﷺ ، كان موقفها يزداد كراهية للقرآن ، وتزداد له عنادا ، وبحثا عن النيل منه .

ولم تخل الأمة العربية من خصوم ركبوا رؤوسهم وماجوا في باطلهم يتكلفون الاعراض دون أن تكون لهم معذرة ، وإزاء هذه الخصومة المتغلغلة فى الجزيرة العربية كانت للقرآن مع العرب خاصة ومع غيرهم عامة تحديات :

أمرهم أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، ثم خفف عنهم فطالبهم بسورة من مثله فعجزوا ومازادهم هذا التحدى إلا عماية وكبرياء وسفاهة فعاش من عاش منهم وهم عن آياته عاجزون ، وعن الحق معرضون(٤) .

قال سبحانه : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله »(٥) .

« فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين »(٦) .

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ..»(٧) .

١- الجن : ٩ .
٢- الجن : ٩ .
٣- الجن : ١٠ .
٤- الوحى إلى رسول الله محمد ﷺ ص ١١٧ .
٥- يونس : ٣٨ .
٦- الطور : ٣٤ .
٧- هود : ١٣ .

« وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله »[1] .

هذا التحدى واجه القرآن به العرب إبان نزوله ، وأراد الله عز وجل أن يقطع الطريق أمام من يظن أن البشرية فى مستقبل أيامها قد تستطيع أن تأتى مثل هذا القرآن فأقسم الله أنها لاتستطيع ولو ظاهرها الجن .

« قل لئن أجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[2] .

فكان من تحديات القرآن أن يذكر الله لهم من صفاته مايعجزهم عن اللحاق بها أو الاتصاف بمثلها يصف الله كتابه بقوله :

« ذلك الكتاب لاريب فيه هدي للمتقين »[3] .

كما وصفه بأنه :

« أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »[4] .

كما وصفه بأنه :

القصص الحق ، وبأنه لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، كما وصفه بأن الإنس والجن لايستطيعون الإتيان بشئ مثله ولو كان بعضهم لعض ظهيرا . وما كان ويكون حال الطاعنين على القرآن إلا الإستسلام لو عقلوا ، وأن يتمثلوا فى القرآن قول الشاعر :

هى الشمس مسكنها السماء

فعز الفؤاد عزاء جميلا

١- البقرة : ٢٣ .
٢- الإسراء : ٨٨ .
٣- البقرة : ٢ .
٤- هود : ١ .

فلن تستطيع إليها الصعود

وإن تستطيع إليك النزولا

وليس يضير القرآن أن يكون هناك دائما متخلفون يرجفون بباطلهم ، ويروجون من حين لآخر بتشكيكاتهم ، وتمويهاتهم ، يحسبونها تمسه بسوء فتبرد أكبادهم الحانقة ، أو تنال من عصمة القرآن الكريم ، أو تغيض من شموله ، ومن هيمنته فى التشريع على ماسبقه من الكتب السماوية ، أو تمد إليه يدا عابثة ، أو تمكن منه شبهة مضللة كما أصاب تلك الكتب .

ذلك لأن الله وعد ، ووعده الحق : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1] .

فليموتوا بغيظهم .

ما ضر شمس الضحى فى الأفق طالعة ... ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر[2]

ثمرات الوحى :

من أجل ثمرات الوحى على رسول الله محمد ﷺ ، ومما يفيض بالخير العميم على البشرية ، والنعمة المسداة إلى الإنسانية .. أمران :

الأمر الأول قرآن : « وماآتاكم الرسول فخذوه ، ومانهاكم عنه فانتهوا »[3] .

الأمر الآخر سنة : « تركت فيكم أمرين : لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسنة رسوله[4] .

وهذه الآية صريحة فى إيجاب الأخذ عن رسول الله ﷺ لكل مايبلغنا عن الله ، وكل ما يصدر عنه فى الدين .

١- الحجر : ٩ .

٢- الوحى إلى رسول الله محمد ﷺ ص ١١٩ ، ١٢٠ .

٣- الحشر : ٧ .

٤- أخرجه الحاكم عن أبى هريرة .

ثم هذا الحديث الشريف يوجز لنا تراث الدعوة الإسلامية على اتساع مداها فى المصدرين الكتاب والسنة ..

فأصلهما واحد ، وهو الوحى من عند الله ، وهما ملاك الأمر كله كما توجهنا الآية ، وكما يفيد الحديث . وهما على طول الزمن ، مرجعنا فى كل مانحتاج إليه من شئون التشريع . لأن الله عز وجل جعل الوحى بنوعيه نطاق الرسالة ، وحدده فى كثير من الآيات

« يا أيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك »[1] .

« واتبع ما يوحى إليك »[2] .

وكان الرسول ﷺ يترسم هذا النطاق فى وعى كامل ، ويقول ما أمره به ربه :

« إن أتبع إلا ما يوحى إلى »[3] .

وهو بهذا يتحفظ فى حدود قوله تعالى « واتبع مايوحى إليك »[4] .

وإلى هذا التراث : من قرآن وسنة ، يوجهنا القرآن .. بتكليفه الحتمى :

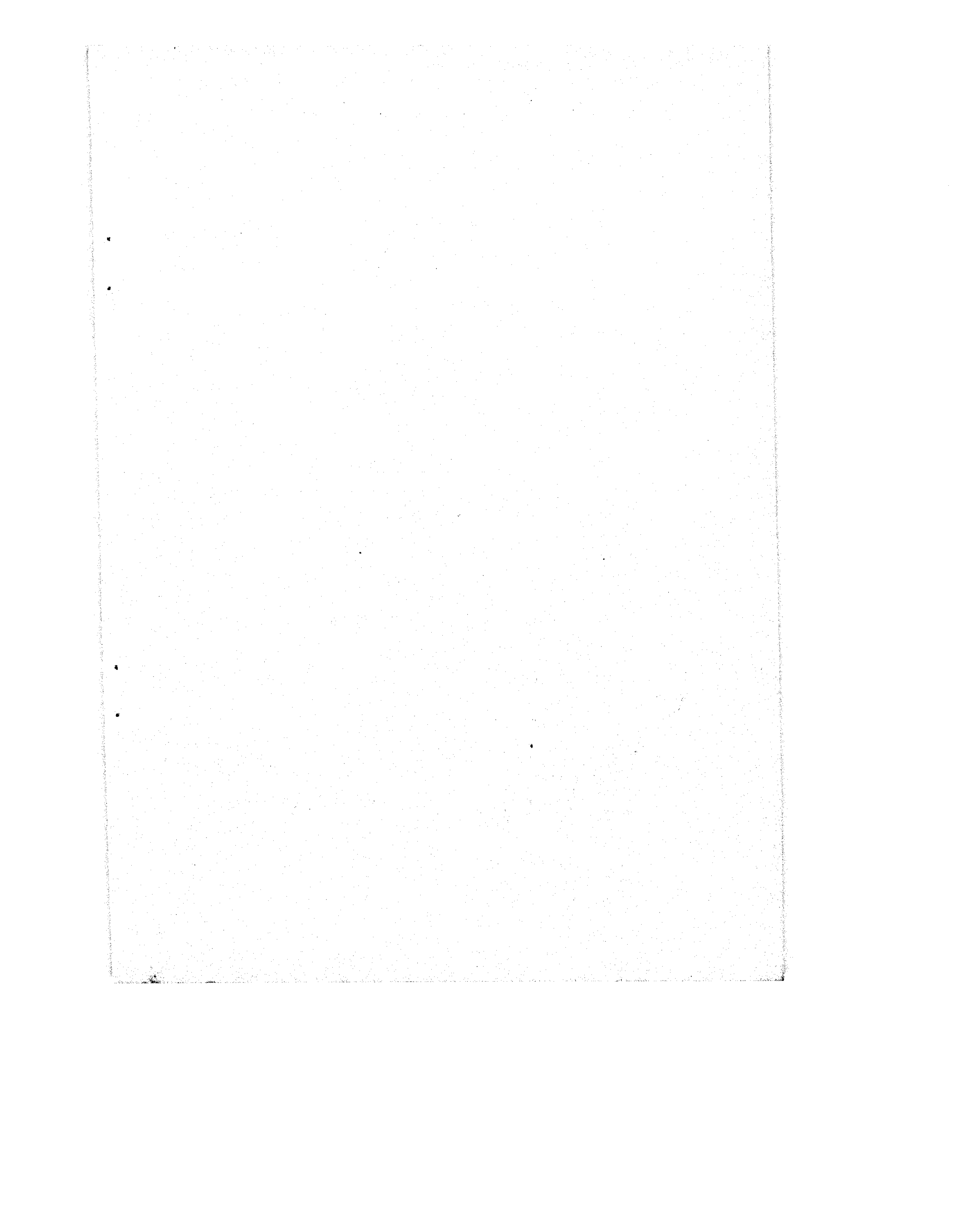
« فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا »[5] .

« وما أتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب »[6] .

١- المائدة : ٦٧ .
٢- الأنعام : ١٠٦ .
٣- يونس : ٥١ .
٤- يونس : ١٠٩ .
٥- النساء : ٥٩ .
٦- الحشر : ٧ .

« فموقفنا من التشريع الإسلامى لايحيد ، ولاينبغى أن يحيد عما يدور فى فلك القرآن والسنة ، وقد تآزرت الآية والحديث فى الإفصاح عن سعة هذا الفلك ، حتى أنه لايضيق يوما بما نحتاج إليه ، وإننا لانضل عن الصواب مادمنا مستضيئين بهدى القرآن والسنة »[1] .

١- الوحى إلى رسول الله محمد ﷺ ص ١٢١ .



الفصل الثانى عشر

الجوار وأثره فى نجاح الهجرة

مشروعية الهجرة – الهجرة انطلاق لتحقيق أهداف
الدعوة – لماذا خرج المسلمون فرادى ؟
هجرة الأنبياء – لماذا حطم الاسلام الأصنام ؟
مكانة الهجرة فى القرآن والسنة – الهجرة
فى فكر المستشرقين – مقارنة بين هجرة الحبشة والمدينة .

أهمية الجوار فى نجاح الهجرة

قدمنا دراسة عن « الجوار » وتناولنا هسياسته داخلية وخارجية للقبيلة ، ولمسنا تفاعله – إيجابا وسلبا – مع رسول الله – ﷺ – ورأينا كيف تناوله – **عليه الصلاة والسلام** – على أعلى مستوى من قمة السياسة حتى انفصل به – فى قوة منيعة – تحمى المسلمين بالمدينة .

فَعَلَ ذلك وهو محاط بأعدائه مما يشهد له – **عليه الصلاة والسلام** – بتفوق منقطع النظير . وكان – مع ما استجمع من القوة – على سياسة عادلة منصفة تُسالم قريشا ما سالمت قريش ، فإن لج بها شيطان الهوى فعلى نفسها جنت ، ولنعرض لسياسة « الجوار » !

وهى أحد عناصر السياسة التى صاحبت الدعوة فى مكة إلى قبيل هجرته – عليه الصلاة والسلام – وكانت عماداً للدين وحَنَقاً على المشركين زادهم سخطا بما غَلَّ من أيديهم عن رسول الله – ﷺ – والكثير من صحابته رضوان الله عليهم .

و « الجوار » : عهد يلتزم به أحد طرفين غير متكافئين من حيث القوة والمَنَعَة – بحماية الطرف الآخر .

إنه « تعهد » الطرف الأقوى بكل ماله من نفوذ وسلطان ببسط الحماية والأمن على الطرف المستجير فيمنع عنه الأذى وأسبابه .

وبدهيا أنه لا يقوم ضد طرف ثالث أقوى من المجير فالمجير لا يجير على من هو أقوى منه .

وفى اللسان :

« جَاوَرَ بنى فلان ، وجاور فيهم مجاورة وجواراً : تَحرَّم بجوارهم » .

أى صار ذا حرمة فلا يصل إليه مُعتدٍ ، وفيه – أيضاً :

« واستجاره : سأله أن يُجيره » « والجار : الذى أجرتَهُ من أن يظلمه أحد » .

ويطلق « الجار » على « المُجير » و « المستجير » قال :

« والجار الجُنُب : ألا يكون له مناسبا[1] فيجيء إليه ، ويسأله أن يجيره ، أى يمنعه ، فينزل معه ،[2] فهذا الجار الجُنُب له حرمة نزوله فى جواره وَمَنَعَتِهِ وركونه إلى أمانه وعهده » و « المجير » أو « الطرف الأقوى » يمكن أن يكون فرداً يجير فردا مثله ، من نفس القبيلة أو من خارجها .

ويمكن أن يكون « جماعة » تجير فرداً ، أو تجير جماعة ، أو (قبيلة) تجير قبيلة .

ونلاحظ فيه أمرين يفصلان بينه وبين « الحِلْف »

الأمر الأول أنه :

« تعهد » يلتزم فيه الأقوى بالحماية للطرف الآخر ، فلا أيْمَانَ فيه من كلا الطرفين ،

الأمر الآخر :

عدم استواء الطرفين – فيه – من حيث التكافؤ

وهذا الجوار له إلزامات يرعاها الطرفان :

« فأخبار الأدب الجاهلى تؤكد على وجوب التزام الطرفين بصيانة كل منهما لحرمة الآخر ، وبخاصة « نسائه » : فمن الفتنة العاصفة أن يمارس واحدٌ من شباب القبيلة المستجيرة غزلا أو مداعبة لا مرأة أو فتاة من القبيلة المُجيرة .

كذلك على « المستجير » أن يحترم تقاليد القبيلة التى أجارته فلا يسخر من مقدساتها ، وعليه أن يكون أمينا عليها فلا يعين عليها عدوا ، أو يتدخل فى شئونها فيما لا ترضاه ، أو يعرضها لمشاكل – وهى المضيفة – فى غنى عنها .

١– يعنى : لا تناسب بينهما فى القوة والمنعة ، فأحدهما أقوى من الآخر ، فالضعيف هو الجار الجنب .. مجلة الأزهر د / على الخطيب : مقدمة قبل الهجرة جـ ٣ ربيع أول ١٤٠٨ هـ .

٢– أى يقيم .

هذا الجوار هو – باختصار – ما نسميه – بلغة العصر : « اللجوء السياسى » وهو يعطى حق « الإقامة » و« الحماية » مادام قائما ، فإن رَفَعَ « المجير » أو رَدَّ « المستجير » هذا الجوار انتهى كل حق فيه .

وأقوى ما يكون « الجوار » إذا صدر من « سيد العشيرة » فإنه إذا أجار أحدا لم يخفروه[1] . ولقد كان لهذا الجوار الذى عقده ﷺ مع الأنصار أثره الواضح فى نجاح الهجرة .

سبب مشروعية الهجرة :

أما سبب الهجرة فيرجع إلى أسباب ثلاثة : اثنان يتعلقان فى الأفراد ، والثالث يتعلق بالجماعة

أما الأول : فهو أنه لا يجوز لمسلم أن يقيم فى بلد يكون فيها ذليلا مضطهدا فى حريته الدينية والشخصية ، فكل مسلم يكون فى بلد أجنبى أو غير أجنبى يفتن فى دينه أو يكون ممنوعا من إقامته فيه كما يعتقد ، وجب عليه أن يهاجر منه إلى حيث يكون حرا فى تصرفه وإقامة دينه ، وإلا كانت إقامته معصية .

وأما الثانى : فهو تلقى الدين والتفقة فيه ، وكان ذلك فى عصر النبى ﷺ خاصا بالزمن الذى كان فيه إرسال الدعاة والمرشدين من قبله ﷺ متعذرا لقوة المشركين على المسلمين وصدهم إياهم عن ذلك ، ولا يجوز لمن أسلم فى مكان ليس فيه علماء يعرفون أحكام الدين أن يقيم فيه ، بل يجب أن يهاجر إلى مكان حيث يتلقى الدين والعلم .

---

(١) أى لم تنقض له القبيلة عهداً ، بل تلزم نفسها بحماية المستجير . مجلة الأزهر مرجع سابق .

وأما الثالث : المتعلق بجماعة المسلمين : فهو أنه يجب على مجموع المسلمين أن تكون لهم جماعة ، أو دولة قوية تنشر دعوة الإسلام ، وتقيم أحكامه وحدوده ، وتحفظ بيضته ، وتحمى دعاته وأهله من بغى الباغين .... فإذا كانت هذه الجماعة أو الدولة أو الحكومة ضعيفة يخشى عليها من إغارة الأعداء وجب على المسلمين أينما كانوا أن يشدوا أزرها ، حتى تقوى وتقوم بما يجب عليها ، فإذا توقف ذلك على هجرة البعيد عنها إليها وجب عليه ذلك وجوبا قطعيا لا هوادة فيه وإلا كان راضيا بضعفها ، ومعينا لأعداء الإسلام على أبطال دعوته ، وخفض كلمته[1] .

فإذا زالت هذه الأسباب المتقدمة فإن الحديث الشريف يقول :

« لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا »[2] .

ومما لا مجال للخلاف فيه :

أن الهجرة تجب بأحد الأسباب الثلاثة ، كما يجب السفر لأجل الجهاد إذا تحقق سببه ، وأقوى موجباته اعتداء الكفار على بلاد المسلمين واستيلاؤهم عليها[3] .

أما الهجرة الكبرى فهجرته ﷺ إلى المدينة

الهجرة انطلاق لتحقيق أهداف الدعوة الإسلامية الكبرى :

هى هجرة رسول الله – ﷺ – .

وكانت هجرة لازمة بعد أن رفض المكيون الإيمان واعتصموا بالشرك وأجمعوا على قتل رسول الله – ﷺ – واختاروا القتلة ، فخفوا إلى بيته – ﷺ – ليقتلوه .

فكان البقاء بمكة يعنى أن تتوقف الرسالة .

١- تفسير المنار : ٥ / ٢٩٥ .

٢- رواه الإمام أحمد والشيخان ، وأكثر أصحاب السنن من حديث ابن عباس .

٣- تفسير المنار : ٥ / ٢٩٦ .

تلك الرسالة التى لم تكن تخص المكيين - وحدهم - بل كانت للناس كافة لذا وجب الرحيل ، وتلقى « الأمين الكريم خاتم الرسل أجمعين » الاذن بالهجرة إلى حيث تعمل الرسالة ، وتنتشر دعوة الدين ، وتبلغ الناس أجمعين .

لقد صلب الشرك ، وأجمع أمره على صد الإيمان بكل سبيل حتى باتت « الندرة » الضعفاء من المكيين الذين لم يستطيعوا الهجرة - يخفون إيمانهم ويكتمونه ، وكانوا نفرا يعدون على الأصابع .

فما البقاء ، ولن يؤمن إلا من قد آمن .. ؟ !

فكان الرحيل :

فلم تكن الهجرة - إذا - نتيجة أذى المشركين للمؤمنين . وهناك فى مكة من يؤمن ، وإلا لبقى المصطفى - ﷺ - حيث لازالت الرسالة تسير ، ولازالت قطرات الإيمان تتنزل من حين إلى حين .

لكن ، لا إيمان بعد !

مضى - ﷺ - وصاحبه الصديق - رضوان الله عليه ، يشقان الطريق ، ورسول الله - ﷺ - آمن ، فله من المولى - عز وجل :

« عصمة » تمنعه من الناس .

« ولازمة » من خصائصه ، تريه من خلف كما تريد من أمام ،

« وطمأنينة » تشيع فى فؤاده كله النصر والسلام .

فذهب - ﷺ - يُسَرِّ عن أبى بكر ما لحقه من « الخشية » على رسول الله - ﷺ - ، فى الغار والطريق :

« لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »[1] .

١- التوبة : ٤٠ .

حقا : « إنَّ اللَّهَ مع الذِينَ اتقَوا والذِينَ هُمْ مُحسِنُونَ »(١) .

وهنا – فى تلك الهجرة – قمة التقوى والإحسان .

وخرج رسول الله – ﷺ – مستخفيا ، وهو الآمن على نفسه ، الواثق بوعد ربه .

وكان الخفاء لتتم رحلة الفتح ، وخطا الهجرة فى سلام :

سلام لا يعكر صفوه مجابهة حانق مغيظ يرديه قدره قتيلا ، فيقال : فر محمد – ﷺ – بدم أراقه فى أرض حرام .

ويعقب ذلك فتنة تثار على الرسول – ﷺ ، فتنال من الرسالة وتنعكس على « المدينة » أرض المهجر حاملة فى ثناياها سلاحا للمنافقين ، يشهرونه فى وجهه ﷺ وحرجا للمؤمنين ، ومواجهة عصبية لما جرت عليه تقاليد الجزيرة بين العرب أجمعين .

والإسلام فى حاجة إلى طرح ذلك كله .

فكان لابد من الخفاء .

وهاجر رسول الله – ﷺ – فكان الفتح العظيم فتح مكة الذى بشره الله به عند خروجه منها بقوله : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد(٢) » .

وخسرت قريش موازين القوة والمكانة التى توارثتها على مدى قرون :

زال عنهم ما كانوا يتمتعون به من أمن فى سفر أو تجارة ، وكان فيما نهبوه من المسلمين المستضعفين ما يبرر لهؤلاء متابعتهم لاسترداد بعض حقهم .

ثم اختلف القرشيون فيما بينهم داخل مكة ، وتسلل منهم أفراد أووا إلى المدينة فأسلموا وصار للمسلمين أكثر من (عين) لهم بمكة من المؤمنين المستضعفين .

١– النحل : ١٢٨ .

٢– القصص : ٨٥ .

واهتزت قيمة المكيين فى قلوب العرب فلم تعد مثلما كانت عليه من تقدير لا يختلف فيه ، وتسليم لا يرتد عنه[1] . وبدأت دعوة الإسلام فى الإنطلاق .

حقيقة يعد حادث الهجرة من أخطر الأحداث فى مسار الدعوة الإسلامية إن لم يكن أعظمها شأنا إذ كانت نقطة البدء والانطلاق فى قيام الدولة الإسلامية ، وبروزها إلى الوجود البشرى فجر نور ، ومشرق هداية ، ومبعث حياة فى كل جوانب الأرض .

وكان من توفيق الله تعالى أن يؤرخ فى الإسلام بهذا الحادث الخطير العظيم ، ليتذكر المسلمون دائما أن قوة العقيدة وحدها مجردة من كل قوة مادية هى التى حققت لدعوة الإسلام أعظم نصر وأخلد ذكر .

وإذا كانت الهجرة من مكة – كحدث – قد مضت ، فإن معنى الهجرة مكتوب له البقاء ما بقيت السماء والأرض مشعلا للأمة الإسلامية على طريق الجهاد ، والدعوة إلى الله .

جاء فى صحيح مسلم أن مجاشع بن مسعود قال :

« جئت بأخى أبى معبد إلى رسول الله ﷺ بعد الفتح ، فقلت : يارسول الله بايعه على الهجرة ، فقال رسول الله ﷺ :

قد مضت الهجرة بأهلها .. قال مجاشع : فبأى شىء نبايعه ؟

قال على الإسلام والجهاد ، والخير »[2] .

الإسلام ، والجهاد ، والخير ، ما أجدر الأمة الإسلامية فى مشرق الأرض ومغربها أن تتدبر كتاب ربها فتطبّقه فى حياتها اعتقادا وعملا ، وواقعا ، فهذا الكتاب الخالد الذى أخرج أمة من الظلمات إلى النور ، كفيل أن يجمع حوله أكثر من مليار من المسلمين خالصى النية فيعطيهم صدق العزيمة ، وإخلاص النية ما أعطى أسلافهم السابقين من

١- مجلة الأزهر : دكتور على الخطيب : من الهجرة الآمنة إلى الفتح المبين جـ ١ المحرم ١٤٠٤ هـ .
٢- صحيح مسلم .

مجد لا يطاول وعزة تشرئب لها الأعناق[1] .

الهجرة فى سجل التاريخ :

سيظل التاريخ يسجل إلى الأبد أن هجرة محمد ﷺ حدث جليل من أبرز أحداثه ذكرا وأخطرها شأنا ، وأعمقها معنى وأبعدها أثرا .

وستظل الهجرة معينا لا ينضب أبدا لأعذب المعانى ، وأصفى المبادئ ، وأسمى القيم وإذا كان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للإسلام كدين وعقيدة ، فإن هجرة محمد ﷺ فى ذاتها معجزة ، حققت للإسلام التحول والانطلاق .

وإذا كان سر الإعجاز فى القرآن يكمن فى بلاغته وتحديه للمعاندين منذ نزوله وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فإن سر الإعجاز فى الهجرة يكمن فى إعجاز المفكرين عن أن يحيطوا بكل معانيها الحية ، أو يلموا بكل مبادئها وقيمها العظيمة ...

لا لأن الهجرة المحمدية قصة من أجل ما عرف تاريخ المغامرة الجسورة فى سبيل الحق والعقيدة والإيمان كما يقول الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » ﷺ .

ولا لأن الهجرة المحمدية « لم يكن فى حياة الرسول ﷺ حادث أعظم شأنا وأجل أثرا فى ذيوع الإسلام وانتشاره بين ربوع العالم منها » .

كما يقول المستشرق « إتيين دينيه » .

ولا لأن الهجرة المحمدية كانت من أجل الارتفاع بمستوى البشرية ، وتمكين المثل الرفيعة من نفوس الناس وقلوبهم كما يقول الشيخ محمود شلتوت ، ولكن لأن الهجرة كانت نقطة تحول فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، ومرحلة انطلاق لها ولأتباعها معا ، تمت

١- انظر للأستاذ محمد عبد الله السمان : الهجرة بداية مراحل التحول والإنطلاق المقدمة .

بسرعة مذهلة، وبصورة مدهشة وتخطيط محكم سديد[1] .

إن عناية الله التى رافقت محمدا ﷺ فى رحلته قد اختارت للهجرة الزمان والمكان المناسبين، فلو أنها سبقت زمانها بأعوام، أو تأخرت عنه بأعوام، ولو يممت وجهها إلى غير طيبة لكان احتمال الفشل قائما .

ومما لا ريب فيه أن حادث الهجرة يعد تحولا خطيرا فى تاريخ الدعوة الإسلامية امتازت واختلفت عن كل الامتيازات والاختلافات عن الانقلابات السياسية ، لأنها تعتمد فى نجاحها على عنصرى المفاجأة والقوة .

أما الهجرة فلم يكن عنصر المفاجأة هو كل شىء .

فأتباع الدعوة ظلوا زهاء عام يهاجرون إلى المدينة تباعا ، ولم يكن لعنصر المفاجأة دور هام إلا فى هجرة محمد ﷺ وصاحبه أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وإنما محور نجاح الهجرة هو الإيمان بالله عز وجل والتضحية فى سبيله[2] .

لماذا خرج المسلمون فرادى أو مستخفين ، واستغرقت هجرتهم عاما أو أكثر ؟

والإجابة تتضح فيما يلى :

أولا : رأى رسول الله ﷺ بثاقب بصيرته ، أن المسلمين لو أجمعوا على الهجرة دفعة واحدة جهرا ، لكان فى مثل هذا السلوك معنى التحدى لقريش التى لم تكن لترضى عن هذا ، أو تتركه يمر بسلام .

ثانيا : كان فى مقدور قريش أن تقاوم هذا الاتجاه بكل ما تملك من أساليب البطش ، والإرهاب ، وكان فى مقدورها شن حرب لا هوادة فيها لا يعلم إلا الله نهايتها ، فتضيع معالم الدعوة بين الأشلاء والقتلى والأرامل والثكالى . وما لهذا جاءت الدعوة .

١- المرجع نفسه .

٢- المرجع نفسه ص ٧ .

ثالثا : كان فى هجرة عشرات إلى المدينة دفعة واحدة ونزولهم على الأنصار وهم يومئذ قلة ، إثقالا على الأنصار أنفسهم ، فقد يعسر عليهم إعداد المنازل ووسائل العيش ، ولاسيما أن كثيرا من المهاجرين قد صحبوا أهلهم معهم : نساءً وأطفالا .

رابعا : كان من أمر الرسول ﷺ لصحبه بالهجرة على هذا الحال أخذا بالأسباب ، نعم قد هاجر عمر بن الخطاب رضى الله عنه علانية ، متحديا للمشركين ، فلا يقول قائل :

أيكون عمر بن الخطاب أشجع من رسول الله ﷺ ؟ كلا ، فإن عمر رضى الله عنه يعتبر تصرفه تصرفا شخصيا لا حجة تشريعية فيه ، فله أن يتخير من الطرق ، والوسائل ، والأساليب ما يحب ، وما يتفق مع قوة جرأته ، وإيمانه بالله تعالى .

أما رسول الله ﷺ فهو مشرع ، أى أن جميع تصرفاته المتعلقة بالدين تعتبر تشريعا لنا نقتدى به ومن ثم كانت سنته هى المصدر الثانى من مصادر التشريع :

مجموع أقواله ، وأفعاله ، وصفاته ، وتقريره ، فلو أنه فعل كما فعل عمر لحسب الناس أن هذا هو الواجب ، وأنه لا يجوز أخذ الحيطة والحذر ، والتخفى عند الخوف ، مع أن الله عز وجل أقام شريعته فى هذه الدنيا على مقتضى الأسباب ومسبباتها(١) .

خامسا : وحيث أن الرسول ﷺ قدوة لكل من عاصره أو جاء من بعده فقد استعمل كل الأسباب والوسائل المادية التى يهتدى إليها العقل البشرى فى مثل هذا العمل فنجده ﷺ يستخدم الأسباب فى :

(أ) الأمر لعلى بن أبى طالب رضى الله فى النوم على فراشه ، وأن يتغطى ببرده .

(ب) الاستعانة بأحد المشركين بعد أن أمِنَه وخبره ، ليدله على الطرق الفرعية التى قد لا تطرأ على قلوب الأعداء .

---

(١) راجع فقه السيرة د / محمد البوطى ص ١٤٤ .

(جـ) أقام فى الغار ثلاثة أيام متخفيا ، كل هذه احتياطات ، اتخذها رسول الله ﷺ فى هجرته إلى المدينة .

(د) يتضح مما سبق أن الإيمان بالله عز شأنه لا ينافى استعمال الأسباب المادية التى أرادت حكمة الله العلى القدير أن تكون أسبابا .

(هـ) لما استبد الخوف بقلب أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى الغار قال له رسول الله ﷺ بقلب مطمئن إلى حماية الله له ولدعوته :

يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟

(و) كل ما فعله ﷺ من تلك الاحتياطات إذا وظيفة تشريعية ، قام بها فى الوقت الذى كان قلبه مرتبطا بالله عز شأنه كل الارتباط ، واثقا من حمايته ، وتوفيقه ، ليعلم المسلمون أن الاعتماد فى كل أمر لا ينبغى أن يكون الأعلى الله عز وجل ، ولا ينافى فى هذا الأخذ بالأسباب التى أمر الله بها[1] .

فهل كان محمد ﷺ هو الوحيد من بين إخوانه الأنبياء الذى هاجر إلى ربه ؟ أم سبقه أنبياء آخرون فى هذا السبيل ؟

---

(١) المرجع نفسه ، والهجرة بداية مراحل التحول ... ص ١٩ .

هجرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام :

لم يكن محمد ﷺ بدعا من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فلئن كان قد هاجر من وطنه ، ومسقط رأسه من أجل الدعوة حفاظا عليها ، وإيجادا لبيئة خصبة تتقبلها ، وتستجيب لها بل تذود عنها ، فقد هاجر عدد من إخوانه الأنبياء قبله من أوطانهم ، ومساقط رءوسهم ، لنفس الأسباب تقريبا التى دعت رسول الله ﷺ إلى هجرته .

إن بقاء الدعوة فى أرض قاحلة لا يخدمها ، بل قد يعوق مسارها ، ويشل حركتها ، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر ، فلا تملك أن تتنفس الهواء الطلق الذى هو ضرورى لسلامتها وبقائها ، وقد جرت سنة الله فى خلقه أن يقبل البعض من خلقه على دعوات رسله وأنبيائه ، فتتشرق نفوسهم لهدايته ، وتشف أرواحهم ، وتنشرح صدورهم ، وتتفتح عقولهم وتستجيب قلوبهم ، وأن يعرض البعض الآخر عن دعوات أنبيائه ورسله ، فتتبلد نفوسهم ، إزاء هدايته بسحب الغى والضلال ، وتتبلد عقولهم ، وتنقبض صدورهم ، وتتغلق أسماعهم فينشأ صراع بين الحق والباطل ، ونضال بين الهدى ، والضلال(١) .

فإذا كانت الفئة المؤمنة مغلوبة على أمرها تتلقى الضربات ، والصفعات ، فلن يكون أمامها إلا أن ترحل إلى مكان تتمكن فيه من الإنطلاق فى أرض أخرى .

أما إذا كانت الطائفة المؤمنة من الكثرة والقوة بحيث تستطيع وهى ممكنة فى الأرض أن تقف فوق أرض صلبة ، وأن تحمى نفسها ودعوتها من كل كيد يدبر لها ، ومن كل شر يراد بهما ، وأن تدعو الله وهى مرهوبة الجانب فلن يكون هناك مبرر ، لأن تترك الأرض التى نشأت فوقها ..

هذه الموازنة كانت محل نظر فى سائر دعوات الأنبياء والمرسلين قبل محمد ﷺ :

وقد قص الله علينا فى كتابه الكريم نماذج من هجرات الرسل عليهم الصلاة والسلام

١- الهجرة ... ص ٣٣ وما بعدها .

لتظهر سنة من سنن الله فى شأن الدعوات ، ليأخذ بها من بعدهم كل داعية إلى الله ، بل كل مؤمن بالله عز وجل هذه السنة المقررة من سنن الله هى تضحية المؤمن بأعز ما يملك فى حياته من أجل إيمانه وعزته ، فإذا حيل بينه وبين إيمانه وعزته ، واعتدى على مروءته وكرامته ، وعجز عن بذل دمه وروحه فداء إيمانه هاجر حيث يجد الأمن والبيئة الصحية التى تتنفس فيها دعوته[1] .

هجرة نوح عليه السلام :

هو أول رسل الله إلى الأرض ، كما ورد فى حديث الإسراء على ما روى فى صحيح مسلم .

وكانت هجرته عليه السلام عجيبة ومثيرة إذا قيست بهجرة إخوانه من الأنبياء إذ كانت هجراتهم واضحة المعالم معروفة الغاية المكانية لها ،

أما هجرة نوح عليه السلام – وهذا وجه الإثارة فيها – لم تكن معروفة لديه ، ولا عند قومه الذين آمنوا به ، إلى أين المستقر ؟

فقد انطلقت السفينة التى أقلت المهاجرين تنتظر الأمر من الله بتحديد غايتها وغايتهم معا .

دعوة نوح عليه السلام :

ظل نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله عز وجل ألف سنة إلا خمسين عاما ، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا نفر قليل ، وقد تعرضت دعوة نوح عليه السلام لكل ألوان السخرية والعناد والأذى من قومه ، كما تعرضت الطائفة المؤمنة بدعوته لكل أنواع الأذى والاضطهاد ، ولما بالغوا فى إيذاء نوح – عليه السلام – ومن آمن به ، دعا عليهم ، فاستجاب الله لدعائه ، وأنزل عليهم عقابا ، صارما رادعا ، فأرسل عليهم الطوفان

١- المرجع نفسه .

ليغرقهم عن آخرهم وقد جعل له علامتان أو مقدمتان لإهلاك قومه :

الأولى في قوله سبحانه : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون[1] » .

الأخرى في قوله سبحانه : « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معٌ إلا قليل[2] » .

أما النص في الإغراق والهلاك ، ففي قوله سبحانه :

« فكلا أخذنا بذنبه فمنهم أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[3] » .

ونجى الله نبيه نوحا عليه السلام وأتباعه معه ، وأرسى السفينة التي تقلهم على الجودى وهو جبل من نواحي ديار بكر من بلاد الجزيرة ، وهو متصل بجبال أرمينية[4] .

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله تعالى :

إن بعض العلماء يميل إلى عمومه ، ويقول بعض علماء الجولوجيا :

إننا كلما بحثنا في أعالي الجبال وجدنا بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلا في الماء .

وهذا يستدعي وجود طوفان على هذه الجبال ، بل عدد من الطوفات لوجود الاختلافات في عمر هذه البقايا ، فلا مانع من أن يكون طوفان نوح عليه السلام أحدها

١- هود : ٣٧ .

٢- هود : ٤٠ .

٣- العنكبوت : ٤٠ .

٤- راجع من سورة هود الآيات من ٢٥ - ٤٤ ، وانظر المسعودي : مروج الذهب : ٢٩/٢ وما بعدها ، وقصص الأنبياء لابن كثير ٨٨ ، والهجرة من ص ٣٧ .

ويكون قد عم ، ويستأنس بقوله : « وجعلنا ذريته هم الباقين[1] » . الصافات : ٧٧ .

وفريق آخر يرى :

أن الطوفان لم يكن عاما بل على الجهة التى كان يسكنها نوح وقومه ، وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها هذا الطوفان ، ويستدلون على هذا بأن الهنود كانوا يزعمون أن عمر بلادهم يمتد فى الماضى إلى تاريخ أبعد من الذى قدرته التوراة لنوح وطوفانه ...

وعلى كل حال فلعل النوع الإنسانى لم يكن منحصرا فى منطقة نوح عليه السلام وحدها ، بل كان منتشرا فى مناطق بعيدة أخرى لم يتعرض لها القصص القرآنى صراحة ، وما دامت دعوة نوح عليه السلام خاصة بقومه ومنطقتهم ، فلا يعم الطوفان إلا هذه المنطقة ؛ لأن بقية المناطق النائية المسكونة ، على الفطرة لم يبلغها بعد دعوات الأنبياء والرسل .

ولا مجال هنا للاستطالة ، فالذى يهمنا أن نوحا عليه السلام وقومه هاجروا من الأرض الظالم أهلها ، واستقر بهم القرار فى أرض جديدة يعيشون فيها آمنين بعيدا عن أرض الذكريات الأليمة البغيضة إلى نفوسهم[2] .

هجرة إبراهيم ولوط عليهما الصلاة والسلام :

أما نبى الله وخليله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة وأزكى التسليم ، فقد كان له أكثر من هجرة ، وتكاد الأسباب والمبررات تتشابه ، كان موقف إبراهيم عليه السلام من أبيه وقومه واضحا ، وهو نبذ أصنامهم ومعتقداتهم ، ومحاولة تحطيمها ، فماذا كان ردهم عليه ؟

١- الصافات : ٧٧ .

٢- قصص الأنبياء ، ص ٣٧ والهجرة ... ص ٣٧ .

كان الرد عنيفا فوق ما يتصوره بشر لبشر : « حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين[1] » .

مع أنه عليه السلام يدعوهم إلى الله إلى النجاة وهم يدعونه إلى النار ، لكن القوم الذين تغلغل فى قلوبهم الجهل وأشربت قلوبهم الوثنية واختلط بلحمهم ودمائهم ، وسيطرت عبادة الأصنام على مشاعرهم لم يجدوا أمام تفكيرهم الثائر على الحق إلا إزاحة إبراهيم عليه السلام من أمامهم والقائه فى النار ليحترق وتحترق معه دعوته وتذرى فى الرياح ، استكانوا لهذا القرار ، واستراحوا إليه ، وجمعوا الحطب ، وأشعلوا فيها النار ، وأتوا بإبراهيم وألقوه فيها ، فماذا حدث ؟

خيب الله كيدهم ، وخرج إبراهيم عليه السلام سليما معافى :

« قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم »[2] .

فهل بقى له مقام عند قومه ؟

إذن ، لابد من الرحيل إلى أين ؟ إلى أرض وشعب يقبل دعوته فهاجر

أولا : إلى أور الكلدانيين، وهى مدينة كانت قرب الشاطئ الغربى للفرات ، ثم هاجر:

ثانيا : إلى حران ، ثم هاجر ،

ثالثا : إلى فلسطين ترافقه زوجه سارة ، وابن أخيه نبى الله لوط عليه السلام وزوجه ، فاجتمعت هجرتان لنبيين كريمين فى هجرة واحدة[3] .

١- الأنبياء : ٦٨ .

٢- الأنبياء : ٦٩ .

٣- الشيخ عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٢٨٣ ، وقصص الأنبياء لابن كثير ١٤٥ والهجرة .. ص ٣٨ ، أقام إبراهيم عليه السلام فى فلسطين ، وهى أرض الكنعانيين ، وكان دائم الانتقال نحو الجنوب إلى مصر ثم إلى أرض الحجاز ، وفى نهاية المطاف لحق بالرفيق الأعلى ، مات غريبا عن وطنه ، ودفن فى فلسطين فى مغارة المكفيلة فى حقل عقرون ، وفيها دفنت زوجه سارة من قبل ، وهو الموضع الذى عليه مقام الخليل فى جدون ، وتسمى مدينة « الخامل » وكان اسمها فى الأصل « قرية أربع » الهجرة .. ص ٤٠ .

« فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم »[1] .

أما هجرة لوط عليه السلام ، فإن الأسباب التى حملت إبراهيم عليه السلام على الهجرة من وطنه ومسقط رأسه بالعراق إلى الشام ، هى نفس الأسباب التى حملت لوطا أيضا على الهجرة ، والمتدبر لآى الذكر الحكيم يرى كم عانى لوط عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين من عَنَتِ قومه ، وإيذائهم ، بل إن لوطا عليه السلام واجه قوما ليس أبرز ما فيهم هو إنكار لرسالته فقط ، بل ظهر فى القوم انحراف خلقى ذميم تمجه النفس الأبية ، ويلفظه الذوق السليم ، لدرجة أن لوطا عليه السلام وهن فى مقاومة هذا الانحراف الخلقى ، كما ضعف جهده فى اقناع القوم بالله وبدعوته ، ولما لم يجد لوط عليه السلام أى أمل فى هدايتهم ، أو إمساكهم عن هذا الانحراف الخلقى الشاذ المنفر دعا الله قائلا :

« لو أن لى بكم قوة أو أوى إلى ركن شديد »[2] .

فما بقى أمامه إلا الهجرة مع عمه إبراهيم عليه السلام ، ومعه زوجه إلى أرض الله التى استقر بها ، وهى سدوم فى دائرة الأردن .

وذلك أنه بعد أن تبع عمه فى رحلاته نزل مع عمه بمصر ، وأغدق عليه ملك مصر ، كما أغدق على عمه إبراهيم عليه السلام ، فكثر ماله ومواشيه ثم افترق من إبراهيم عليه السلام عن تراض بينهما ، لأن مصر لم تتسع لمواشيهما ، واستقر به المقام فى سدوم بالأردن[3] .

وبالمقارنة إلى هجرة نوح عليه السلام ، وهجرة إبراهيم ولوط عليهما السلام :

نجد أن هجرة نوح عليه السلام كانت جماعية شملت الفئة المؤمنة بأسْرها ، بينما

١- العنكبوت : ٢٦ .

٢- هود : ٨٠ .

٣- راجع قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار ص ١١٢ .

كانت هجرة كل من إبراهيم ولوط عليهما السلام هجرة فردية إلا من الزوج فقط فلماذا ؟

هذا بالطبع راجع إلى اختلاف الظروف والبيئة كما يلي :

(أ) إن القوم في عهدي إبراهيم ولوط عليهما السلام لم يفكروا في إخراج المؤمنين بالقوة ، أو يكرهوهم بهما إلى الهجرة ، معتقدين أن التخلص من الرسولين الدعيين إلى الله فيه الكفاية .

(ب) رأوا في استبعاد الرسولين المقاومين لانحراف القوم العقدي والأخلاقي سيؤدي إلى راحة واستقرار لنفوسهم(1) ، وهذا ما يميلون إليه .

هجرة موسى عليه السلام :

جمع موسى عليه السلام بين هجرتين :

أولهما : هجرة قبل النبوة حين ضرب المصري الذي كان يقاتل الإسرائيلي فمات ، فأخبر الله عن هذا الحادث بقوله :

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين(2) » .

وحدث في جنبات المدينة ما يشبه حالة الذعر ، والقلق والتوتر ، فلابد للمصريين أن يثوروا ؛ لأن اعتداء أجنبي على مواطن حتى القضاء عليه ، انتصارا لأجنبي آخر من شيعته .

إن هذا اعتداء لا يمكن السكوت عليه ؛ لأن في هذا مهانة وجهت إلى صميم كرامتهم ، فأصروا على قتل المعتدي ، فقيض الله لموسى عليه السلام النجاة على يد

1- الهجرة .. ص ٤٠ وما بعدها .

2- القصص : ١٥ .

رجل جاء من أقصا المدينة يسعى ناصحا موسى أن ينجو بنفسه ويهرب ، يقول القرآن :

« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين[1] .

واستجاب موسى عليه السلام للنصيحة ، فخرج من المدينة خائفا يترقب ، ورحل إلى أرض مدين[2] ، يصور الله تبارك هذا الموقف قائلا :

« فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين[3] » .

وأخراهما : الهجرة الكبرى التى حدثت بعد النبوة ، بعد أن أرسله الله وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون ، وفشلت كل مساعيهما ليظفرا بإيمان فرعون وقومه ، ولما ضاق به فرعون ، وبشيعته بنى إسرائيل قرر بمشورة مستشاريه أن يتخلص منه ومن شيعته معه فأوحى الله إلى موسى بالهجرة من مصر إلى أرض فلسطين[4] .

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه وجعل له من أخيه هارون وزيرا ، فلم يواجه مجرد قوم وثنيين عكفوا على عبادة آلهة لا تضر ولا تنفع .. ، بل واجه جبارًا فى الأرض ، هو فرعون الذى ادعى الألوهية ، ولا يود منازعة من أحد ... هذا بالإضافة إلى الانتقام من بنى إسرائيل من ذبح أطفالهم ، وسبى نسائهم ، بالإضافة أيضا إلى السخرة الملقاة على عاتق بنى إسرائيل ، على يد فرعون ..

لذلك لم تكن مهمة موسى ، وهارون عليهما السلام ، مهمة سهلة ، بل شاقة ومضنية فهى ليست قاصرة على هداية قوم منصرفين عن الله إلى عبادة الأوثان ، أو عبادة فرد مثلا ، بل يجب أن تمتد إلى محاولة لهداية جبار يدعى الربوبية لنفسه ، ولذلك أبدى تردده

١- القصص : ٢٠ .

٢- فى الجزء الواقع جنوبى فلسطين حول خليج العقبة عند نهايته الشمالية ، وشمال الحجاز ، وبقية القصة تقرأ فى سورة القصص ، كما يراجع قصص الأنبياء .

٣- القصص : ٢٠ .

٤- تراجع بقية القصة بتمامها فى قصص الأنبياء .

فى قبول الرسالة ، وأبدى مخاوفه من مستقبلها[1] .

وخافا من تعجيل فرعون العقوبة قبل أن يسمع برهانهما .

« قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو يطغى . قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى »[2] .

لكن موسى عليه السلام لم يكتف بهذا ، بل تقدم باعتذار من لون آخر :

« قال رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون »[3] .

لم تكن مهمة موسى عليه السلام حتى مع قومه مهمة سهلة ، كلا بل كانت مهمة صعبة ، فقد كان بنو إسرائيل على جانب من التعنت ، والتمرد ، والالتواء مما سبب له كثيرا من المتاعب ، فكان لابد أن يهاجر بهم فارا من وجه فرعون وقومه الذين أخذوا يأتمرون به ليقتلوه ، وكتب الله لهم النجاة بآية كونية من آياته الكبرى كانت كفيلة بأن تبعث الإيمان بالله فى الجماد فضلا عن الإنسان الذى منح عقلا ، وتفكيرا ، لكن بنى إسرائيل ، ما إن بلغوا شاطئ النجاة والأمان ، ورأو كيف أهلك الله أعداءهم ظهر تمردهم وأخذوا فى إثارة المتاعب والقلاقل فى طريق نبى الله موسى عليه السلام ، حتى صار أمرهم معه مثلا[4] .

لقد كان رسول الله محمد ﷺ حين يستشعر شيئا من أذى بعض أصحابه يقول : « رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

١- الهجرة .. ص ٤١ وما بعدها .
٢- طه : ٤٥ ، ٤٦ .
٣- القصص : ١٢ ، ١٣ .
٤- الهجرة ... ص ٤٤ .

هذه نماذج كريمة من هجرات الأنبياء والمرسلين عليهم جميعا الصلاة وأزكى التسليم ، عرض القرآن الكريم للخطوط الرئيسية منها ، قد يكون هناك فى تاريخ النبوات والرسالات من تعرضوا لما تعرض له نوح وإبراهيم ، ولوط ، وموسى ، ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام ، وهاجروا بعقيدتهم من ديارهم وهى آخر شىء يضحى الإنسان به ، لكن مهمة القرآن ليست سردا للتاريخ ، وتقصيا له ، فالقرآن فى كل مجال يكتفى بأن يقدم نماذج تكون بمثابة إشعاعات تضىء الطريق للأجيال القادمة .

إن هناك أوجه شبه عديدة بين هذه الهجرات النبوية التى عرض لها القرآن فى إيجاز ، وكذلك أوجه اختلاف ربما فى السلوك ، وربما فى الوسيلة ، لكنها متفقة فى تحقيق المعنى والغاية معا ، فليس من الخير للدعوة الإصلاحية أن تظل قابعة فى حيز ضيق لاتجد متنفسا ، بل عليها إذا ضاقت بها الأرض فأرض الله واسعة ، وإذا ضاقت بها صدور قوم ، انفسح لها نفوس وصدور قوم آخرين لاستقبالها ، والعمل على نشرها .

إن لدعوات الله أهدافها التى يجب أن تتحقق ، وأن أتباع الدعوات مسئولون عن تحقيق هذه الأهداف التى منها :

١- تحرير الإنسان من استعباد أخيه الإنسان .

٢- تحرير الإنسان من الضعف والوهن ليشعر بوجوده ومكانته فى أرض الله .

٣- تحرير الإنسان من الخوف حتى لا يعجز عن أن يقول كلمة الحق فى أى مجال ، وفى أى مكان(١) .

طبيعة البيئة المكية وأثرها فى الدعوة :

لما كان للأرض تأثيرها على البيئة ، فقد أصبح من المقرر أن تتميز طبائع الناس

١- الهجرة ... ص ٤٥ .

بالخشونة والصلابة ، والعناد كنتيجة لحياتهم التى تعتمد على الصراع الدائب مع الصحراء والصراع لا يعرف النعومة ، ولا المرونة ، ولا استسلام .

وقد نبتت الدعوة فى مكة بنت الصحراء ؛ لأنها بقعة لا غرس فيها ولا ماء ، نجاد ، وجبال .. وواد فسيح لكن غير ذى ذرع ، بل إن مكة عدة سلاسل من الجبال تكاد تحصر هذا الوادى ، فكان من الطبيعي أن تؤثر هذه الأرض فى أهل مكة ، تؤثر فى ميولهم ، ونزعاتهم ، وسلوكهم ، دون أن يتقبلوا أى تأثير خارجى يمس سلطانهم ، أو تأثير داخلى يمس وجودهم وأفكارهم معا .

ولقد قامت فى جزيرة العرب نفسها عدة ممالك فلماذا لم تقم فى مكة مملكة ؟

فى الجنوب قامت ممالك معين وسبأ ، ومملكة الحميريين ، ومنهم ملوك التبابعة .. وفى الجنوب الشرقى فى حضرموت عاش ملوك كندة ، وإن كانت مملكتهم لم تعمر طويلا .

فلماذا لم تنشأ فى مكة مملكة ؟

أليس فيها بيت الله الحرام يحج إليه كل عام عشرات الألوف من العرب ؟

إن مرد ذلك هو التغلغل القبلى فى مكة وما حولها ، وطبيعته الصحراوية الخالصة التى أوجدت فى كل قبيلة زعامة مستقلة ، ودولة داخل الأم الكبرى مكة ..

مثل هذه الظروف تجعل أى أمل فى إحداث تغيير ضعيفا بل تجعل من أية محاولة لإحداث أى تغيير مهمة شاقة .

لماذا حطم الإسلام الأصنام ؟

إذا عرفنا أن الإسلام لجأ فى بدايته مع أهل مكة إلى المناقشة المنطقية والإقناع بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، فلماذا لجأ فى فتح مكة إلى تحطيم الأصنام ، وتخلى عن منهجه فى الاقناع ؟

أجل عندما دخل محمد ﷺ مكة فاتحا فى السنة الثامنة من الهجرة كان حول

الكعبة : ثلاثمائة وستون صنما مرصصة بالرصاص ، وهبل أعظمها ، فهل كان من المنطق أن تترك هذه الكثرة من الأصنام لتستدر من جديد عاطفة الناس ، أو عطفهم ، وتناهض التوحيد الذى جاء من أجله الإسلام ؟

- أيراد منه وقد دخل الناس فى دين الله أفواجًا أن يترك آلهة من الحجر أو غيره ليوحى برضاه عنها ، أو تقديره لها ؟

لقد كان من الضرورى على الإسلام أن يرى الناس الآلهة التى عبدوها تلفظ آخر أنفاسها ، ولا تملك أن تدفع عن نفسها المعاول التى انقضت عليها من كل جانب لتسوى بها الأرض ، ولن يبقى بعد ذلك لإنسان الحق فى أن يثق بها بعد أن ظلت تخدع الناس آلاف السنين ، إن هذا لهو الولاء الأعمى ، والقداسة البلهاء[1] .

وأمر الرسول ﷺ بهبل وهو واقف عليه فكسر ، فهمس الزبير ابن العوام رضى الله عنه ، إلى أبى سفيان بن حرب قائلا :

يا أبا سفيان : قد كسر هبل ، أما إنك قد كنت منه يوم أحد فى غرور حين تزعم أنه قد أنعم .. ؟

فأجاب أبو سفيان فى هدوء : دع عنك هذا ، ياابن العوام ، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان ..

كلمة حق نطق بها أبو سفيان زعيم قريش الذى ظل إحدى وعشرين سنة يعلن الحرب على الدعوة ، كلمة حق نطق بها زعيم المعارضة الذى أسلم لتوه ولم يستقر الإيمان فى قلبه ، لقد مضت الأعوام دون أن تؤثر فيه ، لكن الدليل المادى الذى لمسه بنفسه وهو يرى هبل يستسلم فى بلاهة للمعاول تنهال عليه جعله ينطق بكلمة الحق[2] .

١- الهجرة .. ٨٨ .

٢- المرجع نفسه ٨ .

وإذا كان من الضرورى أن يأمر محمد ﷺ بتحطيم أصنام مكة التى تمثل رؤوس الآلهة فإنه من الضرورى أيضا أن يأمر بالاتجاه إلى أصنام القبائل الأخرى للإتيان عليها .

لقد فتح الإسلام مكة رأس المقاومة ، ودان أهلها له بالطاعة ، فلم يكن من المنطق أن تترك القبائل المحيطة بها على كفرها ومروقها ، وأن تترك آلهتها فى مركزها الأسمى يدين لها الناس بالطاعة والولاء .

لذلك : جرد رسول الله ﷺ سرياه ، وأمرهم أن يغيروا على من لم يسلم ..

خرج هشام بن العاص فى مائتين قبل يلملم ..

وخرج خالد بن سعيد بن العاص فى ثلاثمائة قبل عرنة ..

وخرج خالد بن الوليد إلى العزى فهدمها ، وكانت بنخلة .. .

وخرج سعد بن زيد الأشهلى إلى مناة بالمشلل فهدمه ..

وخرج عمرو بن العاص إلى صنم هذيل .. سواع .. فهدمه .. .

وخرج الطفيل بن عمرو بن طريف ... الدوسى . إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حممه الدوسى فحرقه بالنار ..(١) .

ثم نادى منادى رسول الله ﷺ :

« من كان يؤمن بالله ورسوله ، فلا يدعن فى بيته صنما إلا كسره ، أو حرقه ، وثمنه حرام ! فجعل المسلمون يكسرون الأصنام ، ولم يكن رجل من قريش بمكة إلا وفى بيته صنم إذا دخل مسحه ، وإذا خرج مسحه تبركا به .

وكان عكرمة بن أبى جهل لما أسلم لم يسمع بصنم فى بيت إلا مشى إليه حتى يكسره ، لقد وضح لأهل مكة ومن جاورها من القبائل أن سنوات ماضيهم كانت غارقة

١- الطبقات : ١/١٠٥ ، ١١٣ .

فى الجهالة والخداع فقد بدت آلهتهم أمام أعينهم أنها لم تكن تستحق منهم ذرة من الولاء لها وهذا ما جعل هند بنت عتبة تضرب صنما فى بيتها بالقدوم فلذة فلذة أى قطعة قطعة ، وهى تقول : « كنا منك فى غرور »[1] .

سبحان الله ! هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبى سفيان وأم معاوية هى التى تقول ذلك ؟! هند التى كانت فى بدر تتزعم النساء وتحرض المشركين على قتال محمد ﷺ والمسلمين !

هند ... التى كانت أول من مثل بقتلى المسلمين فى أحد ، وحرضت نساء المشركين أن يمثلن بهن !!

هند .. التى حمل إليها وحشى بن حرب فى أحد أيضا كبد سيد الشهداء حمزة رضى الله عنه فمضغتها ، ثم لفظتها ، ونزعت ثيابها وحليها فأعطته وحشيا قاتل حمزة ، وقدمت مكة ، وكبد حمزة معها !!

هند ... التى قادت فى فتح مكة حملة ضد استسلام قريش وعندما سمعت زوجها بين أرجاء مكة يدعو إلى الاستسلام صرخت فى وجهه :

« قبحك الله رسول قوم » بل حرضت على قتله :

« اقتلوا وافدكم هذا قبحك الله وافد قوم !!

هند بنت عتبة التى أباح رسول الله ﷺ دمها جزاء لما لاقاه الإسلام منها !!

هند ... هذه هى التى تحمل بعد إسلامها قدوما تحطم صنما فى بيتها وهى تقول : « كنا منك فى غرور » ![2] .

١- الهجرة ... ٩١ .

٢- المرجع نفسه ٩٢ ، ٩٣ .

مكانة الهجرة فى القرآن والسنة :

حظيت الهجرة المباركة بمكانة طيبة فى القرآن الكريم ، والسنة الشريفة :

أما مكانتها فى القرآن فتظهر فى :

ورود لفظ الفعل « هاجر » : أنواعه ، ومشتقاته فى أكثر من آية من كتاب الله ، سواء باللفظ الصريح ، أو المعنى إلى الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

ومن الجدير بالذكر أن تربط الآيات الهجرة بالإيمان والجهاد ، كأنما هذه العناصر الثلاثة إنما تدخل ضمن تكوين المسلم الحق ، والمؤمن الكامل الإيمان :

ورود الهجرة باللفظ الصريح كما فى قوله سبحانه :

« إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله(١) » .

إنه رجاء المؤمن فى رحمة الله ، لا يخيبه الله أبدا ، ولقد أيقنت الفئة المؤمنة بوعد الله ، فهاجروا وجاهدوا ، فصبروا فحقق الله لهم النصر ، وفازوا بمغفرة الله ورحمته ..

وقوله سبحانه : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم »(٢) .

كذلك نجد آية أخرى تجمع بين المهاجرين والأنصار ، ومن اتبعهم بإحسان :

« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم »(٣) .

١- البقرة ٢١٨ .

٢- التوبة : ٢١ - ٢٣ .

٣- التوبة : ١٠٠ .

وفى سورة النحل :

« والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ، و لأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون .. »[١] ففى الآية : إخبار عن جزاء الله للمهاجرين فى سبيله ابتغاء مرضاته الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان ، رجاء ثواب الله وجزائه .

« ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم »[٢] .

فإذا قيل إن سورة النحل مكية ، والحديث عن الهجرة وقع فى المدينة ، فيستثنى من سورة النحل هذه الآيات الثلاث فهى مدنية كما قال ابن كثير فى تفسير الآيتين الأوليين وأن يكون السبب فى نزولها مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة ، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم .

لكن احتمال كون الآيتين ، وما يشبههما قاعدة جزائية عامة تشمل مهاجرة الحبشة أو غيرهم الذين يهاجرون بعد الحبشة ، ثم إن الاهتمام قائم ، لكن ابن كثير أشار إلى الآية الثالثة من سورة النحل « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا .. الآية » فيكاد يؤكد أو على الأقل يشير إلى أن سبب نزولها فى مهاجرة المدينة[٣] .

فيقول :

« هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين فى قومهم فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وانتظموا فى سلك المؤمنين وجاهدوا معهم الكافرين ، فصبروا ..[٤] » .

١- التوبة : ٤١ ، ٤٢ . وراجع تفسير ابن كثير : ٢/٥٧٠ ط الحلبى .

٢- النحل : ١١٠ .   ٣- الهجرة .. ٤٨ .   ٤- تفسير ابن كثير : ٢/٥٨٨ .

أما الزمخشرى فيجمع بين أصحاب الهجرتين فى تفسير الآيتين السابقتين من سورة النحل .

وإنهم الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرة الرسول ﷺ فيقول :

« والذين هاجروا .. هم رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ ظلمهم أهل مكة فنفروا بدينهم إلى الله ، منهم من هاجر إلى المدينة : وقيل : هم الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرة الرسول ، وكلما خرجوا تبعوهم فردوهم . منهم :

« بلال ، وصهيب ، وخباب ، وعمار رضى الله عنهم »[1] .

وفى سورة الحشر يذكر الله المهاجرين والأنصار ، ثم المتأخرين من المهاجرين الذين اتبعوا الطائفتين المذكورتين بإحسان :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله . أولئك هم الصادقون .

والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم[2] » .

وفى سورة الأنفال عرض شامل للهجرة ومكانة المهاجرين والأنصار ، والذين تأخروا عن الهجرة ، والذين تخلفوا عنها نهائيا وفاتهم هذا الشرف العظيم[3] .

الجانب الروحى والمعنوى فى قصة الهجرة :

١- تفسير الكشاف : ص ٥٣٦ ط الأولى . المطبعة البهية ١٣٤٣ هـ مصر .

٢- الآيات : ٨ - ١٠ .

٣- انظر التعليق البديع فى الهجرة .. ص ٥٠ وما بعدها .

يتمثل هذا الجانب فى قول الله تعالى :

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذا أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها .. وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم[1] » .

مع أن هذه الآية الكريمة نزلت فى غزوة تبوك حيث بدا على بعض المؤمنين شىء من التثاقل ، إلا أن الله عز وجل لفت نظرهم إلى قصة الهجرة قائلا للمتثاقلين ومن يكون على شاكلتهم فى كل عصر ومصر :

إذا لم تنصروا رسول الله فى هذا الموقف الحرج ، وتنصروا الداعين إلى الله فى المواقف الحرجة ، فتذكروا أن الله قد نصر رسوله فى موقف أكثر إحراجا ، بل نصره وليس معه إلا مؤمن واحد هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، نصره ضد أعداء لا يحصون عددا ، وأثارت الآية الجانب الروحى فى هذا الموقف الحرج ، الذى كان يتمتع به الرسول ﷺ ، ورفيقه ، فى غار منعزل فى أعلى الجبل ، يمكثان به أياما ثلاثة بلياليها ، ريثما تحين الفرصة لهما لمواصلة الرحلة ، والقوم لهما بالمرصاد ، ويبدو على الصديق ملامح الخوف لا خوفا على نفسه بل إشفاقا على الرسول ﷺ ، ويدور حوار بين الإثنين يبدو من خلاله الروح العالية الشفافة التى يتمتع بها الرسول ﷺ ، فيبعث فى نفس صاحبه الطمأنينة ليهدئ من روعه :

لا تحزن إن الله معنا ..

واستجاب الله لهذه الروح العالية الشفافة فأنزل سكينته عليه ، وأيد رسوله بجنود غير مرئية .

١- التوبة : ٤٠ .

هكذا تذكر الآية أولئك المتثاقلين المثبطين بنصر الله لرسوله وتأييده له ، وللدعوة التى حمل رسالتها ، حتى صارت كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا(١) .

بقاء الهجرة :

هذه الزاوية يتعرض لها القرآن فى كونها عمل عظيم يجب أن يظل كبيرا فى قلوب المسلمين خالدا فى حياتهم .. ، فالفئة المؤمنة التى ظلت مستضعفة فى مكة ثلاثة عشر عاما ، مستعبدة ، مغلوبة على أمرها ، كان لابد أن تصل إلى نقطة تحول لتنطلق منها فى أقرب فرصة ، فإذا لم تسنح هذه الفرصة كان عليها أن توجدها .

ومن الخطأ أن يدرك المسلم أن الهجرة قد انتهت بهجرة الفئة المؤمنة من مكة إلى المدينة واستقرارها فى الدار الجديدة .. لا ..

فإذا كانت الهجرة قد انتهت باعتبار زمانها ومكانها ، فلا يمكن أن تنتهى بمعناها ومضمونها وأهدافها يجب أن تظل الطريقة المثلى لكل مستضعف من أجل دينه ، لكل مغلوب على أمره ، لا يملك إرادته ، أو حق الكلمة الحرة فى وطنه ، أو غير وطنه .

ومن ثم فإن القرآن يتخذ موقفا مشددا من أولئك الذين يسترخون للاستضعاف ويستمرئون الاستذلال ، ويركنون إلى الدعة ، ويؤثرون أن يعيشوا كميات مهملة فسماهم القرآن « ظالمى أنفسهم » .

فظلم الإنسان لأخيه الإنسان مر تلفظه النفس ، وتمجه الكرامة ، وأشد منه مرارة ظلم ذوى الرحم أو القرابة كما قال المتنبى :

وظلم ذوى القربى أشد مرارة

على النفس من وقع الحسام المهند

١- انظر الهجرة .. ٦١ ، ٦٢ .

فما بالك بظلم الإنسان لنفسه ؟

لقد رفض القرآن منطق هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بحجة أنهم مستضعفون فى الأرض ؛ لأن أرض الله واسعة :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها .. فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا »[1] .

ومن رحمة الله بخلقه استثنى المستضعفين من البشر فقال :

« إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا .

فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله غفوراً رحيما[2] » .

والمفسرون على أن « عسى » من الله للتحقيق ، لكن للمرحوم رشيد رضا فى المنار والإمام محمد عبده معه رأيا جديرا بالتقدير يقول :

« والوعد بعسى الدالة على الرجاء . أطمعهم الله تعالى بالعفو عنهم ، ولم يجزم به للإيذان بأن أمر الهجرة مُضَيَّق فيه ، وأنه لابد منه ، ولو باستعمال دقائق الحيل ، والبحث عن مضايق السبل .. قال الأستاذ الإمام :

قالوا : إن « عسى » فى كلام الله للتحقيق ، ولا يصح على إطلاقه ؛ لأنه يسلب الكلمة معناها فكأنه لا محل لها »[3] .

وتأتى الآية التالية ، بعد ذلك وفيها تحريض على الهجرة وترغيب فى ترك المؤمن

١- النساء : ٩٧ .

٢- النساء : ٩٨ ، ٩٩ .

٣- تفسير المنار : ٥/٢٩١ ، ٢٢٩٢ . ط الهيئة العامة .

الأرض التى يجد نفسه فيها مهانا ، وليس فى التحريض ، والترغيب معنى الجواز والإباحة ، فالهجرة من الضعف ، والتخلص منه أمر واجب فى حق كل مسلم :

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما »(١) .

قال ابن عباس : « المراغم : التحول من أرض إلى أرض .

ويقول ابن كثير : « والظاهر والله أعلم أنه المنع الذى يتخلص به ويراغم به الأعداء .

ولفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف .

فى تفسيره « صفوة البيان لمعانى القرآن » :

رأى جدير بإثباته هنا يقول : « يجد فى الأرض مراغما » متحولا ومهاجرا ، اسم مكان ، وعبر عنه بالمراغم ، للإشعار بأن المهاجر فى سبيل الله يصل فى الموضع الذى يهاجر إليه إلى ما يكون سببا لرغم أنوف قومه الذين فارقهم ، من الرغم ، وهو الذل والهوان ، وأصله لصوق الأنف بالرغم ، وهو التراب ، وفعله من باب قتل ، وفى لغة من باب تعب » .

فإذا كان الفرار من الظلم واجبا مقررا على كل مسلم مستضعف فى الأرض فإن الدفاع عن الذين لا يجدوها حيلة ، ولا يستطيعون سبيلا من كبار السن والأطفال لا يقل عنه وجوبا ومن ثم قال سبحانه :

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها . واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا

١- النساء : ١٠٠ .

من لدنك نصيرا »[1] .

مكانة الهجرة فى السنة :

حظيت الهجرة المباركة بمكانة طيبة أيضا فى السنة النبوية الشريفة .

فعن ابن عباس رضى الله عنه قال :

« دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهى تبكى فقال لها :

« ما يبكيك يابنية » قالت : يأبت ومالى لا أبكى ، وهؤلاء الملأ من قريش فى الحجر يتعاهدون باللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، لو قد رأوك ، لقاموا إليك فيقتلونك ، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك ، فقال :

« يا بنية ائتنى بوضوء » فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد . فلما رأوه قالوا : هاهو ذا فطأطئوا رءوسهم وسقطت رقابهم بين أيديهم ، فلم يرفعوا أبصارهم . فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال : « شاهت الوجوه » .

فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافرا[2] » .

والحديث إشارة إلى ما كان يسود بيت النبوة من توتر وقلق ، والذى يتدبر كلمات الزهراء رضى الله عنها :

« وهؤلاء الملأ من قريش يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » .

وقولها : « وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك » يدرك أن القوم كانوا جادين ... ، ... ويدرك أيضا أن الله لم يأذن لنبيه بالهجرة فى مثل هذه الظروف الملتهبة بالحقد

١- النساء : ٥٧ .

٢- رواه ابن كثير ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه ، وقال صحيح على شرط مسلم .

عليه المتحفزة للنقمة منه إلا وهو كفيل بحمايته وصيانة دمه ، على الرغم من حرص المتآمرين عليه ، الذين أحاطو بيته ، وباتوا يرصدون حتى همسات صوته .

كما أن فى الحديث إشارة إلى طاقة حديثه من اليقين تضاف إلى ما عند رسول الله ﷺ ، ودرس فى نفس الوقت للأعداء المتربصين بالدعوة والداعية فى كل عصر ومصر لعلهم يرعون[1] ، فيكفون .

عن أنس أن أبا بكر حدثه . قال :

« قلت للنبى ﷺ ونحن فى الغار .. لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا » قال : فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »[2] .

لم يكن أبو بكر إلا مشفقا على رسول الله ﷺ .

وفى نفس الوقت ما كان أحوجه إلى أن يستمع إلى كلمات تبعث الطمأنينة فى نفسه من رسول الله ﷺ المؤيد بالوحى ، والمطمئن إلى رعاية ربه وعنايته .

لما أسلم عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وجاء إلى رسول الله ﷺ وأسلم مدّ رسول الله يده فقبض عمرو يده فقال رسول الله ﷺ : مالك ياعمرو قال أشترط ، قال تشترط ماذا ؟

فقال عمرو بن العاص : أن يغفر لى ، فقال رسول الله ﷺ : لعمرو بن العاص :

« أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ؟

وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ؟

وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ »[3] .

١- انظر الهجرة .. ٦٩ .

٢- هذا الحديث رواه الإمام أحمد ، وهو فى الصحيحين كما يذكر ابن كثير فى تفسيره : ٢/٣٥٨ .

٣- هذا جزء حديث مطول فى صحيح مسلم .

وما يخصنا من هذا الحديث الشريف « وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها » والمقصود بالهدم التكفير كأن الهجرة تهدم الذنوب السابقة عليها ، وهذا تكريم للهجرة العظيمة ، وعمرو بن العاص كان يتحدث عن ماضيه قبل الإسلام ، وأيام الجاهلية ، ولم يكن من المهاجرين لكن الرسول ﷺ أراد أن يذكر إلى جانب الإسلام الذى يَجُبّ ما قبله ! الهجرة والحج ، وهما أيضا يجبان ما قبلهما ، والمناسبة قائمة بين الإثنين ، ففى كليهما مشقة وعناء ! ولجوء إلى الله عز وجل .

أما الحديث الذى رواه ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ وهو : « لا هجرة بعد الفتح !! ولكن جهاد ونيرية !! وإذا استنفرتم فانفروا[1] » .

وينقل الشوكانى آراء العلماء فيه كما يلى :

« هذا الاستدراك يقتضى مخالفة حكم ما بعده لما قبله ، والمعنى : أن الهجرة التى هى مفارقة الوطن التى كانت مطلوبة على الأعيان إلى المدينة ، انقطعت ، إلا أن المفارقة بسبب الجهاد باقية ، وكذلك المفارقة بسبب نية صالحة ، كالفرار من دار الكفر ، والخروج فى طلب العلم ، والفرار بالدين من الفتن والنية فى جميع ذلك »[2] .

أما النووى فيفسر قول الرسول ﷺ : « وإذا استنفرتم فانفروا » . « يريد أن الخير الذى انقطع بانقطاع الهجرة يمكن تحصيله بالجهاد والنية الصالحة ، وإذا أمركم الإمام بالخروج إلى الجهاد ونحوه من الأعمال الصالحة فاخرجوا إليه » .

إن هذا الحديث الشريف العظيم يشير إلى تحديد زمان الهجرة ، وهو يبدأ منذ أن أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة ، بعد لقاءاته مع الأنصار إلى فتح مكة ، والذين نالوا شرفها كاملا ، هم الذين هاجروا قبل الرسول وبعده إلى فتح مكة ، لأن المسلم فى

١- رواه الجماعة إلا ابن ماجه راجع نيل الأوطار للشوكانى :

٢- نيل الأوطار .

هذه المرحلة يفر بدينه إلى الله عز وجل ، ويضحى بأغلى ما يضحى به الإنسان وطنه ، وفى سبيل هجرته من مشاق ، وما يواجهه من صعوبات .

أما بعد فتح مكة ، فقد تحولت مكة إلى أرض سلام واطمئنان للمسلمين ، ولم يبق ما يدعو إلى الهجرة ، وحتى لو أراد المسلم الهجرة فلن يلقى مشقة ، أو صعوبات ..

لكن من فاته شرف هذه الهجرة ، فإن هناك شرفا آخر هو ميدان الجهاد فى سبيل الله .

إن لهذا الحديث النبوى مغزى آخر جميلا هو :

لو سمح بالهجرة بعد فتح مكة لمن يريد فمعنى هذا أن التوسع فى الهجرة قد يؤدى إلى تقليل عدد المسلمين فى مكة ومن يدرى ؟

أليس من الجائز أن يشكل العدد الذى آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه خطرا على الدعوة ، وقد يؤدى إلى حركة مضادة لاسترداد مكة من الإسلام ، وإعلان التمرد على الدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة[1] ؟ .

ولا ننسى حركة الردة التى قضى عليها الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فنجت الدعوة من قضاء مبيت ، ونجا الإسلام وكتب الله له النجاة ، ولدعوته البقاء .

– عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إن الأنصار كرشى وعيبتى ، وإن الناس سيكثرون ويقلون ، فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن مسيئهم »[2] .

قوله ﷺ : « الأنصار كَرِشى وعيبتى » .

ذكر النووى ما قاله العلماء أن معناه : جماعتى وخاصتى ، الذين أثق بهم واعتمد

١– انظر الهجرة ... ص ٧٢ .

٢– أخرجه مسلم .

عليهم فى أمورى . قال الخطابى : « ضرب مثلا بالكرشى لأنه مستقر غذاء الحيوان الذى يكون بقاؤه ، والعيبة : وعاء معروف ، أكبر من المخلاة يحفظ الإنسان فيها ثيابه ، وفاخر متاعه ، ويصونها . ضربها مثلا لأنهم أهل سره وخفى أحواله » .

هناك أكثر من حديث نبوى يشيد بالأنصار بالإضافة إلى أكثر من آية فى كتاب الله عز وجل ، فى الإشادة بهم ، فدورهم فى إعزاز الدعوة ، وبناء الدولة أكبر من عظيم ، أما مروءتهم نحو إخوانهم المهاجرين ففاقت كل ألوان المروءة وأرفعها ، وحين قال صلوات الله وسلامه عليه :

« لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار » .

« ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادى الأنصار وشعبهم .. »

« الأنصار : شعار والناس دثار .. ».

حين قال الرسول ذلك ، لم يكن هذا القول مجاملة ، أو تطييبا للخواطر ، بل كان تقديرا لهم ، وفى نفس الوقت اعترافا بالفضل لذوى الفضل .

– روى الإمام أحمد عن عبد الله البجلى أن رسول الله ﷺ قال :

« المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض ، والطلقاء من قريش ، والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة » .

كان رسول الله ﷺ حريصا كل الحرص أن يمزج بين المهاجرين والأنصار . ليصهرهم جميعا فى بوتقة الإسلام لذلك كان أول عمل قام به إثر وصوله المدينة هو :

أن آخى بينهما ؛ لأن وحدة الجبهة الداخلية كانت ضرورية لقيام الدولة المسلمة الناشئة ، لتستطيع الصمود فى مواجهة عدو خارجى يتحفز للانقضاض فى أى وقت من

قبل قريش ، أو القبائل العربية الموالية لها ، وفى مواجهة عدو داخلى يتربص بها الدوائر ممثلا فى اليهود المقيمين بالمدينة ، والمنافقين ، وهؤلاء يحلو لهم العمل فى الظلام ، وهم أخطر مراحل من العدو الخارجى(١) .

١- انظر الهجرة ... ص ٧٥ ، ٧٦ .

أثر هجرة رسول الله ﷺ في الدعوة ؟

كان تردد المسلمين بين الحبشة ، وانتقال البعض إلى المدينة ، مظهر من مظاهر عدم الاستقرار فى مكة ، واطمأن كفار مكة إلى أن الأمر سيؤل بالمسلمين فى نهاية المطاف إلى الاستقرار فى أرضهم مضطرين فيكونوا عرضة لسخرية الكفار ، والاستهزاء بهم ، لكن عناية الله عز شأنه كانت تدخر مفاجأتين :

(أ) مفاجأة يفرح لها وبها المسلمون بنجاتهم ، وحريتهم ، والأمر لهم بالانتقال إلى المدينة يروحون ويغدون مع رسول الله ﷺ لا يعكر صفوهم مستهزئ ، ولا ساخر . تحوطهم عناية الله ورعايته .

(ب) مفاجأة لقريش وسادتها ، لم يعلن عنها محمد ﷺ حتى لا تتأهب قريش وحلفاؤها لتتصدى لها بالقوة والعنف ، ونجحت الخطة المحكمة ، على الرغم من احتياطات الرقابة القرشية على تحركات الرسول ﷺ ، ولما أسقط فى أيديهم ورأوا أن الأمر قد خرج من بين أظهرهم ، اعترفوا بأن هذه أول هزيمة منكرة لحقتها من محمد ﷺ .

لقد كانت تبغى حبس رسول الله ﷺ وأصحابه فى مكة لا يبرحونها ، وتظل هى تعد الأنفاس على المؤمنين ، وتتسلى كل يوم بالسخرية تارة والتحدى تارة أخرى .

لكن لم يكد يعلن نبأ خروج الرسول ﷺ من مكة سرا حتى هاجت قريش وماجت ، وراحت تبذل محاولات مضنية ، لإجباره ﷺ على العودة الى مكة ، لكن محاولاتها كلها باءت بالفشل الذريع ، وأصبح لزاما عليها التزام الصمت لتعيد ترتيب أفكارها من جديد[1] .

لقد تم التحول بانتقال محمد ﷺ إلى المدينة ، لتأخذ الدعوة طريقها نحو

١- انظر الهجرة .. ص ٢٠ .

الانطلاق ، والذيوع نحو هدفها المرسوم ، ومن عناية الله سبحانه لرسوله ﷺ ، أن هذا الانتقال والتحول تم عن طريق السلم ، لم ترق فيه قطرة دم واحدة ؛ لأن الفئة المؤمنة لم تؤذن بحرب ، كما لم يكن فى مقدورها أن تقيم دولة داخل الدولة ، لقد مرت أيام عصيبة على الفئة المؤمنة فى مكة وهى تعيش إما متخفية ، أو فى جوار أحد المكيين ، وحتى السنة العاشرة عندما عاد الرسول ﷺ من رحلة الطائف ، التى رده أهلها أسوأ رد ، لم يدخل مكة إلا فى جوار المطعم بن عدى .

لقد بات أمر الدعوة فى مأمن بعد الهجرة المباركة ، وكان تأثيرها على الدعوة خيرا كله وبركة .

أما المستشرقون ، وكتاب الغرب ومن يدور فى فلكهم الذين تجرى الصليبية فى عروقهم فمهما حاولوا أن يلصقوا بحركة الهجرة صفات :

الهرب ، والفرار ، والخوف فستظل رمزا على أسمى ألوان البطولة والمغامرة فى سبيل العقيدة ، والإيمان وصورة مشرقة لأعظم ألوان التضحية والفداء فى سبيل إعلاء كلمة الله[1] .

١- انظر المرجع نفسه .. ص ٢٠ .

الهجرة فى اللغة ، والاصطلاح :

أما فى اللغة : فهو خروج البدوى من باديته إلى المدن ، وكل من أقام من البوادى بمباديهم ومحاضرهم فى القيظ ، ولم يلحقوا بالنبى ، ولم يتحولوا إلى أمصار المسلمين التى أحدثت فى الإسلام - وإن كانوا مسلمين - فهم غير مهاجرين ، وليس لهم فى الفئ نصيب ويسمون بالأعراب[1] .

وفى الاصطلاح الشرعى : يقصد بالهجرة هجرة الرسول ، وصحبه من مكة إلى المدينة والمهاجرون : الذين قاموا بهذه الهجرة ، وإذا أطلق ذكر الهجرتين فإنما يراد بهما هجرة الحبشة ، وهجرة المدينة :

ويرى ابن الأثير أن الهجرة هجرتان :

الأولى : التى وعد الله عليها الجنة فى قوله تعالى :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ...[2] » .

فكان الرجل يأتى النبى ﷺ ويدع أهله وماله لا يرجع فى شىء منه ، وينقطع بنفسه إلى مهاجره ، وكان النبى ﷺ يكره أن يموت الرجل بالأرض التى هاجر منها ، فمن ثم قال :

« لكن البائس سعد بن خولة » يرثى له أنه مات بمكة .

فلما فتحت مكة صارت دار إسلام كالمدينة .. وانقطعت الهجرة .

والأخرى : من هاجر من الأعراب ، وغزا من المسلمين ، ولم يفعل كما فعل أصحاب

١- هكذا قال الأزهرى .

والهجر - بالفتح - ضد الوصل ، والاسم الهجرة .

والهجرة - بالكسر ، والهجرة - بالضم - : الخروج من أرض ، .

والمهاجرون الذين ذهبوا تبع النبى ﷺ مشتقق منه . راجع لسان العرب : جـ ٧ .

٢- التوبة : ١١١ .

الهجرة الأولى فهو مهاجر ، وليس بداخل فى فضل من هاجر تلك الهجرة[1] ..

الهجرة فى فكر المستشرقين :

يطيب لكثير من المستشرقين من ذوى الأهواء ، وكتاب الغرب المتعصبين أن يقللوا من شأن هذا الحديث الخطير الشأن العظيم الأثر .

فهم يطلقون على الرسول ﷺ وصاحبه أبى بكر رضى الله عنه « الفارين » ، « والهاربين » .

وهو تفكير سقيم ، الغرض منه : تهوين هذا الحدث الهام فى فجر الدعوة وتاريخها ، وقد يكون من المستساغ إطلاق لفظ « الفرّار » ؛ لأنه ورد فى القرآن الكريم : « ففروا إلى إنى لكم منه نذير مبين »[2] .

لكن المستشرقين وكتاب الغرب المتعصبين لم يقصدوا هذا المعنى السامى الذى ورد فى الآية الكريمة ، وإنما يقصد معظمهم المعنى المضاد الذى يعنى الجبن .. والخوف .

ولا يحاول هؤلاء أن يقنعوا أنفسهم بأن الهجرة كانت ضرورة ملحة كمرحلة انتقالية نحو آفاق أوسع .

لو أن دعوة الإسلام كانت قاصرة على مكة ، وأن مهمة الداعى الأول ﷺ كانت منحصرة فى إقامة دولة وتأسيس مجتمع فوق أرض مكة وحدها ، لكان لغمزات أولئك الحاقدين ما يبررها ، لكن دعوة الإسلام لم تكن دعوة محلية ضيقة خاصة بمكة ، ولا إقليمية محدودة قاصرة على المنطقة العربية ، وإنما هى دعوة عامة شاملة تهدف إلى خير البشرية والإنسانية فى كل زمان ومكان .

إن الدعوة الإسلامية لبثت فى مكة ثلاث عشرة سنة ، عانى خلالها محمد ﷺ

١- الهجرة : ٢٧ ، ٢٨ .

٢- الذاريات : ٥٠ .

وصحبه الكثير من عنت قريش وصلفها ، وإرهابها وكيدها ، ولم تفرز هذه المدة إلا فئة مؤمنة قليلة تعد بالعشرات المعدودة على مسار الدعوة .. فى مكة ، فماذا يكون عليه الحال لو أن محمدا ﷺ أثر البقاء فى مكة ؟

إن النتيجة الحتمية – والحالة هذه – أن تظل الدعوة .. قابعة فى ربوع مكة ، ثم تأخذ فى التقلص إلى أن تتلاشى ؛ لأن الفئة المؤمنة التى تحصى بالعشرات قلة مستضعفة لا جاه لها ، حتى من كان منها من ينتسب إلى قبيلة ذات حسب وجاه تخلت عنه قبيلته[1] .

إن « الاستراتيجية » الحديثة فى أرقى أساليبها تقر انسحاب القائد بجيشه إذا كان هذا الانسحاب يؤدى إلى أخذ موقع محصن يستطيع الجيش منه أن يتمكن من الدفاع فضلا عن الهجوم ، وهذا الانسحاب أمر سلبى ما فى ذلك جدال ، لكن هذه السلبية تتضمن إيجابية ما فى ذلك جدال أيضا ، انسحاب هو كالضرورة الملحة التى فرضتها واقتضتها الظروف القاهرة .

وبهذا المقياس ، فإن الهجرة بعد ذلك ليست إلا انسحابا دعيت إليه الضرورة الملحة ، أدى إلى أخذ موقع محصن ، وانحياز إلى فئة مؤمنة هى فئة الأنصار ، أشار إليها القرآن الكريم فى سورة الأنفال :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار .

ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »[2] .

فعندما تتلى هاتين الآيتين الكريمتين يتسلل إلى الأذهان حادث الهجرة ، لقد كانت

١- الهجرة .... ٣٠ .

٢- الأنفال : ١٥ ، ١٦ .

أرض الهجرة الجديدة موقعا ممتازا للدعوة بلا ريب ، وهذا ما أثار حفيظة الكفار ، ومن سلك طريقهم ، وكان شعبها العظيم هو الفئة المؤمنة التى انحاز إليها المهاجرون من أهل مكة[1] .

مقارنة بين هجرة الحبشة والمدينة :

مما لا ريب فيه أن هجرة الحبشة كانت بإذن من رسول الله ﷺ وهجرة المدينة كانت أولا بإذن من الله لرسوله ﷺ ، ثم إذن الرسول ﷺ لصحابته بالهجرة إليها ..

وهذه مقارنة بين الهجرتين الكريمتين :

١- كان الدافع وراء هجرة الحبشة مخافة الفتنة ، والفرار إلى الله بالدين ، ولم يكن الهدف هو القيام بنشر الدعوة الإسلامية ، وإن كان الظرف حتم على هؤلاء المهاجرين أن يشرحوا دعوة الإسلام بين يدى ملك الحبشة وأساقفته ، فأسمعوهم إياها ، وهذا وحده كفيل بأن الدعوة قد وصلت بالفعل إلى أهم شخصيات الحبشة .

٢- لم يكن القصد من هجرة الحبشة تحدى قريش ؛ لأن الحبشة تبعد كثيرا عن مكة ثم إن هذا العدد يقلل من عدد المؤمنين فى مكة .

وربما توقعت قريش أن يفنى هذا العدد ، وتنقطع أخبارهم الواحد تلو الآخر ، ولا يتركوا أثرا للدعوة يكون خطرا على مستقبل قريش .

٣- حققت الهجرة إلى الحبشة جزءا من التحول والانطلاق ، لأن النتيجة التى كان يرجوها المسلمون المهاجرون هى فرارهم بدينهم ، ويستقروا بأرض لا يتعرضون فيها لبطش ولا لأذى ، حتى إذا قُدر لإخوانهم فى مكة أن يفنوا مثلا

١- انظر الهجرة .. ٣١ .

عن آخرهم حملواهم لواء الدعوة من بعدهم[1] .

أما الهجرة إلى المدينة فكان من أهم أسبابها :

١- القرار بالدين حيث الأمن والاستقرار .

٢- التحول والانطلاق بعيدا عن سطوة المعتدين ، وإيذاء المستهزئين .

٣- تأسيس مجتمع قائم على دعائم الإسلام فى المهجر الجديد ، بعد أن ظل الإسلام مطاردا مدة ثلاثة عشر عاما ، كدين بلا دولة ، وشعب بلا أرض .

٤- كانت هجرة المدينة أكبر تحد واجه قريشا ، حيث حرصوا ألا يخرج محمد ﷺ وأصحابه من بين أظهرهم ، وكان إيمان الطائفة المؤمنة هو المحرك لهذا التحدى ، وهو الذى سجل صفحة البطولة الناصعة للفئة المؤمنة التى صنعت نقطة التحول[2] فى فجر الدعوة الإسلامية فى مرحلتها المكية .

١- انظر : الهجرة .. ص ١٧٩ .

٢- انظر المرجع نفسه .

الخاتمة

القارئ الكريم ..

بعد هذه الرحلة المباركة التى التقينا فيها حول فجر الدعوة الاسلامية منهجاً ودراسة أرانى أسأل :

هل أضاف هذا البحث شيئا جديدا الى معلوماتك ؟

هل وجدت فيه مايثير فيك حب الخير والسعى إليه ؟

هل وضحت أمام فكرك وعقلك صورة طيبة عن صاحب الدعوة ﷺ ؟

لقد حرص هذا البحث أن يضع بين يديك هذه النقاط :

ا- الدعوة الاسلامية .. كلمة طيبة ، فى قول رشيد ، ورأى سديد ، ومقالة هادفة ، وموعظة حسنة ، وكتاب مفيد وإذاعة طيبة .

ب- لابد من توحد كلمة المسلمين حتى يمكنهم الوقوف فى وجه أعداء اليوم الذين يريدون إذلالهم ونهب ثرواتهم ومقدساتهم ولنأخذ من الماضى عظمة وعبرة .

حـ- لابد من المحافظة على التراث الخالد الذى تركه محمد ﷺ : القرآن الكريم ، والسنة الشريفة .

وأعنى بالمحافظة هنا :

الجانب النظرى والعملى معا ، فلا يغنى أحدهما عن الآخر .

د- أثر الجوار فى نجاح الدعوة . وهذا يلفتنا الى نقطة هامة وهى أن الدعوة لابد لها من قوة تسندها وتشد من أزرها وتقف بجوارها لتتنفس بحرية ، وتتحرك فى أمان ، وخير شاهد على هذا موقف الأنصار رضى الله عنهم يوم بايعوا رسول الله ﷺ على حمايته ، والوقوف بجانب دعوته ، حتى انتصرت .

هـ- أشخاص الصحابة رضى الله عنهم الذين صنع منهم رسول الله ﷺ صورا حية مؤمنة ، تأكل الطعام ، وتمشى فى الأسواق ، وكان كل واحد منهم قرآنا حيا يمشى على الأرض ، وجعل من كل فرد منهم نموذجا مجسما للإسلام يراه الناس فيرون الإسلام .

و- إن النصوص وحدها لاتصنع شيئا ، وإن المصحف وحده لايعمل حتى يكون رجلا ، وإن المبادئ وحدها لاتعيش إلا أن تكون سلوكا .

ز- هذه كلمة للصحابى الجليل : عبد الله بنْ مسعود رضى الله عنه فى تعدد محامد الصحابة وفضلهم ، ووجوب التأسى بأفعالهم الحميدة وأخلاقهم ، قال :

« من كان متأسيا فليتأسي بأصحاب رسول الله ﷺ ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، وأقومها هديا ، وأحسنها حالا ، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم فى آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم »[1] .

اللهم ارزقنا حبك ، وحب نبيك ﷺ وحب صحابته الكرام رضى الله عنهم ، وارزقنا العمل الذى به يرضيك عنا ، إنك نعم المولى ، ونعم النصير .

« ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولاتحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

الفقير إلى مرضاة ربه

محمود محمد رسلان

١- انظر تربية الأولاد فى الاسلام طـ ص ٩٠٧ د/ عبد الله ناصح علوان . طـ السادسة ١٤٠٣ هـ .

ثبت المراجع

القرآن الكريم

أصول الدعوة — د/ عبد الكريم زيدان .

بلوغ الأرب — السيد محمود الألوسى .

بيان للناس — من الأزهر الشريف ١٩٨٨

تفسير القرآن العظيم : — ابن كثير طـ الحلبى

تفسير القرطبى — القرطبى طـ الشعب

تفسير المنار — الشيخ محمد عبده

تفسير القرآن الكريم — البيضاوى

تفسير الظلال — سيد قطب

حقائق الإسلام وأباطيل خصومه — عباس محمود العقاد

حياة محمد ﷺ — د/ محمد حسين هيكل

حياة محمد ورسالته — مولانا محمد على طـ بيروت

الدعوة إلى الاسلام — الشيخ محمد أبو زهرة / المؤتمر السابع مجمع البحوث ١٣٩٢ هـ

الدعوة الاسلامية فى عهدها المكى مناهجها وغاياتها — د/ رؤوف شلبى طـ مجمع البحوث

الدعوة الى سبيل الله : أصولها وميادينها — د/ عبد الخالق إبراهيم اسماعيل .

دلائل النبوة — البيهقى

الدين المقارن (المسيحية) — أحمد عبد المنعم الحلوانى

الرد على الدهريين — جمال الدين الأفغانى

الرسول ﷺ سعيد حوى

الروض الأنف السهيلى

زاد المعاد ابن القيم

سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد حـ ٣ تحقيق

د/ مصطفى عبد الواحد طـ المجلس الأعلى .

السيرة النبوة ابن هشام

السيرة النبوية ابن كثير

السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة د/ محمد محمد أبو شهبة

السيرة الحلبية العلامة برهان الدين الحلبى

صبح الأعشى القلقشندى

صحيح البخارى الإمام البخارى

الطبقات الكبرى محمد بن سعد

إظهار الحق الشيخ رحمة الله الهندى

عبقرية عمر عباس محمود العقاد

العقد الفريد ابن عبد ربه

الفصول فى اختصار سيرة الرسول ﷺ ابن كثير

فقه السيرة محمد الغزالى

فقه السيرة د/ محمد سعيد البوطى

قصص الأنبياء ابن كثير

قصص الأنبياء الشيخ عبد الرحمن النجار

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ أبو الحسن الندوى

مذكرة فى الدعوة الشيخ البهى الخولى

مروج الذهب المسعودى

المسند	الإمام أحمد بن حنبل
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم	محمد فؤاد عبد الباقى
المعجم الوسيط	مجمع اللغة العربية
الملل والنحل	الشهرستانى
من كل شئ موزون	د/ عبد المحسن صالح .
إنجيل برنابا تعريب	د/ خليل سعادة طـ على صبيح
الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق	محمد عبد الله السمان
الوحى إلى الرسول محمد ﷺ	الشيخ عبد اللطيف السبكى
وحى القلم	مصطفى صادق الرافعى

الدوريات

- بحوث المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة والدعاة - المدينة المنورة ١٣٩٧ هـ
- مجلة الأزهر :
- الأعداد المحرم : ١٤٠٤ هـ

ربيع الاول : ١٤٠٦ هـ

المحـــرم : ١٤٠٨ هـ

ربيع أول : ١٤٠٨ هـ

رجـــب : ١٤٠٨ هـ

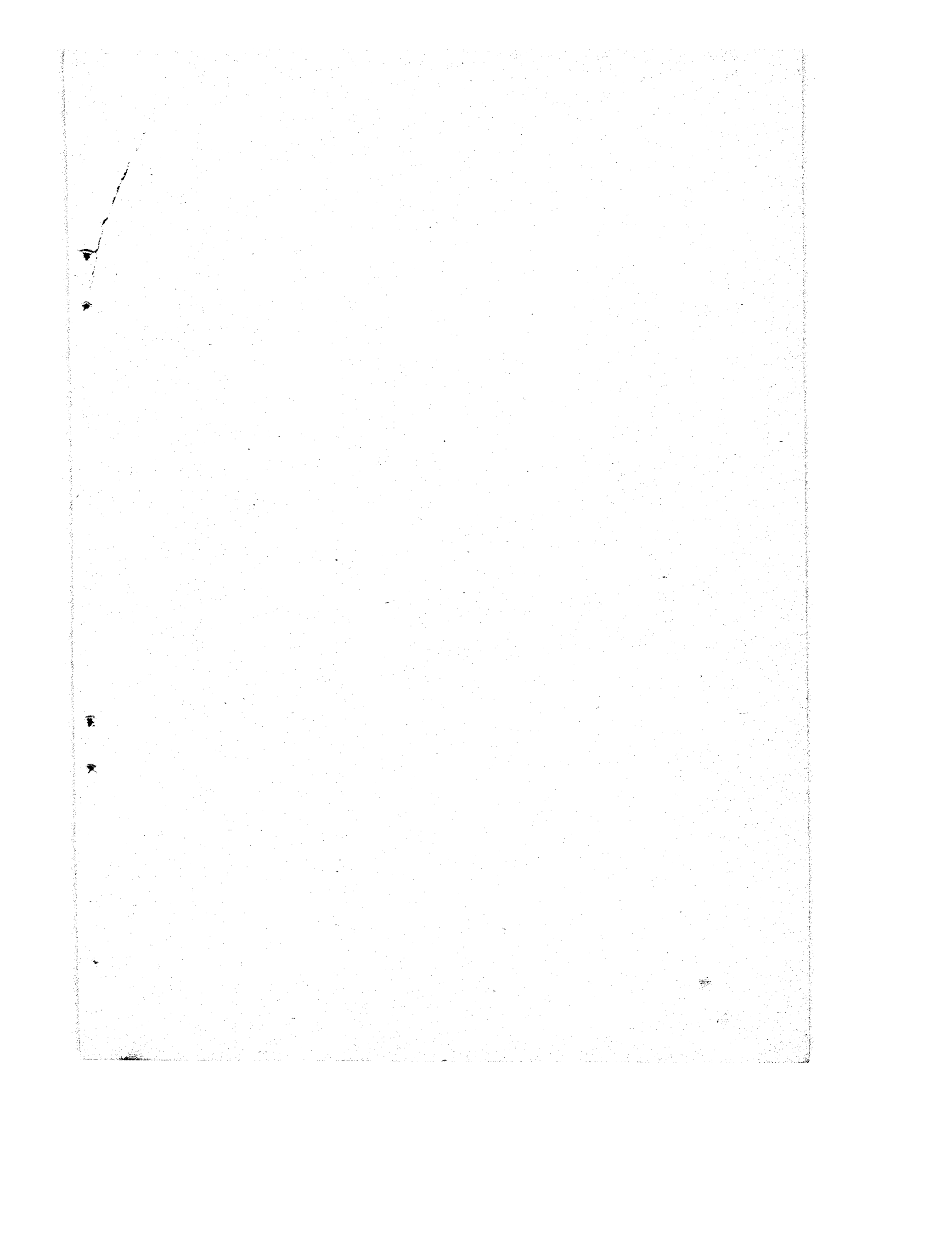
رمضــان : ١٤٠٨ هـ

شـــوال : ١٤٠٨ هـ

المحـــرم : ١٤٠٩ هـ

جماد الأولى : ١٤٠٩ هـ

- المؤتمر السابع : الدعوة الى الاسلام مجمع البحوث ١٣٩٢ هـ القاهرة
- عالم الفكر : القرآن والسيرة النبوية : المجلد الثانى عشر يناير فبراير - مارس ١٩٨٢ . الكويت .



الفهرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر